أشباح المدينة المقتولة

أشباح المدينة المقتولة

رواية

بشير مفتي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0571-3

جميع الحقوق محفوظة

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com
بيروت - لبنان

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

هناك دوما افتتان رهيب وباهت وأصم للأشياء الميتة
التي تكون قد فقدت ألوانها، ولم يبق من وجهها سوى قناع الموت

السيمورغ
محمد ديب

تنبيه

"هذه القصة هي من وحي الخيال، وأي تقاطع بين أحداثها، وشخصياتها مع أحداث وشخصيات قد توجد في الواقع هو من باب الصدفة لا غير"

نشيد الصوت الداخلي الذي يتذكر

في البدء كانت الكلمة
لا في البدء كنت أنا
أنا الكاتب.. كاتب هذه الرواية..

* * *

دائما كانت الأصوات تتأوه في رأسي، تُغني داخل رأسي، ترقص أحيانا، ومرات تكتفي بالصراخ فقط، أسمعها جيدا كأنها مجموعة أصوات في صوت واحد، كأنها لوحة فسيفسائية توحدهم في ما بينهم، مزيج مختلط، مترابط ومتفكك، في وحدة مستحيلة لأنها سرعان ما تشتتهم من جديد في ألوان مختلفة برأسي..

لم أسأل نفسي: من أين جاءت تلك الأصوات؟ ولماذا تضج برأسي؟ لم أحاول أن أفهم، ما معنى أن تفهم شيئا كهذا؟ لم أخف منهم، كانت أصواتهم تشبه صوتي البعيد الأثر في منطقة داخلية من لاوعيي، أو من تلك الذكريات التي لا تكف عن الصراخ بدورها وهي تستغيث: أنقذني من الموت.

أنقذني من النسيان.

أنقذني من الجحيم..

كيف أفعل ذلك؟ ومن أين لي بتلك القوة الداخلية العظيمة لأواجه تلك الذاكرة اللعينة التي طالما هجرتها عن عمد وبقسوة شديدة؟

من أين لي بذلك، والكلمات التي تتكلم داخلي تحتاج أن تمتزج بالدم كي تصل لغايتها المنشودة، وتقول ما سكت عنه الآخرون خشية وريبة..

لم أفكر لأني لم أفهم، ولأني كنت حبيس تلك النقطة التي امتزجت فيها أصواتي الداخلية بأصواتهم جميعا، وكانوا ينشدون بهذا الصوت الجماعي الممزوج أغنية الليل الطويلة، وهُم يهللون فرحين، ويتكلمون متألمين، ويضحكون كسعداء، ويبكون كتعساء، كأنهم في منطقة معزولة عن الكون يعيشون حالاتهم المختلفة، فتراهم نائمين ومستيقظين، يحلمون بالسعادة، وهم يشعرون بذلك الألم الثقيل على النفس..

إنهم يريدون أن يعدموا الصمت، وأن يفجروا بداخلي القدرة على الكلام. كأنهم يبحثون عني أنا الكاتب ليخرجوا من جغرافية ظلامهم الدامس نحو نور ضوء الحياة اللامع.

سمعتهم كل ليلة قبل النوم، وكل صباح عندما أستيقظ.

سمعت أصواتهم وحكاياتهم وذكرياتهم وجراحهم.

سمعت قصصهم من أولها إلى يائها، من مبتدئها إلى منتهاها، ومع كل قصة ارتجفت فرائسي، وارتعشت وريقات قلبي، ودب في عروقي دم نابض بالحب والحنين والرغبة في الصراخ مثلهم..

سمعتهم يتحدثون في لياليّ الآرقة، يمرون في ذهني كالأشباح، يخفقون بأجنحتهم المضاءة، وبأنوارهم المشتعلة، يرقصون ويدندنون، وهُم يحكون ما جرى لهم في تلك المدينة المتوحشة، والتي صفعتهم بأنيابها الحادة والمخادعة فمزقت أجسادهم النحيلة، وخدشت أوجههم الرقيقة، ثم تركتهم عراة في وجه الشر القبيح ينهَب منهم خيرات الروح، وأشواق القلب السعيدة..

كنت مثلهم فريسة ذلك المستنقع الذي يسقط فيه الحلم فيتلطخ بأدران الخوف، وأشواك القسوة.. أو كنت شاهدا على تلك اللحظات التي تنزل فيها شياطين السماء، وملائكة الجحيم فتغرز في قلب كل واحد جذوة سمومها النارية ثم تتركه معلقا بين سماء لا يُدركها، وأرض لا تطأها قدمه.

كانت أصواتهم تُشبه الكلمات التي تحاول أن تحبو ببطء نحو آخر النفق، البعيد المسافة، الشديد الظلمة، نفق الأحلام المستحيلة، وقد غشيها الظلام بكثافة، وحولها إلى كائنات ليلية، وهي تلهث متعبة من هذا الطريق الطويل الذي قطعته دون جدوى..

أسمع أصواتهم المهتاجة، المفجوعة، المتضرعة والمندحرة، القوية والضعيفة، الخافتة الصوت والمرتفعة، وأسمع صوتي في تلك الأصوات التي لم تفارقني للحظة واحدة، كأنها ساكنة في أعماقي المُسيّجة بأحلام هذه المدينة المقتولة..

أشعر أني مثل تلك الأصوات المكتظة والمختنقة، والتي تريد أن تخرج من ذاكرتها المغلقة فتعلن وجودها، وتظهر حضورها.

تلك الأصوات البعيدة كأنها قادمة من أزمنة متقادمة في التاريخ، قريبة جدا، وبعيدة للغاية، ما تزال صامدة صمودها الأسطوري، وتحمل وهج شمسها الداخلي، كأنها وُلدت للتو، وخرجت من شرنقة العزلة الآن فقط.

***

لا تريدنا الذاكرة أن نموت، تريدنا أن نعيش، وأن نبقى على قيد الحياة، فإذا مُتنا ماتت ذكرياتنا معنا، كم يبدو الأمر مأساويا عندما تنفصل أرواحنا عن أجسادنا، ومع الروح تذهب الذكريات إلى مكان

آخر، تصاحبنا إليه، أو هذا ما يحلو لي أن أتخيله، لكن لا أعرف ماذا سيبقى منها على الأرض، أشياء قليلة على ما أظن، قليلة، ولا تصمد طويلا، تموت مع مرور الوقت، تتحرف، تصبح قصصا خيالية لا تحكى كحقائق، ولكن كأساطير نسجها ذهن الإنسان فقط ليمضي بها وقته الضائع، أو ليشحن بها قلبه الفارغ..

لا أدري لماذا أتكلم عن الذكريات، وما يبقى منها ويذهب.

ولماذا عليّ أن أكون ذاكرتهم الوحيدة التي تريد أن تصمد أطول وقت ممكن.

ما فائدة ذلك؟ وهل ستحميهم ذكرياتهم من النسيان، أو الموت.

مرات أخبر نفسي أننا لا نتذكر إلا لننسى، ولا نسترجع ذكرياتنا إلا لنتركها ترحل عنّا، وليس الغاية حفظها من الموت، أو الزوال، ومرات أعّي أهمية أن نتذكر كل شيء، وهذا في حد ذاته وفاء لحياتنا كبشر على هذه الأرض..

"ليس للحياة أي قيمة عندما لا نتذكرها"

و:

"الناس بلا ذكريات أشجار عارية"

لعلي أتذكر كلمات زهرة الفاطمي لهذا السبب فهي جزء من هذا الذي مضى، ومن هذا الذي لن يمضي قط.

***

بالحب يعيش الإنسان ويموت

أو هكذا فكرت دائما منذ أحببت زهرة الفاطمي، وكنت شابًا يافعًا يرى العالم بوحشية وجنون أو يريد أن يصبغ عليه كل تلك الوحشية التي بداخله، والجنون الذي يطمح إليه..

الإنسان يعيش دائما في حالة توقع وانتظار، وهذا ما يجعله يذهب إلى الأمام، أو يقبل بفكرة أن الغد ممكن جدًا، لولا هذا ماذا كان سيعني الغد؟ الآتي؟ لا شيء تقريباً..

إن صوت زهرة الفاطمي هو الذي كان يحمل نبرة الأمل في الغد، وهو الذي كان أكثر نقاء من بين كل تلك الأصوات التي كانت تصرُخ، تُغني، تتوجَع، تبْكي، وتُريد أن تخرج من جديد إلى ظاهر الحياة..

ظننت دائما أن الحب يمكنه أن ينقذني حتى عندما أموت، ولم أكن أتصور أن الحب يقتل أيضا بدل أن ينقذ من تلك الحالة النهائية والأخيرة.

في ذلك الزمن البعيد، الغامض والمتوحش ظننت أشياء كثيرة خيب الزمن توقعاتها، وأفق حلمها وتحولت إلى شناعة، فظاعة، وشيء يصعب حتى التكلم عنه.

***

في البدء كانت الكلمة

وفي البدء كنت أنا..

أنا الذي سأكون ذاكرة هذه الأصوات المقموعة، وذاكرة المدينة التي عصفت بها سموم الغدر الآثمة، ورياح تقتلع أوراق الشجر الخضراء لتمسحها من الوجود، دون أن تمنحها فرصة العودة مرة أخرى.

يا إلهي كم يبدو الأنا ثقيلا عليّ، وهو يحمل معه كل هذه الأنوات الأخرى.

وهو يحلم أن يُعيد لها صوتها المنسي، وحضورها الملغى.

أنا..من أنا؟

صوتي الآخر الذي بقي غامضا في مكان مجهول، الروح الـــتي لم تمت بعد، الخيال الذي لن ينقذ الحقيقة، العدم الذي ســـيبتلع الحيـــاة ويدفعها للموت..

تلك الأرواح التي لم تمت بعد وهي تنشد في موتها حلمـــا آخـــر لولادة جديدة.

إنها أصوات الاشباح التي ترفض أن ترحـــل قبـــل أن يســـمعها الآخرون.

ها هو صوتها يصرخ الآن، ويتكلم كأنه حقيقة في حلم، أو حلم في حقيقة.

الكاتب

الفصل الأول

ولدت عام 1969 بحيّ "مَارْشِي أتناش" أو "سوق اثنا عشر" دون أن أعرف سبب التسمية الفعلية للحيّ، وخاصة رقم اثنا عشر المضاف للسوق الشعبي الذي كان يميز هذا الحيّ في منطقة بلكور الرائعة، وهي رائعة لعدة أسباب فلقد كان يحدها من اليسار حديقة الحامة الكبيرة والجميلة، والتي كانت مأوانا ونحن أطفال عندما تضيق بنا أزقة الحيّ الصغيرة، ومن فوق يوجد حي "العقيبة" الجبلي، ومقبرة "سيدي أمحمد" الفاتنة التي كانت ملتقى النساء والباحثين عن كرامات الأولياء الصالحين، و"التيريفيريك" التي كانت تربط سكان التحت بسكان الفوق.

كان حياً خلابا بمعنى الكلمة به خمس قاعات سينما كما أذكر، بدأت التردد عليها منذ صغري، وحتى مرحلة شبابي كنت شاهدت معظم أفلام الويستيرن لجون وايـن وشارل برونسون.. ثم أفلام الويسترن الإيطالية للمخرج سيرجيو ليوني وخاصة تلك التي تسند فيها البطولة للممثل كلينت إيستوود، أو لي فان كليف، أو الثنائي المرح تيرنس هيل وباد سبنسر والذين كانت صورهم على بوستر الفيلم كافية حتى تجد طوابير من الناس أمام بائع التذاكر، والأفلام الهندية كذلك بعدد مهول، لا أتذكر عناوين تلك الأفلام الآن، رغم أنه نادرا ما نهتم بعناوينها، فهي كانت متشابهة في الإيقاع والشكل، وطريقة الإخراج غير أنها كانت تمثل بالنسبة لنا سفرا في الخيال الهندي الذي ينسيك واقعك تماما، وبعض الأفلام المصرية العتيقة والملونة فيما بعد،

الأفلام البوليسية لبول نيومان وروبرت ميتشوم، الأفلام الصينية لجاكي شان وبروسلي وغيرهم.. كانت السينما تأخذ مني الوقت الكثير فهي تسلية الشباب الذي لا يجد غيرها مع متابعة لعبة كرة القدم المحلية حيث كان ذلك مقدسا أيضا بالنسبة لنا، فلم نكن نفوت أي مقابلة يلعبها فريقنا المحلي بملعب "20 أوت"مع فرق من ولايات مختلفة.. لكن هذه الأشياء تغيرت بسرعة بحلول الثمانينات مع موجة التدين التي ظهرت على السطح وتزامنت مع وضعية اجتماعية صعبة، اتجه البعض للدين ولو بطريقة سطحية، والبعض الآخر للانتظار الطويل، وقل الاقبال على تلك القاعات، وبعض القاعات تحول إلى عرض أفلام فيديو مقرصنة، وصارت بعض القاعات تعرض حتى أفلام بورنو يحضرها الشباب المكبوت جنسيا، لا يجد ملاذه إلا في الاستيهامات التي تثيرها فيه تلك الشرائط الخليعة وكان أغلب المترددين هم شباب الخدمة العسكرية أثناء زياراتهم لأهاليهم، وللأسف بقيت قاعات السينما ذكورية بامتياز، ومحظورة على الإناث، ولا تدخلها النساء إطلاقا، اللهُّم إلا تلك الخادمة التي تبيع الحلويات والمشروبات بين فيلم وفيلم، ولم تكن تسلم من مضايقات ومعاكسات جنسية غالب الوقت واستمر الأمر على هذا الحال حتى فترة منتصف التسعينيات لّما اخترع أصحاب قاعات السينما طريقة لجلب الشبان والفتيات إلى شرفة القاعة وتركهم يفعلون ما يشاؤون دون حتى مشاهدة الفيلم، إلى أن أغلقت وهدمت أغلب القاعات فلم يبق منها شيء يذكر.

عندما كنت طفلا كانت الجزائر العاصمة هي كل الجزائر بالنسبة لي فقد كان الحيّ الذي أعيش فيه يعج بسكان من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، بألوان بشراتهم المختلفة، فالأسود من الجنوب بالتأكيد، والأشقر من منطقة القبائل غالب الأحيان، والأسمر من منطقة

الوسط الكبير، لكن كنا نحس بأننا ننتمي لهذه المدينة الكبيرة، وجزء من تلونها المتوحد في روح مشتركة..

وكنت أحب هذه المدينة التي لا تتركك محايدا أمـــام عظمتـــها وانحطاطها، وبناياتها الفرنسية البديعة وعمرانها المتداخل، وشـــوارعها الضيقة وأحياءها المتراصة، نعم أعرف هي مدينة الفرنســـيين، وقبـــل ذلك مدينة القراصنة والأتراك، وهي مدينة مُوحشة عندما تتصلب في وجهك، وهي أرض العذاب الكبير عندما تتحداك وتقهرك، وهـــي مدينة الغواية عندما تغويك نساؤها، وجمال طبيعتها، وهي مدينة الحلم عندما ترتفع بروحك إلى سمائها، وهي مـــا يحـــدث متكتمـــا بـــين تضاريسها، ومجاهيل ملذاتها فأن تظفر بها فكأنك ظفرت بأجمل امرأة في العالم، وأن تظفر هي بك فكأنك وقعت بين فكيّ أسوأ جـــلاد في التاريخ.

إنها مدينة لعنة كما قيل عنها، ومن تُصـــيبه بســـهمها تفقـــده البصيرة قبل البصر، ومن يُحبها سيموت من عشقها كالمجانين، ومن لا يُبارك سلطانها سيظل منفيا على الأرض طوال حياتـــه، وفي الســـماء طوال مماته.

أعرف..ستجدون صعوبة في تفهم ذلك، مثلي تمامـــاً، فـــالفهم صعب، والمدينة عصيّة على العقل كي يراها النـــاس بموضـــوعية مـــن الخارج، كي تُشرح لكم من دون باطنها الملعون، ولولا ذلـــك لبقـــي الأمر جارحا دون معنى، وقاسيا بلا هدف.

فاللعنة هي التفسير المقنع الوحيد لهذه المدينة، أو هكذا كان يقول أبـــي عنها..

* * *

أبـــي كان حالما أكثر مما يجب، ولهذا قتلته أحلامه في النهايـــة، ولعله أورثني تلك الأحلام فصنعت مني هذا الكاتب اللعين الذي يبحث في داخل أشواق الآخرين عن شوقه المنبوذ وروحه المسروقة..

كنت أريد أن أكون شاعرا مثل أبـــي عندما كنت أراه ينكـــب على الورق، ويكتب لساعات طوال غير عابئ بالزمن، فتلك الصـــورة بقيت محفورة في ذاكرتي دائما دون أن أفهم سر الكتابـــة، وطقســـها، ومعناها، ومرات كنت أدخل غرفته التي يتعبد فيها بين كتبه، وأوراقـــه وأقعد أتأمله، وهو غارق في تلك الحالة التي لم أجد لها أي تسمية حينها ثم تأتي أمي من المطبخ وتقول:

اتركه يعمل.

أتركه ثم أعود فأجده لا يزال غارقا في تلك اللحظة السحرية التي تفوق أي وصف..

والدي عرف المدينة قبل الاستقلال، وتعلم في مدارس الفرنسيين، وأحب لغتهم بل سحر بها، فكتب بها نصوصه الجميلة، وكان يعتـــبر ذلك انتصارا كبيرا حققه عليهم، وعلى ظروفه الصـــعبة الـــتي كـــان يتقاسمها مع كل أهالي البلد. أولئـــك الفقـــراء الأهـــالي المنبـــوذون، المتروكون لهاويتهم التعيسة تمتص منهم الكرامة في يوميـــات حيـــاتهم المهانة.

ثم جاءت الثورة ووقف معها، وساهم على مساعدتهم من خلال عمله كمدرس في كتابة التقارير والبيانات، والخطـــب، والشـــعارات الدعائية، لكن بقي ينأى بشعره بعيدا عن هذا كله، ويحتفظ بـــه نقيـــا خارج هذا السياق العنيف، فلم يدمج نصوصه في الثورة، وظل منعزلا بشعره عنها حتى أن البعض كان يتهمه بالازدواجية بين أن يكون ثوريا في الحياة، ورجعيا في الكتابة..

لكنه لم يكن يهتم، لقد ظل يعتبر الشعر فوق اللحظة، كـــذلك الوهج المسكون بالتاريخ البعيد، والمستقبل الكوني، وإلا فهـــو مجـــرد كلام يؤجج العواطف السطحية، أو يعمق جهل النـــاس بأنفســـهم العميقة..

كنت أنظر لأبـــي على أنه فيلسوف، وليس شاعرا، فقط لأنـــه كان يتكلم معي بحكمة نادرة قل لها نظير، لم أكن أسمعها في أي مكان آخر، لا عند كبار الحيّ، أو معلمي المدرسة، أو في الجامع الذي لم أكن أذهب إليه، لكن خطبه المجلجلة كانت تصلنا عبر مكـــبرات الصـــوت فيسمعها الجميع، من كان يؤمن، ومن لم يكن يؤمن، ومن كان يؤدي صلاته اليومية، ومن لا يؤديها على الإطلاق، وكم كنت أتمنى لو تركوا أبـــي يتحدث من ذلك المنبر الذي يؤمه المئات من الناس كل يوم جمعة فيسمعون ما يدهشهم بالفعل ويرفع أرواحهم إلى أعلى قمة يمكنهم أن يرتقوا إليها بعقولهم وقلوبهم المشرقة..

لكن لم يكن أبـــي يحدثني عن الدين، رغم أني تجرأت، وســـألته مرات عدة أسئلة لها علاقة بالله، والموت، وغير ذلك مما يشـــغل روح وعقل مراهق يتفطن لغوارب الكون، وألغازه الكثيرة.

كانت أسئلة بريئة، وكان جوابه الوحيد:

- الحقيقة يجب أن تبحث عنها بنفسك، وقـــد تقضـــي كـــل حياتك، وأنت في هذا الطريق، ومن يقول لك أنـــا أعرفهـــا اخشى منه أكثر من الذي يعترف بقصوره عن إدراكها..

كان ذلك يكفيني لأشعر بأني في حضرة رجل يحمل روحا كبيرة، وقلبا مضيئا، وعقلا راجحاً.. ومع هذا كانت حكمته تلك هي سبب ألمه، ومصدر مأساته.

كثيرا ما سمعت أمي تحذره قائلة:

- ابتعد عن طريقهم.. هم سيئون ويستطيعون أن يفعلوا بك ما يشاؤون.
- أنا لا أفعل غير ما تمليه عليّ مبادئي.
- يا رجل تتكلم عن المبادئ في هذا الوقت.
- وفي كل وقت.. أنا من هذه الطينة ولن أتغير.

لم أكن أفهم سر تلك الدردشة أيامها، وما توحي به كلمات أمي التحذيرية حينها، رغم أني كنت أفزع من مخاوف أمي تلك، مخاوف كانت تبدو لي منطقية أمام عته المجتمع الذي نعيش فيه، ويوم سألتها عن سبب تحذيراتها له لم ترغب في إخباري أول الأمر فألححت عليها متضرعا لأبرأ من هذا الإحساس بالخوف الذي تنقله لي دون حتى أن تدري، فراحت تقص عليّ حكاية مؤلمة بالفعل:

- والدك صريح وشفاف، عندما يرى الظلم لا يسكت، ويتحداه، وهو يعرف أنه لا يملك غير رأسمال رمزي اسمه الصدق والشجاعة فلا مال، ولا جاه، ولا حماية تحميه، وهو يفضل هذا على أن يبيع نفسه، أو يوسخ تاريخه.
- أعرف هذا، ما القصة احكي؟
- نعم.. عندما وقع الانقلاب على الرئيس بن بلة من طرف الكولنيل بومدين طلبت جريدة فرنسية من والدك أن يكتب عن ذلك فكتب مقالا انتقد فيه المنقلب عليه، والذي قاد الانقلاب، وصارح الجزائريين بمخاوفه على مستقبل بلده الذي يديره العسكريون كما يشاؤون. نشر المقال، وفي الغد جاءت الشرطة السرية، واعتقلته على الفور، لا أدري أين أخذوه، غاب شهرا بكامله ثم تركوه.. عندما رأيته بعد ذلك الغياب

المؤلم لم أعرفه من فرط نحوله، وهزال جسمه، والتعذيب الذي تركوه على جلده.

توقفت أمي عن الحديث، وبدأت تبكي، وهي تتذكر تلك الليالي القاسيات التي عاشتها وحدها مرتعبة من مصير زوجها ثم عادت للحديث من جديد:

- لم يحك لي ما حدث له، رغم أني ترجيته كثيرا، وغرق في صمت موحش لفترة طويلة قبل أن يعود من جديد للحديث. تكلم عما جرى له في المعتقل، والتعذيب، والطريقة الوحشية التي كانوا يتكلمون بها معه، كأنه لم يفعل شيئا من أجل تحرير هذا البلد، والإهانات التي تلقاها، والضرب الذي تعرض له، وقال "شعرت للحظة أني في قبضة المستعمرين القدامى، وليس أبناء بلدي".

عادت للصمت من جديد وهي تمسح دموعها التي تهاطلت بغزارة قبل أن تكمل:

- ومن يومها بدأت المضايقات في الثانوية التي يعمل بها حيث راح زملاؤه يتعاملون معه بحذر كأنه شخص مشبوه، والمدير يتصيد له عثراته حتى يعاقبه أكثر، اكتشف أنه مراقب، وأن شخصا يتبعه أينما ذهب وحل، وأن اسمه ممنوع من النشر في أي جريدة، أو مجلة وطنية تصدر بداخل البلد..لقد عاش عزلة رهيبة لفترة تجاوزت العامين تقريبا حتى استتب أمر السلطة في يد الكولنيل، وصار هو الحاكم الفريد للبلد فخفت الرقابة قليلا لكنه بقي كالمنبوذ لا يستطيع أن ينشر ما يكتبه في أي مكان..نصحه البعض بالهرب والمنفى كما يفعل المعارضون السياسيون فرد عليهم بأنه لا يستطيع ترك بلده

هذا، وأن حياته لا تستقيم إلا في هذا المكان الذي يحبه.. أنا حاولت معه لكنه رفض، وتشبث بشيء عميق في داخله واستمر..

ثم أضافت، وهي تشهق بالدموع:

- والدك رجل عنيد وشجاع لكن لا يستطيع الإنسان أن يكون شجاعا أمام القوة التي لا تحترم كرامة الشجعان..

لم تكن حسرة والدي على الاعتقال والإهانة والضرب بقدر ما كانت على أن البلد يسير في هذا الطريق المظلم الذي لا يقود لتحقيق أحلام الشعب التعيس الذي قضى قرونا تحت سلطان الآخرين دون أن يقدر على حكم نفسه لمرة واحدة، وعندما جاءت الفرصة ها هم حكامه الجدد يدفعونه للمجهول ويحركون سفينته المثقوبة للغرق.

***

لم تكن الجزائر في سنوات السبعينيات غارقة في أوهام تشييد دولتها الكبيرة التي ستفاخر بها العالم فحسب بل كانت تعيش غارقة في وحل حكم يقود الشعب من فوق، ولا يريد أن يعطي الناس الحق في أن يكونوا كما يشاؤون، ووالدي كان يقول لأصحابه المنشقين والحالمين "أن المشكلة ليست في بومدين فقط، ولكن في الشعب".

ومن يومها حفظت هذه الجملة، ورددتها بيني وبين نفسي متسائلا:

"هل الشعب هو السبب حقا؟ ماذا تفعل الشعوب عندما تحكم بالحديد والنار؟"

لم يجبني على ذلك أحد، حتى أبي قال مستفهما:

– من الغريب أن يتلون الشعب بلون جلاده.

وفهمت شيئا أليما للغاية أن "هذا الشعب مسكين لكنه خطر على نفسه ومستقبله".

أصدقاء والدي المنشقين يأتون للبيت، ويتحدثون طويلا بمكتبه في السياسة، والحياة، والشعر وكانوا يسمحون لي بأن أتنصت عليهم من خلف الباب، ومرات يصرخ أحدهم "نعرف أنك تسمع هيا أدخل، نسمح لك بالبقاء بشرط واحد، لا تقل لنا سأشارككم الشرب". بالفعل كانوا عندما يلتقون يمضون وقتهم في السكر، والتدخين، والحديث حتى تظن نفسك في حانة من فرط روائح التبغ والشراب.

لم يكن جميع أصحاب والدي المنشقين ضد بومدين، أو سياسته فالبعض كان يرى فيه عين الحكمة والصواب، والطريق الوحيد الذي سيقودنا للخروج من التخلف. والدي فقط كان معترضا على أن يحكم العسكري البلد ويسأل:

- متى تسلم السلطة للمدنيين؟

كلام السياسة لم يكن يعجبني كثيرا، ومع ذلك كان يفرض عليّ سماعه فأنا ابن هذا الرجل الذي يؤمن بقوة الأحلام على التحقق، وانتصار الخير على الشر.

أمي كانت تعترض على قدوم اصدقاءه للبيت أحيانا، من فرط ما تشعر أنهم على حسن نواياهم نحو والدي فهم يتخاذلون ساعات الحسم الحقيقية:

"في وقت الصَحْ لا تراهم، يختفون كالخنافس، يتركونك لوحدك، ولكن عندما تهدأ الأمور يتذكرون أن لهم صديقا يكتب الشعر، ويعشق الحرية".

بالنسبة لي كنت أراهم مثل بقية الناس تعيش بوجه ظاهر، وتخفي وجها باطنيا آخر، تظهر ما لا تقول دائما، مزدوجة في التعامل،

وتختلف مواقفها بحسب الأوقات، والسياقات بين الحرب والسلم.

ومن جهة ثانية كانوا يظهرون لي كأطياف تحلق في سماء بعيدة، ولا تجد موضعا لأقدامها عندما تريد النزول على الأرض..

لم أكن منهم، كانوا أكبر سنا وخبرة وتجربة في الحياة، وكانوا يعرفون خبايا التاريخ الذي يُملي عليهم تلك التصرفات الحذرة مرات كثيرة.

كنت في النهاية أسترق السمع لأحاديثهم لأني كنت بحاجة إلى أن أكبر بسرعة، كما أحتاج لأصواتهم المتكلمة كي أنعش ذاكرتي بالكلام أنا أيضاً، فلقد كنت أنقل ما يدور بينهم إلى أصدقائي في الحيّ، والثانوية، لكن بسرعة صرت لا أفعل حينما اكتشفت أن هذا الكلام ما لم يكن يحرك أحدا، فالناس مشغولة بهمومها اليومية، وظروفها التي تقاسيها كل يوم..

لم يرفع حظر النشر على والدي إلا بعد وفاة بومدين في ظروف غامضة، ومجيء رئيس عسكري جديد اسمه الشاذلي، وهي الفترة التي نشر فيها عدة كتب شعرية على حسابه الخاص رغم أن كل الكتاب والشعراء في السبعينيات والثمانينات كانوا ينشرون في مطابع الدولة، وتحت رعايتها المادية والمعنوية مثلما هو الشأن في مختلف الدول الاشتراكية التي تحرص أن يظهر أدب يمثل رؤيتها الإيديولوجية.

نشر كتبه الثلاثة على حسابه الخاص دون أن ينتظر أن يقرأها أحد فالأدب كان يعيش حسب منطق الجماعة التي تحكم مؤسساته وتسير قطاعه وأيضا لأنه لم يكن في شعره أي التزام كما ينتظر البعض منه، بل كانت نصوصه أقرب للتأمل في الحياة، وعزلة الكائنات البشرية داخل دائرتها المغلقة..

كان الأدب بين السبعينيات، والثمانينيات منقسما إلى قسمين: واحد يظهر في الداخل ينتمي كله للأدب الإشتراكي، وآخر يظهر في باريس، ويعبر عن رؤى نقدية للنظام، وكان أبي معجبا بكاتبين اثنين أكثر من غيرهما: محمد ديب وكاتب ياسين، الأول ذهب إلى فرنسا ليعيش هناك حياته الأدبية، والثاني بقي حائرا في مكان الإقامة، فلا الجزائر التي دافع عنها قبل الاستقلال صارت الجزائر التي حلم بها، ولا فرنسا التي أعطت له فرصة البروز الأدبي كانت تستجيب لموقفه الثوري الذي كان يتبناه.

لم ينتظر أبي أن يتكلم النقاد والصحفيون عن كتبه. كان يعرف أن اسمه لا يزال ضمن القائمة السوداء، قائمة المغضوب عليهم فلا عجب أن تصمت الصحف كلها حتى عن ذكر خبر صدورها حينها، ولكن ذلك الصمت لم يطل كثيرا، وبدل الحديث عن تجربة فريدة في الشعر جاءت مقالات ساخطة وساخرة من بعض الصحفيين الذين يطبقون تعاليم الحزب الواحد بالحرف الواحد، وتشبه مقالاتهم تقارير موجهة للمخابرات والأمن كي يقتلعوا هذا الطفيلي من الوجود..

أما أنا فلقد أسعدني قراءتها بصوته، وقد جبر بخاطري ووافق على ذلك..

صوته الخشن، والعذب في نفس الوقت، وهو يُلقي الكلمات التي تخرج من تلك الأعماق السحيقة لتقول شيئا بعيدا في غور الإنسان.

كنت قد أصبت في تلك المرحلة بلوثة الأدب مثل والدي، وصار يمكنني مناقشته في الكثير من الروايات والنصوص الشعرية، فكانت لحظات حوار لا تنسى بالنسبة لي أذكرها الآن فأرجع لها الفضل في أنها جعلتني أتكون تكوينا أدبيا رفيعاً، وأدخل للأدب من روحه لا من قشوره.

كنت سعيدا بأبـــي الذي يحب الشعر إلى هذا الحـــد، ويعشـــقه صافيا وعميقا بهذا الشكل، و لم أكن أتوقع أبدا أن يكون يوم احتفـــالي بشهادة الباكالوريا مرتبطاً بما حدث من تفجر شعبـــــي في أكتـــوبر 1988 وستدفع تلك الأحداث الأمن السري إلى اعتقال كل من هـــم على لائحته من معارضين ومنشقين وحالمين..

هذه المرة كنت في الثامنة عشر من عمـــري عنـــدما شـــاهدهم يضربون الباب، ولا يطرقونه، ثم يكسرونه قبل أن يمهلـــوا أي واحـــد ليفتحه، ودخل أربعة رجال مسلحين وأمروا أبـــي بالذهاب معهم.

لا أدري لماذا شعرت حينها أنه لم يقو على النهوض مـــن علـــى كرسي مكتبه، لقد كان يقرأ لنا قصة كتبها للتو، وتعثرت قـــدماه، أو تيبست، وأمي جمدت في مكانها هي الأخرى كأن الصورة أعادتها إلى الوراء عشرين سنة، أو أكثر يوم اعتقلوه بسبب مقال، وعاد بعد شهر من الاستنطاق والتعذيب بوجه مصفر، وجسم نحيل، ولحم يسيل دما، ثم سرعان ما جمعت شجاعتها، وقامت منفجرة في وجـــوههم وهـــي تصرخ:

"ماذا تريدون منه؟ ماذا فعل لكم؟ اتركوه.. احترموا سنه.."

كلام لم يكن له أي صدى عندهم، وهم يقودونه بقوة، وبـــدون أي تقدير لسنه، أو تاريخه، لم يعترض على أي شيء مما قاموا به، كأنه استسلم لقدره الأخير هذه المرة، وقبل بكل ما سيحدث له، رفع بصره نحو أمي، ثم توجه بهما نحوي ليطمئننا عليه، أو ليودعنا وداعه الأخير.

كانت صدمة عنيفة عليّ، وأنا أراهم يأخذونه ليلا بتلك الطريقة المهينة مفتخرين بما فعلوا كأنهم حققوا نصرا كبيرا في معركة قاسية مع عدو جبار لا يقهر.

ذهب أبـــي هذه المرة و لم يعُد.

ذهب معهم وحققوا معه، وسألوه إن كان لـــه دور في تحـــريض الشباب على تخريب بلدهم، وتهديد أمن دولتهم..

سألوه تلك الأسئلة الغبية التي لا تطرح على شاعر، ورجل ناضل قديما من أجل تحرير وطنه من المستعمر لكنهم سألوه كمـــا يســـألون المجرمين، وكرروا أسئلتهم، وأشعروه أن لا شيء تغير، وأن أحلامه تلك يجب أن تموت..

قضى أسبوعا في التحقيق، أو الاستنطاق عن تُهم لا معنى لها بينما كانت عيناه تلمعان بالضوء لأنه كحالم كبير رأى في انتفاضة أولئـــك الشباب علامة طريق، وضوءا يبزغ في نفق دامس الظلمة. لقـــد رأى أخيرا شبانا يخرجون للشارع، ويهتفون بالحرية المتشـــوق لهـــا منـــذ الاستقلال البعيد عام 1962.. ثم بعد طول اســـتجوابات وتحقيقـــات فهموا أن لا جدوى من ذلك فأطلقوا سراحه كما تبين الوثـــائق الـــتي منحوها لنا ليخلوا ذمتهم من كل ما يمكن أن يحدث لـــه في الخـــارج، لكن والدي اختفى نهائيا من يومها، كأن الأرض انفتحت وبلعتـــه، لم يعد للبيت، ولا لأي مكان يعرفه، ومن يومها لم نسمع عنه أي خبر..

الفصل الثاني

اختفي أبـــي في نهاية الثمانينيات، وهي الفترة التي سيفتح فيهـــا بلدي على النار والجحيم، والجنون الوحشي والقتل الأعمى، ولكن كل هذه العبارات التي قد تجمعها من قاموس الليل لن تنفع في الاقتراب من حقيقة ما جرى، وفظاعة ما رأيناه..

أبـــي قبل أن يختفي كان ينصحني بأن أُجرب الحياة، وأعيش مع الناس، وهو يُردد بصوته الفخم:

- لا تعزل نفسك عن الحياة والناس.. لا تفعل مثلـــي.. هـــذا خياري أنا مع الكتابة، أما أنت فيجـــب أن تختـــار مخالطـــة الآخرين والتعلم من تجاربهم في الحياة، فكثير من الناس يملكون كنوزا من الحكايات والقصص التي لا يعرفون مايفعلون بهـــا؟ وأنت يوما ما ستعرف كيف تمسك بها، وتكتبها.

مزاجي الشخصي كان بالفعل يميل لعكس ما كان يميـــل إليـــه مزاج أبـــي الإنطوائي، فمنذ حداثة سني، وأنا أحب أن أكون خارج البيت مع الأطفال من سني، أو حتى مع بعض الشباب الذين يكبرونني بأعوام والذين يعجبون بذكائي وفطنتي وقدرتي على الكلام في قضايا يتصورونها معقدة وهي كانت بالنسبة لي جد بسيطة.. لم يكن يهمني أن عرفوا أن كل ذلك تعلمته من قراءة الكتب مصـــدري الوحيـــد للمعرفة والتفوق عليهم، وهُم للأسف لم يكونوا يقرأون كتابا واحدًا، والكتاب الوحيد الذي يعتبرونه مصدرة المعرفة الوحيد الـــذي هـــو القرآن الكريم وحتى هذا لم يقرأوه، يكفي أن تستعرض أمامهم آية من

الذكر الحكيم تَستدل بها على قولك، حتى إن لم يفهموا منها حرفاً واحدًا فهي حجة على صواب رأيك، وأنا منذ طفولتي تعلمت حب القراءة من خلال معاشرتي لمكتبة والدي، وكل تلك الكتب التي كانت تغريني بالاكتشاف وتعدني بالسعادة، وكنت أحفظ الكثير من الشعر القديم، والسور القصار من القرآن وبعضا من حكايات الإنجيل والتلموذ وكتب التاريخ.. كان يغريني ذلك ويشعرني بتميزي عن الآخرين، وكم كان سهلا أن تتميز في حيّ شعبي أغلب أطفاله وشبابه لا يتعلمون أي شيء في المدرسة حتى لو ذهبوا إليها، ودرسوا بأقسامها فهم لم يخلقوا لهذا الطريق، وهذا الطريق لم يخلق لهم أيضاً، كل يذهب لما خلق له.

صحيح أنني لم أكن أجد نفسي دائما مع الناس فهم يعيشون في عالم واحد بلا أبعاد كثيرة وينظرون للحياة من زاوية مشتركة تقريبا، وأنا كنت أشعر أن العالم كبير وواسع لا يمكنه أن يكون محكوما بمنطق أو رؤية واحدة والحياة نسبية وليست بصورة دون أخرى وهذا كان يجعلني لا أستطيع مشاركتهم طريقتهم في العيش دائماً وعندما أخبر أبي يضحك مني ويقول: بما أنك ترفض أن يفرضوا عليك فكرتهم فعليك أن لا تفرض أنت أيضا رؤيتك عليهم.. هم يرون الحياة بسيطة وجميلة وأنت عليك أن تشاهد هذا الجمال المبثوث في تفاصيل حياتهم تلك رغم قسوتها..

رحت أبحث عن الجمال ولكن كيف يجتمع الجمال مع الفقر والجهل والادعاء؟ وهذا الوضع الذي كان يشبه سجنا بسماء مفتوحة، هم مقيدون فيه دون أن يعلموا، ويرزحون تحت سلطانه دون أن يتمردوا، كنت أقول إنهم بحاجة إلى ثورة على وضعهم ذاك، لكن إذا ثاروا ماذا كانوا سيتركون بعد أن يهدموا كل شيء فهم

مخربون بلا شك، ووعيهم محكوم بوضعهم القاصر، ولا يهمهم ماذا سيحدث إن تحطم كل شيء، فإن تهدم كل شيء، فالله سيحميهم ويبارك خطواتهم التي تقاس بمدى صدق نواياهم في الخروج عن الظلم والفساد..

بتجريدية وأسئلة كثيرة كنت أتكلم مع نفسي قبل أن أصارح أبي الذي كنت أعرف أن له تجربته المنغرسة في أرض الواقع، والتاريخ، والحاضر الجديد بعد الاستقلال، وأنه خبرهم وخبروه هم أيضًا، وأنه حتما لم يفضل عزلته الكتابية لأنه شاعر يؤمن بالشعر الخالص البعيد عن السياقات، واللحظات المأزومة في الواقع فحسب، وأنا رغم طبعي الجماعي وميلي للمخالطة والحديث فكان السؤال الذي لا بد من طرحه هو هل مصيري هو مصيره فأعود للمبدإ الأول القائل بأن الكاتب هو كاتب أولاً وقبل أي شيء آخر، وتهون كل التضحيات التي يبذلها لأجل ذلك المنشود لا غير.

لم أكن قد كتبت حرفا واحدًا أيامها، كانت الكلمات تعيش في صدري فقط، تولد وتتبخر، تحيا وتموت، تنتكس، وتنتفض لكن تبقى مكتومة كأنها لا ترغب في الخروج من قفصها ذاك، وهي تدرك أن ولادتها لا تزال بعيدة، أو ليس في تلك اللحظات على الأقل.

وعندما بلغت الخامسة عشر بدأت أتحاور مع نفسي بهذا الشكل، أسأل بشكل مستفز ودائم، ولا أبحث عن الجواب، فلذتي ظلت قائمة في طرح الأسئلة التي لا نفرج كربها بالدخول عليها من باب واحد فقط، بل بتجريب كل الأبواب، وربما كل باب يقود لباب آخر، وحقيقة جديدة، وباختصار موجز كنت أحاول أن أجد طريقي الخاص بي وسط ضباب كثيف يعمي عن العين الرؤية، ويحجب عن الذهن الوضوح.

كانت تلك الأسئلة الذهنية واقعا موازيا للواقع الذي نعيش فيه، والذي يفرض حتمياته الكثيرة ووقائعة العديدة فأنت لست حرا دائما في أن تقول ما تريد، وتصدح برأيك وقتما تشاء، وحيثما ترغب، فالناس لا يهتمون بك فهم لهم حياتهم كما لك حياتك، وإن كنت أشعر أن حياتي الموازية كانت بالنسبة لي هي حياتي الحقيقية، واحتجت لوقت طويل كي أستوعب هذه الإزدواجية التي لم تكن مكروهة أو مقيتة، وأتساءل إن كنت أردتها أنا لنفسي، أم أن تلك الحالات والظروف هي التي تفرض نفسها عليك، وتفضي بك إلى قبول الثنائية الغريبة بينك وبين العالم الذي تعيش فيه دون مشاكل عويصة.

والدي لم يحذرني من ذلك، و لم ينصحني ماذا أفعل، وماذا يجب أن أعمل حينما يكون العالم الداخلي شاسعا بلا حدود، والواقع ضيقا كأنه خرم إبرة، كأنه تركني أجرب بنفسي، فأسقط وأنهض، وأخطأ وأصيب، لأنه لا يُوجد إلا هذا السبيل لنحقق أمرًا أردناه، أو معنى تعبنا في طريق فهمه.

لقد كان له هو كذلك عالمه الداخلي المشع الذي لا تفصح عنه باستمرار تعابيره الخارجية، وكان يعتبر ذلك ثراء الإنسان العميق ومأساته الكبرى، فلا يجب أن تبقى الفجوة كبيرة بينهما حتى لا تتمزق خيوط التواصل السحرية التي تقودنا للكتابة لاحقاً.

***

بعض الناس لا يعرفون من أين يستمدون تلك القوة التي تمنحهم مهابة في الحيّ بأكمله، فلا يتجرأ أي شخص على رفع بصره نحوهم، كأنهم صنعوا من حديد ونار، أو كأنهم يستطيعون فعل المنكرات بلا

تأنيب ضمير، كما أنك لا تجد عندهم أي إحساس بالخوف يمنعهم عنه، ولقد عرفت شخصًا من هذا النوع، أو كانت أسطورته تتردد في الحيّ كما لو أنه نازل من الجحيم، و لم يولد من بطن أمه.

أيام الطفولة، كانوا يخوفوننا منه "الزربوط" مجرد ذكر اسمه حتى نفر هاربين، والحق لم أستطع رؤيته رؤية مباشرة إلا عندما بلغت الثامنة عشرة فهو لم يكن يمكث في الحيّ إلا أوقاتا قليلة، كما كان عرف عنه أنه لا يمكث حرا إلا ثلاثة أو أربعة أشهر في العام في البيت والبقية إما هاربا من العدالة، أو في الحبس.

كانوا في الحيّ لا يخافونه فقط، بل يقدسونه، وتسمعهم يحكون عنه قصصا كثيرة من قبيل أنه مرة تعارك مع خمسة أشخاص من غلاظ الحيّ وهزمهم شر هزيمة، ومنع عنهم الخروج بعدها من بيوتهم لمدة شهر، أو أنه يعاشر امرأة متزوجة رغم أنف زوجها الذي لم يسمح له مع ذلك بتطليقها وأن ذلك الزوج لم يستطع الصبر ففتل زوجته وانتحر وحكاية سرقة مركز للبريد والمواصلات ومطاردة الشرطة له دون أن تفلح في القبض عليه.

كثيرة هي الحكايات لدرجة أنك تظن أنها مختلقة كلها، وغير صحيحة. يوم رأيته أول مرة أو قيل لي "هاو الزربوط" كدت أضحك من شكله فقد كان قصير القامة ونحيل الجسم ويرتدي جاكيتة جلدية وسروال جينز أزرق اللون ويرتدي حذاء رياضيا ويمشي بطريقة هادئة كأنه لا يريد أن يلفت انتباه أحد، بدا لي أصغر من حجم الأسطورة التي نسجوها حوله. من كان معي قال لي: هل جننت؟ ماذا لو رآك تضحك عليه.

أخبرته بأنه بعيد عنا بمئات الأمتار كيف يرانا؟

رد بسرعة أنه جن قد يسمعك أو يحس بك.

- لا تبالغ.. لم أفهم كيف يفزع هذا الرجل الجميع.

- إنه مجنون يستطيع أن يحمل ساطورا ويقطع رأس عدوه.

ونصحني من هذا الشخص أن نترك المكان، ونبتعد عن المشاكل، لكنني لم أستطع التحرك، أردت أن أشاهده عن قرب، أن أتبع خطواته، وأعرف ماذا يفعل، فلقد جاءت فرصة لن تعوض، بعد أن قضى خمس سنوات حبسا، وخرج منذ شهر فقط.

حاولت أن أتتبع خطواته، وأنا أتساءل إلى أين هو ذاهب. هل هو في مهمة سرقة؟ أم يفكر في صديقته المتزوجة؟ ماذا يخطر على باله؟ هل هو مجرم حقيقي؟ أم فقط واحد من أبناء هذا الحيّ التعساء، ولد في حالة عنف وتكيّف معها، فالعنف لا ينزل علينا من السماء لا بد أن حياة نعيشها بشكل من الأشكال ثم تصبح جزءًا من حياتنا اليومية التي لا نقدر على الانفصال عنها..

لاحظت أن بعض الذين تقاطع معهم في الطريق صافحوه، هذا يعني أنه يمكن معاشرته والحديث معه عكس ما كان يقال من أنه لا يُحب أحداً، ولا يحبه أحد، والجميع يتجنبه، توقف أمام صبي يبيع السجائر على الرصيف، أخذ علبة من نوع "أفراز" ودفع ثمنها اشعل سيجارة ونفث دخانها في وجه السماء الصافية يومها ونظر من حواليه متصفحا المكان كما لو أنه لا يعرف إلى أين يريد الذهاب ثم توقفت نظرته عند المقهى المقابل لبائع العطور فتوجه نحوه.

بقيت أتابعه بحذر وخوف، وتشجعت لكي أدخل المقهى أنا أيضاً.. كنت أعرف صاحب المقهى المجاهد عبد الله، أو هكذا ينادونه، وعلى العموم هو يعلق على الحائط صورة له عندما كان مجاهدا في الجبل كدليل على ذلك، وابنه كريم "السمينة" كما يلقبونه

والذي يعمل معه بنفس المقهى وقد درس معي في المرحلة الابتدائية ثم طرد لكسله وعدم اهتمامه بالتعلم. ووجوده كان فرصة لكي لا أبدو أني أقتفي أثر "الزربوط" في مهمة لم أكن قد تبينت حتى أنا هدفها.

عندما دخلت كان المقهى شبه فارغ ولاحظت بسرعة كيف أن الزربوط قد اختار مكانا في الزاوية لوحده يرتشف قهوته ويدخن سيجارة وعيناه معلقتان بالسقف. وقفت أنا على الكونتوار وطلبت من "السمينة" قهوة ثقيلة فسألني عن حالي وبقي يتحدث في أمور لا تهمني وعندما لاحظ أني لا أستمع له وأحاول سرقة النظر للزربوط نهرني بسرعة وبهمس قال: ماذا جرى لعقلك؟ لم أقل شيئا وصمت وفهمت أن تحذيره كان جديرا بأن آخذه بعين الاعتبار، ثم توقف عن محادثتي حتى شاهدنا الزربوط يقوم ويقترب من الكونتوار ويدفع ثمن القهوة دون أن يقول شيئا وينصرف. هنا تدخل السمينة بغضب:

- هل تعمل مع الشرطة أم ماذا؟
- لماذا تقول لي هذا الكلام؟
- كنت تتبع الزربوط هل جننت؟
- إنه شخص مثل غيره.
- لا إنه مجنون، من الأفضل عدم الحديث معه لقد أطلق سراحه منذ شهر فقط وهو لم يفعل أي شيء حتى الآن. أظنه سيقوم بجريمة قريبا.
- هل سمعت شيئا؟
- كيف أسمع؟ هل أنا صديقه. لا أحد يتحدث معه في هذه الأمور.
- أليس له أصدقاء؟

- نعم له البعض لكنهم من فصيلته، والأحسن أن لا تقترب منهم.
- نعم أعرف. كل ما في الأمر أنها المرة الأولى التي أراه فيها عن قرب.

وخرجت من المقهى مسرعا حتى ألحق بالزربوط فبان لي عن بُعد يتمشى ناحية حيّ بلكور، سارعت الخطو حتى ألحقه من جديد، فإذا بي أسمع طلقات رصاص في السماء وسيارات شرطة تحاصره من كل جهة، بينما هو واقف في وسط الشارع لا أدري ماذا كان يحمل. سكينا أو مُسدسا؟ ثم وصلني صوت واحد من أفراد الشرطة يطلب منه: من الأحسن أن تسلم نفسك.

كان ينظر للأرض وليس للسماء ولا لأي جهة أخرى في ذلك المكان الذي حاصروه فيه

كان ينظر إلى الأرض كما لو أنه يريد أن ينفذ شيئا أخيرا قبل أن يرحل عن هذه الحياة أو يستسلم كما كان يفعل أحيانا. فيذهب معهم للسجن مبتسم الشفتين والوجه.

شعرت كما لو أني أمام أهم لحظة تاريخية في حياتي.

الزربوط محاصر من طرف الشرطة، وهو واقف في وسط الحيّ ينظر إلى الأرض لا نعلم بم يحدث نفسه. وماذا سيفعل؟ ثم سمعت صوته أخيرا وهو يلتفت ناحية المفتش الذي حاول إقناعه بالاستسلام ليقول له كلاما سيئا وقبيحا لم نسمعه جيدا، ثم توجه مسرعا نحو ذلك الشرطي كأنه يريد أن يقبض عليه فإذا برصاصات تنطلق من كل جهة تثقب صدره وجسده النحيف فيسقط على الأرض قتيلا حينها..

بقي مشهد قتل الزربوط في ذلك اليوم الأول الذي رأيته فيه راسخا في ذهني إلى وقت طويل وكيف تنسى مشهد قتل رجل

أمامك وهو لم يكن إلا ذلك الشخص الذي أثار حيرتي وتساؤلاتي دائما..

كما سمعنا لاحقا كانت الشرطة تتعقبه بعد أن قتل شرطيا في حيّ آخر وتعهدت الشرطة بإمساكه هذه المرة، أو الانتهاء منه فكان موته على هذه الطريقة التي ارتضاها لنفسه قبل أن يوقعه بها غيره.

ومقتله لم ينه الأسطورة بل خلدها لفترة بعيدة جدا.

***

أتذكر الآن كيف أنني كتبت قصة عن هذا الرجل فأعجبت والدي كثيرا رغم أني بالغت في تحويله إلى شخص غير عادي، أسطوري في الشر والقوة، وكانت فرصة للتحدث عن الشر في نفوس البشر، وطاقة العنف الكامنة عند البعض من الناس، والتي بقدر ما تخلق منهم أبطالاً لا ينازعهم في البطولة أيا كان، فإنها تُحولهم إلى أشرار قادرين على تجاوز الحدود التي يتوقف عندها الآخرون، ويذهبون بقوتهم تلك إلى لحظة المأساة المربكة التي تنتهي حتما كما توفي "الزربوط" قتلاً.

كانت فرصة ليتحدث والدي عن رجال عرفهم وقت الثورة التحريرية، وقال لي أنه كانوا يخيفونه حتى هو، لكن كانوا ضروريين لنقل الرعب إلى عدونا يومها، وكان ضروريا تحويل تلك القوة السلبية إلى إيجابية لنصرة الهدف الذي كان ينشده الشعب الجزائري..

سألته كما أذكر:

- كيف تتخلص الذاكرة من العنف؟ هذا الشعب عانى كثيرا من ويلات الحرب.

رد أبي بتأن كما أذكر:

- لا أدري إن كنا سننسى ذلك حقا، فلقد بالغ الفرنسيون في وحشيتهم ضدنا ونحن لم نتردد في الذهاب إلى أبعد حد من أجل استقلالنا.. الذاكرة لا تبرأ من الماضي بسرعة أو هي تحتاج إلى وقت طويل ولكن النصر عندما جاء في عام 1962 أظنه خلق التوازن المطلوب في نفوس الجزائريين أو انتقل بهم إلى حالة مغايرة للأولى..

وأضاف والدي:

- لكن سيبقى هنالك دوما خوف أن ما حدث هو مجرد انتقال مؤقت فقط، فلا ندري غدا ماذا سيحدث لنا، وهل سيعود هذا العنف المكبوت من جديد.

أتذكر أني في تلك الفترة، وأنا منغمس في التنقيب عن حكايات من شأنها أن تتحول إلى قصص، تعرفت على امرأة اسمها "زهية" كانت تسكن في شقة بعمارتنا.

البعض كان يكرهها فلا يمل من نعتها بأقسى الألقاب، وأسوأ النعوت، والبعض لا يفكر إلا في جسدها الغاوي والمثير، ويحكي عن شبقيتها التي لا تنافس، والبعض يراها الشيطان الذي جاء من جهنم ليدخل المؤمنين في العصيان والمعاصي، وقلة ربما رأتها امرأة تستحق أن نتعرف عليها، أما أنا فكانت تجذبني شخصيتها القوية عندما أراها تتسوق في الحيّ، أو تقف أمام باب العمارة، وتشتم الرجال الذين يقعدون على الرصيف دون عمل إلا الثرثرة الفارغة وتبدأ في سبهم "أمن أجلكم استقلت الجزائر يا كسالى" مرات كانت تثير ضحكنا وهم يعوذون ويحوقلون من هذه المرأة الرجل التي قيل عنها أنها كانت مجاهدة في الثورة، وكانت تحمل السلاح للمجاهدين في الجبال، وتعمل ليلا في ملهى ليلّي للتجسس على الفرنسيين.

كثيرا ما شعرت بالرغبة في أن أقترب منها، وأتحدث إليها، لكن بدوري كنت أخشى مما سمعته عن سلاطة لسانها التي كانت مشهورة بها، والناس تقول إنها "تربت مع الفرنسيين وهم أفسدوها"، وأن "من يتربى عند الفرنسيين لا تخرج منه إلا الرذائل، والأخلاق الفاسدة".

يوم تجرأت، وقلت لها "صباح الخير" عندما لقيتها صاعدة على الدرج، ردت التحية دون أن ترفع بصرها نحوي، فلاحظت أنها كانت تحمل قفتين ممتلئتين بالخضار، فسألتها إن كانت تحتاج لمساعدتي، هنا رفعت بصرها نحوي، ثم قالت: نعم شكرا يا ابني.

حملت لها القفتين حتى شقتها بالطابق الخامس، وتركتهما بالقرب من الباب، وعدت منصرفا دون حتى أن أنتظر شكرها، لكن سارعت لمناداتي: انتظر عندي لك شيء. فتحت الباب ثم أمرتني بالدخول، ففعلت مستجيبا لطلبها الذي كنت أنتظره منذ شهور عديدة.

كانت شقتها واسعة أكبر مما توقعت، مؤثثة بطريقة كلاسيكية، الصالون بديع ومريح، والمطبخ نظيف وجميل، تركتني أجوب بنظري في المكان دون أن تتدخل، ثم طلبت مني الجلوس في الصالون:

- سأحضر لك شيئا تشربه.

شكرتها على حسن ضيافتها بينما تفرغت هي للقيام بواجبها في المطبخ.

الصور المعلقة على جدران الصالون كثيرة، صورها مع مناضلين معروفين، وناس من عهد الثورة مصورين باللونين الأبيض والأسود، كأنها ذاكرة تحمي الماضي من الانفلات، عصا تتوكأ عليها لكي لا تتلاشى الصور من وجودها فوق هذه الحياة، تذكارات عن مدينة الجزائر العاصمة القديمة.

عادت بصينية الشاي، وزجاجة صودا: تفضل يا ابني اشرب.

شكرتها، وأخذت كوب الشاي، وارتشفت قليلا منه، ورحت أحدق في وجهها. شعرت بدفء عينيها، وجمال صورتها الخارجية، إنها في الخامسة والأربعين ولا تزال تحمل مع ذلك غنج النساء الفاتنات، وروعة الجسد المتماسك، والمتقاطر بالملذات.

تعجبت من نظرتي الشهوانية لها، كأني أستعيد كل ما سمعته عنها من قصص ماجنة دفعة واحدة، وأركب منها صورة امرأة تجمع بين الملاك والشيطان، أو بين الأخلاق والفسوق، متسائلا بيني وبين نفسي: كيف تجتمع المتناقضات في جسد واحد؟

لم تتركني أستفهم كثيرا، وردت عليّ قائلة:

- أنت ابن الكاتب...
- نعم.
- أعرف والدك جيدا إنه رجل مستقيم، شخص يعتز به حقا، رغم أننا في بلد لا يحترم الشرفاء.
- نعم.. لكنه لا يبالي.
- طبعا لا يبالي، لكنه مثلي يتألم، لأننا كنا ننتظر حدوث أشياء أعظم بعد الاستقلال، لكنهم يا للأسف سرقوا منا ذلك الحلم.
- الأحلام لا تموت، هكذا يقول والدي.
- نعم لا شيء يموت، لا الأحلام ولا الذكريات، لكن ما حدث شيء مؤلم غاية الألم، وما يزيدني ألما، هو أن الناس لا تهتم، وهي تعيش كقطعان الماعز، وتقبل ما يفعلونه بهم.
- والدي يقول نفس الشيء، لكن في نفس الوقت لا يحملهم مسؤولية كل ما يحدث، يرى أن الخونة هم الذين سرقوا الحلم واغتنوا من دماء شهدائهم.

- لقد خانوا الثورة لكن سيأتي يوم، ويدفعون الثمن.

توقفت عن الحديث، وران صمت قصير بيننا، لا أدري ماذا شغل بالها، وهي تغطس في ذكرياتها الخاصة، ثم عادت من ذلك الزمن الذي يعيش في ذاكرتها بالتأكيد، وابتسمت لي قائلة:

- أنتم من يجب أن يغير هذه الأمور.

أجبت بسرعة وحماس:

- أظن أنها مسؤولية كبيرة.
- أعرف نحن أيضا لم نكن ندري، لكن يوم تحدث الأشياء ستعرف ماذا يجب أن تفعل، أقول لك هذا الكلام عن تجربة عشتها أنا بنفسي قبل الثورة.

عادت للصمت من جديد، وارتشفت من كوب الشاي عدة مرات، ثم بحثت في صندوق خشبي عن علبة سجائر، وأخرجت منها سيجارة، وبدأت تدخن، وتتأمل الخيوط الهلامية التي راحت في اتجاه شباك النافذة المشرع على الشارع..

بقيت أستعذب رائحة الدخان المتصاعد من سيجارتها، كأني أنا الذي كنت أدخن حينها، ولم أجرؤ على طلب سيجارة لي. كان منظرها، وهي تدخن أكثر من مغر، ومثير لكامل حواسي..

مرات لا أفهم نفسي، ورغباتي الشيطانية الدفينة، وكيف يجتمع بداخلي علو روحي أحس به، ودنس جسدي عندما يتملكني يستأثر بي فلا أفكر في أبعد من رغباتي الجنسية.

نظراتي لها بتلك الطريقة لفتت انتباهها، ولم تكن بحاجة لذكاء كبير كي تفهم أثرها على مراهق مثلي لم يمسس امرأة من قبل. سألتني ضاحكة، وكأنها تغير سياق الحديث من موضوع كبير وخطير إلى شيء آخر:

- أليس لك صديقة؟

سؤالها باغتني، و لم أجد ما أقوله لها، لكن احمرار وجنتي جعلـــها تتكهن بما يخطر على أسلاك ذهني حينها، فضحكت:

- أعرف ماذا يقولون عني.. أنا لا أهتم.. مكبوتون جنســـيا لا غير..

وأضافت:

- حياتي، وأنا حرة فيها. ماذا يريدون منا نحن النساء، أن نكون راهبات؟

شعرت فجأة أني لم أعد أحتمل المناخ لحظتها، فالحرارة صـــعدت للرأس، وصار مستحيلا عليّ التحكم في نفســـي فقمـــت مســـرعا، وأعتذرت بأني بحاجة للانصراف لملاقاة شخص مهم، فقالت، وهـــي تلاحظ كل ذلك الارتباك:

- نعم.. يمكنك الذهاب، وبابـــي سيبقى مفتوحا لـــك مـــتى تشاء.

خرجت مسرعا ونيران مشتعلة في كل شبر من جسمي، وأغلقت خلفي الباب متأسفا على نواياي الشيطانية تلك التي منعتني من التكلم معها بشكل أفضل.

***

لا أدري لماذا كتمت أمر زيارتي لشقة زهية فلم أتحدث به لأحد، وتركته سرا بيني وبين نفسي، كما لو أني دخلت منطقة محرمة، آثمـــة، فرفضت أن يسمع أي شخص بما فعلت.

النقطة الوحيدة التي بقيت تستأثر بذهني عدة ليال طويلات بعدها هو جسدها.

علاقة المراهق بالجسد، والرغبات تبدو دائما كأنها علاقات سيئة فيها شيء من الذنب، رغم أني لم أتلق من عائلتي أي تربية دينية، بل شعرت دائما بأني حر في أفعالي وأفكاري، لكن ذلك الشعور بأنه أمر في غاية الخطورة، ولا يجب أن نتحدث عنه، وجدته بداخلي كما عند غيري من المراهقين في الحيّ، أو المدرسة.

موضوع الجسد، والجنس، والرغبات نتحدث عنه بطرافة حينا، وبحذر حينا آخر، ومرات بتكتم كأنه شيء لا يجوز البوح به..

مَن كان مِن واجبه أن يشرح لنا تلك الأشياء الغامضة؟ لا أحد، حتى أنا لم أتجرأ على طرح الفكرة على والدي المتعلم والكاتب، وظننت أني أفعل ذلك رغم أنفي لأنها مسألة حساسة ليس لي فقط ولكن للجميع..

تركت هواجسي الشيطانية تبرد قليلا في صمتها ومخاوفها وبقيت أحاول التفكير في كتابة قصة عن زهية رغم أنها لم تسرد عليّ حكايتها بعد.

أو لم أعطها أنا الفرصة فقد شغلني جسدها البهيّ على النظر إلى أبعد من هذا الغلاف الخارجي لأستبطن المرأة القابعة بداخلها..

أحيانا تظلم الرغبات أفكارنا وتعمي أبصارنا وتوتر علاقتنا بالآخرين، كأنه بسببها فقط لا نرى غير الواجهة والسطح.. لا شيء أعمق من هذا الذي يوجد في زوايا الوعي والذاكرة والأحلام..

زهية اسالت لعاب شهوتي وحرقتي يومها دون أن تدرك خطورة ذلك على مراهق لكنها دفعتني للتفكير بشكل مباشر في عقدتي الجسدية..

لم أفعلها بعد، وأردت أن اعرف كيف سأقدم على خطوة كتلك من شأنها تحريري من قبضة متطلبات جسدي اللعينة..

بدأت أفكر في الأمر كأنها مسألة حياة أو موت، أو كأنه بلا هذه الخطوة لن أستطيع فعل أي شيء آخر فالرغبة كالحيوان المفترس الذي يعيش بداخل الإنسان وهو في قمة هيجانه الشهوي لا يفكر ولا يعقل الأشياء إن لم يقفز إلى منطقة الهجوم والقبض على ما يريد..

ولهذا عدت لشقة زهية وطرقت بابها من جديد ففتحته، وفرحت برؤيتي، وهي تقول مرحبة:

- الحمد لله أنك عدت.
- عدت لأجل..
- لا يهم من أجل من.. الحديث معك أشعرني براحة، من زمن بعيد، وأنا لوحدي هنا كأني استقلت من هذه الحياة دون أن أشعر بذلك.
- الناس كانت تقول عنك ذلك.
- كرهت، والله يا سعيد..
- يجب أن تصدقي أني أحس بكِ كثيرا.
- الحياة هنا عزلة كبيرة، صحيح أنا أتدبر أموري على كل حال، ومرات أحلم أني أذهب إلى أي مكان آخر وأعيش فيه، مازلت جميلة على ما أظن، مازال عندي ما يشتهيه الرجال حتما، ألاحظ نظراتهم لي في الطريق، لكنني صرت أكره هؤلاء الرجال.. أعرف أنهم يفكرون فقط في جسدي، هذا متعب للمرأة، أن تشعر أنها فقط هذا الجسد لا غير.

تصمت بعض الوقت، تسألني إن كنت أريد شيئا، أخبرها بأني أحببت الشاي الذي أحضرته لي في المرة السابقة، تستأذن مني، وتذهب للمطبخ، تتركني مع صالونها، وصورها الملونة بالأبيض والأسود، عالمها الشخصي، وذاكرتها الساخنة بالأحداث، أحس مع كل ذلك بتوتر

وحزن، لا أعرف مصدرهما، ربما نتاج شعوري أني أرغب فيها مثل الآخرين، وأراها مثلهم جسدا شهوانيا ينقذني من براثين شهواتي، أحتج على نفسي وأقول لها: لا، ليس الأمر بهذا الشكل فقط، لكن هناك حاجز الرغبة الذي يمنع التواصل معها، كأن الجسد يحرك الخيوط الخفيّة التي لا نملك عليها أي سلطان.

لم أكن أنظر لها على هذه الصورة الوحيدة، ثمة حكايات ترقص بداخلها، وهي التي تريدني أن أستمع لها.

تعود بالشاي، وتجلس هذه المرة بجانبي، على نفس الأريكة المريحة، تتكلم عن أمور عادية، أتلقى كلماتها كأنها أصوات أغنية جميلة، تريدني أن أقوم من مكاني، وأرقص، أرمي بنفسي في تلك النار المهلكة..

أيها الجسد اللعين ماذا تفعل بي؟

أطلب من جسدي أن يتمالك نفسه، أن يتوقف عن الصراخ. أناجيه بداخلي: توقف عن تشويش تفكيري الآن..اتركني أستمتع بشيء نادر مع هذه المرأة التي تملك تاريخا مليئا بالحكايات والقصص..

لم تكن منتبهة لصراعي الداخلي في بداية الأمر، وكان ذلك طبيعيا، فلقد حكيت لها بعض الأشياء عني، مثل كتاباتي القصصية، وعن كتب أبي الشعرية، واستمعت لي بانتباه كبير، دون أن تقول شيئا محددا، لكن شعرت أنها فصلتني – دهنيا على الأقل– عن الناس العاديين، هذا هو هو ما كنت أرمي له مع كل من أتحدث إليه.

لهذا عندما جلست بقربي، ووضعت رجلا على رجل، وبان من فتحة الروب فخذها الأبيض سقط نظري عليه بسرعة، كما لو أنها دهشة طفل صغير أمام لعبة مثيرة ومحيرة، حينها انتبهت إلى ذلك الجوع الداخلي الذي ينهشني بوحشية، فاعتدلت في جلستها أول الأمر، ثم قالت لي بصراحة:

- كأنك تشتهيني.

صمت، خفضت بصري عنها، شعرت بأنها الآن ستطلق حكم الإعدام على كل تلك الرغبات الدفينة، حاولت أن أجد مكانا أخبئ فيه وجهي عنها، أو أطلق لساقي الريح فتقذفني خارج البيت بسرعة..

تعجبت من أن كل تلك الوساوس، وكل ذلك الارتباك زالا عندما اقتربت مني أكثر، وأحاطتني بذراعها الأيسر، وقربتني منها قائلة:

- لا يجب أن تخجل.

كالشيطان اغتنمت فرصة قربها مني لأطبع قبلة سريعة ومتلهفة على شفتيها، فقابلتها بقبلة حارة منها، وصوت يهمس في أذني:

- كل شيء جميل يتم بهدوء.

كانت تعلم أنها مرتي الأولى، وأني مندفع رغما عني، غير قادر على كبح جماح شهوتي، ولهذا راحت تمارس سلطتها عليّ بطريقتها الناعمة، وهي تخلع عني ملابسي، وتخلع ملابسها في نفس الوقت، وبين كل قطعة تخلعها تقبلني، وتلهب فيّ كامل حواسي حتى تجردنا من ثيابنا، واندمجنا في حالة كانت أقرب إلى الصفاء الكامل لا تسمع خلالها إلا دويّ إنفجارات الجسد العنيفة.

أفرغت بسرعة في المرة الأولى، دون أن أقدر على تجنب أمر كهذا، رغم أنها طلبت مني عدم القذف السريع، وأخذ الوقت الكافي لإنضاج اللحظة، والوصول بها إلى أعمق ما فيها من متعة وذوبان.

لكن في المحاولة الثانية رحت أقلدها في أفعالها، فأقبلها كما تقبلني هي بحرارة وعمق، وألمس مواضع من جسدها تثير فيها انتباها حسيا لذيذا، كما فعلت هيّ معي، أما محاولتي الثالثة فلقد بلغت معها ذلك المبلغ المدهش، كما لو أنني تعلمت فنيات المتعة بصورة دقيقة وكاملة خاصة عندما أحسست أن عضوي راح يتوغل في فتحتها السفلية،

كأنه يقتحم مغارة أحلامه السعيدة، ومن جهتها كانت تصدر تأوهات كان لها مفعول التخدير على مراهق يجرب لأول مرة غابة الجسد الكثيفة بالتوترات، والمشاعر، والحواس الممتزجة..

تنفست الصعداء أخيرا، وتوقفنا بعدما شعرت أني أدركت معها تلك السماء الفردوسية البعيدة، وعدت منها منذهلا وسالما، فارتميت على الأريكة المقابلة للتي كنت أقاسمها إياها، وأنا ألهث من النشوة والتعب.

نادرا ما شعرت بسعادة مجنونة كما في تلك اللحظات التي قضيتها بقرب زهية، وكأنها نقلتني إلى تلك السماء الخرافية البعيدة، وأذاقتني رعشات الفردوس الأرضي، ثم تركتني طليقا أتنفس جمال الحياة، ولذتها السعيدة

بعد فراغنا من تلك الغبطة، ارتميت على الأريكة المقابلة ألتقط أنفاسي التي شعرت أني ضيعتها في أنفاسها.

جاء صمت قصير، ونظرات حنونة تبادلناها في تلك البرهة الزمنية، ثم شرعت تعيد ارتداء ملابسها بينما لم أشعر بتلك الرغبة في أن أعيد الاحتجاب أمامها، لكن بسرعة فعلتُ ما فعلت، وخرجت لفظة من أعماقي نحوها:

- شكرا لك.

فقالت لي نفس الكلمة:

- شكرا لك أنت. لقد أعدتني من جديد لشيء أهملته منذ فترة..

كان الناس يتفوهون عنها بأكاذيب عديدة، من قبيل أنها تفعل ذلك كل ليلة مع شخص مختلف تختاره بنفسها، وأن تاريخها في العهر يطاردها فلا يترك لها أي مجال للنقاء. كانوا يتحدثون عنها بسوء كالعادة، والأغلبية تصدق، وقلة من تقول لهم:

مادخلكم في حياتها تفعل بها ما تريد وتشاء.

لكن الحقيقة سطعت فجأة، لقد تركت كل شيء خلفها، وبعد الاستقلال توقفت عن معاشرة الرجال، أو حتى عن حبهم كما ستخبرني في زيارتي القادمة لها.

أظنني خرجت من بيتها أسعد مخلوق في العالم، واعتقدت أني سأخبر كل من ألتقيه بما حدث لي معها، وبما عشته، وتذوقته دون خوف، أو وجل، بعدما كان مجرد خيال في الذهن، واستيهام في الجسم، والآن صار حقيقة أتنفسها بداخلي، وأستطيع أن أستحضرها في أي لحظة أريد، أو أن الناس ستلحظ ذلك حتما عندما تراني مبتهجا بذلك القدر من السعادة، لكن الناس لا تنتبه لأحد، فخرجت من شقتها متوجها للبيت سعيدا لوحدي، مبتسما للحياة التي تفاجؤك بلحظاتها السعيدة التي لا تنتظرها.

الفصل الثالث

عندما تتعرف على شخص إستثنائي في حياتك تظن أنك ستقطع معه الطرقات الوعرة دون ألم أو خوف، ترمي عليه ثقل الأشياء الصعبة، وترتاح في طمأنينة خالصة لا يشوبها شيء.

مع زهية ظننت هذا، أو أكثر، فصرت أزورها كلما أستطعت لذلك سبيلا، وهي تفتح لي بابها، كما سرير رغبتها دون أن تطلب مني أي شيء بالمقابل، فقط أن أرمي بأوزاري خلف ظهري، وألقي بنفسي في متعة لحظات نارية، صافية، وممتعة لا يتخللها أي شيء من شأنه أن ينغص عليها جمالها.

ماذا كان يطلب مراهق مثلي ينكشف أمامه طريق من هذا النوع؟ غير ذلك، وماذا كان يريد من حياته أيامها غير أن تدمجه في عالم رغبات لا تتوقف عن الاشتعال يوما بعد آخر، بل يزداد لهبها تصاعدا إلى أعلى، كلما ظننت أنك قضيت حاجتك منها، ودون أن تتوقف هي عن طلب المزيد.

تمكنت زهية مني كما يتمكن الجن من روح الإنسان، سكنتني عميقا بحيث لم أعد أفكر أو أبصر غيرها، وبقي كل ذلك سرا لعينا بيني وبين نفسي، فلقد عاهدتها على أن لا أكشفه لأحد، حتى لأقرب الناس إليّ، والدي الذي كنت متعودا على مفاتحته في كل كبيرة وصغيرة، دون حذر أو خشية.

صارت هي البوصلة، وهي الطريق، أفر من البيت نحوها، ومن الدراسة إلى ذراعيها، تمرغني في شهواتها المشتعلة، وتغمرني بنفحاتها

الملتهبة، تفتح لي باباً كبيرا في جنة غريبة من الخيالات والأحلام اللذيذة، ومعها كبرت فجأة، أو شعرت بأني كبرت، وخرجت من تلك السن المثالية، من سن التجريدات، والغيبيات الكثيرة، ودخلت إلى شيء قريب من تحققي المادي كرجل في الحياة..

هل ممارسة الجنس هي التي تجعلنا نشعر أننا أصبحنا رجالا في النهاية؟ نفعل ما يفعله الكبار فقط المُحلَلْ لهم ذلك، وفق عقود الزواج وشريعة المجتمع، أم أنه خطوة ضرورية لإكشتاف ما تزخر به الحياة من سعادة مغمورة في حديقة سرية لا تعرف مفاتيحها غير المرأة التي تنجيك من سجنك الجسدي فتحرر أقفاصه، وتنقذك من ويلات الإهمال والتأنيب والصمت الذليل.

رغم أني كنت قرأت كتبا كثيرة تتحدث عن الحب والجنس، وروايات تفصل في هذه الأشياء إلا أن الأمر يبقى نظريا في النهاية، ولا علاقة له بالجسد وما يشتهيه، أو ينبض فيه من لوعات واشتياقات وأحلام وخيالات، وما يجب أن يحققه في واقعه حتى تلتئم الذات بجسمها وتلتحم الروح بجسدها فالواقع الذي عشت فيه كان يفصُم الأمور، أو يعقد العلاقة بينهما، وهو يرفع من الروح حتى يجعلها مطلقا في السماء فلا تدركها الأرض، ولا تلمسها الأصابع، ويُدنس الجسد، ويُحقره حتى يفقده أي مشروعية يستند عليها، والحياة تتحول إلى مجموعة من الممنوعات والمحرمات التي يضعونها في الطريق، فإن قبلت بها وخضعت لسلطانهم نجوت بالنسبة لهم، وضموك إلى جماعة الأخيار، وفق معاييرهم في تصنيف ما هو خير وشر، وإن رفضت ذلك، وتمردت عليه عاقبوك بالتجريم، والإنكار، والاستبعاد.

لم أتحدث مع زهية على هذا الشكل فهذه المسائل كانت خاصة بي، أو حسبتها ناجمة عن تفكيري الشخصي، وأنا أطرحها على

ذاتي لا على غيري، أما معها فقد كان الحوار بيننا يقتصر على ذكرياتها بشكل خاص، وكنت راغبا في استدراجها كي تفضي بكل ما تختزنه من حكايات، كما لو أني لا أرى في الآخرين إلا هذه القصص التي يروونها لي، ويتحدثون عنها.

زهية لم تحكي لي قصتها بسهولة، أو لم تكن ترغب في استرجاع ذكرياتها فلقد كان فيها أشواك كثيرة ظلت ترغب في نسيانها، أو تحاول أن تحمي نفسها من استرجاعها، لكن شيئا فشيئا، ويوما بعد آخر كانت تنهمر الذكريات كأمطار غزيرة..

مرة سألت والدي:

- ما هو الإنسان؟

فرد عليّ بدون تفكير:

- إنه ذكرياته.

- وما هي ذكرياته؟

- حكايته مع الحياة.

- وما هي الحياة؟

- ما نعيشه، ما نحلم به، ما نعيش، أو نموت من أجله.

أخبرت زهية بأسئلتي تلك، فنظرت إليّ بعمق، وترقرقت دموعها فجأة وهي ترد:

- والدك رجل حكيم، ربما هذا ما يجعله يستطيع تذكر الماضي من دون خوف، أما فأنا فلا أستطيع أن أضع مسافة بيني وبينه، حقا لم أنس أي شيء لأنه يعيش معي كل ليلة، وكل يوم، كأنه دم يجري في عروقي، لا شيء يفصله عني.

تصمت بعض اللحظات، هي لا تحسن التفلسف، وتعجبها طريقتي في طرح الأسئلة عليها، ومحاولاتي في جعلها تفكر في تجربتها

تلك، تخبرني أني بارع في جذبها لمناطق ظلت تفضل الصمت فيها، تقول:

- سأتحدث لك عن كل شيء، ما دمت صرت قريبا بهذا الشكل.

عندما أفصحت عن علاقة القرب التي تجمعنا فرحت، أحسست بأني وصلت معها إلى نقطة متقدمة تسمح لي بأن أحشر أنفي في حياتها، ولكن بيني وبين نفسي بقيت أتساءل دائما إن كان ما أفعله، استغلالا أم لا.

لو أخبرت أبي لاعتبره طبيعيا بالنسبة لشاب يرغب في أن يكون كاتبا فلا بد أن يحمل شيئا من الفضول والرغبة في التعرف على الآخرين بغية الكتابة عنهم، ليس في الأمر ما يدعو للقلق، أو الإحساس بأننا غير أخلاقيين في علاقتنا بالناس، لأنهم يعرفون بينهم وبين ذواتهم ماذا نريد منهم بالتأكيد، وهم يفعلون ذلك بسعادة غامرة. ما في ذلك شك.

حكيت لزهية عن الزربوط، وكيف أني تعرفت عليه، أو شاهدته لأول مرة، ذلك اليوم الذي قدر له في أن يقتل من طرف الشرطة أخبرتها كيف أني أجد تجاه الناس الذين يشذون عن القاعدة ميلا غريبا، وأكن لهم احتراما لا مثيل له حتى لو كانوا من فئة الصعاليك والمجرمين.

أخبرتني أنها تعرف ذلك الشاب، وأنه كان مضطربا في صغره نتاج والده سيء السمعة والأخلاق، والذي كان يعذبه كما يعذب السجان سجينه، وأنه بعدها تمرد على ذلك الوضع المزري، وأصبح يخيف الجميع، ويهدد كل من يرفع نظره نحوه

ثم قالت: كان يحب الحياة ليس إلا، أظن أن كل الناس تولد وهي تحب للحياة ولكن هنالك من يكتشف ان الحياة وضعته من البداية في

فخ الكراهية، واكتشف أن فقره وجهله لن يساعدناه على فعل شيء بحياته تلك، فتحول إلى ممارسة العنف، ربما هو في الحقيقة عنف موجه ضد ذاته، حياته التي أخفق فيها، ثم يأتي بعدها الإكتشاف الثاني أن أغلب الناس جبناء لأسباب أو لأخرى، بعض الجبن مقنع لظروف معينة كأن تخاف على أولادك وعائلتك فلا تورط نفسك في المهالك، والبعض الآخر هو شعور مخز لأنه يعني انعدام الكرامة لا غير، كما اكتشف أن معظم الناس يخافون الموت، أو الترويع والتهديد بالقتل فزاده كل ذلك عنفا وشراسة، كما ازداد شعوره بالقوة التي يملكها.

قالت مستهزئة:

- انه يشبه الحاكم المستبد الذي كلما أظهر جبروته، كلما خاف الناس منه فيزداد تسلطه عليهم فلا شيء يثير التجبر غير الخوف منه.

كنت أراه من حين لآخر في الحيّ لم يتكلم معي قط، ولو تحدث معي، لا أدري ماذا كنت سأقول له؟ ربما أنصحه، مرات أنصح الناس فأقول لهم "لا تظلموا أنفسكم وأنفس غيركم الحياة قصيرة.." ومرات لا أهتم بما يجري من حولي، ليذهبوا للجحيم.. لا، ليس لهذا الحد.. لكن كانت تثيرني سلبية الناس، وقبولهم بما يفرض عليهم من إكراهات وضغوط دون أن يتحركوا.

أخبرتها بأني كتبت قصة عنه، فترجتني أن أقرأها لها ففعلت، وعندما انهيت قالت لي:

- كم أعجبتني النهاية.

وراحت تعيدها بصوتها العذب "**كان الزبروط يحلم في تلك اللحظة أن لا يبقى على قيد الحياة، وهو يراهم أخيرا يطوقونه من كل جهة، وكان يعلم أنهم سيحققون له أمنيته تلك بمجرد أن يتهجم**

على أي واحد منهم، كان قد أدرك تلك اللحظة أنه سيقول: وداعا للحياة التي عشتها، وهو يراها تمر أمام عينيه بسرعة البرق متسائلا إن كانت حياته تستحق الحياة بالفعل، وإن لم يكن قد عاش مطوقا بمخاوفه، وعنفه ومجهولية ما ينتظره في الغد من كل ليلة يقضيها منتظرا رحيلة.

وقف يتأملهم جميعا دون أن ينظر إلى واحد منهم، ثم قرر الهجوم فما كان منهم إلا أن أطلقوا عليه رصاصات الإعدم من دون رحمة وبسرعة جنونية فسقط قتيلا على الأرض"

ثم سألتني:

- النهاية تبدو مأساوية، لكن أعطيت لها صبغة المشروعية كأنك جعلت من مقتله أمنيته الحقيقية.
- صحيح فكرت أن الزربوط لم يكن يحب حياته، وأنه كان يريد أن يموت بأي شكل، وكما يمكن تخيل ذلك فهو لم يكن شجاعا إلى الحد الذي ينتحر لكن قتل شخص آخر فهذا كان بإمكانه فعله، ولهذا قتل شرطيا، ومن لحظتها تيقن أنهم سيقتلونه بالتأكيد.

سألتني بعد برهة تأمل:

- ماذا تعني الحياة في النهاية؟

أجبتها، وأنا أتأمل صفحة وجهها المشرقة حينها بإضاءات نورانية غريبة توشحت بها فجأة:

- بالنسبة للزربوط أظن الانتقام، أما بالنسبة لك فلا أعلم

عندما وجهت لها هذا السؤال ظننت أنها ستصمت، ولن تقول شيئاً، فهي تفعل ذلك مرات، عندما يشرق وجهها بغلالة من ضوء يأتي من منارة خفية بداخلها، وأنه من الأفضل لي أنا أيضا، فلم أكن

أشعر أنه من حقي أن أسأل عن معنى حياة أي شـــخص، خاصـــة إذا أصبحت حياته مجموعة من الذكريات التي لا يريد العودة إليها بـــأي شكل، مقتنعا بضرورة أن يتركها في صندوق مغلق بعيدا عن فضـــول الآخرين لكنها قالت، وهي تتأمل شاردة كعادتها عندما يتعلق الأمـــر بشيء تشعر أنه داخلي وعميق، ويخصها بالفعل:

- ربما الحلم الذي لم يتحقق.
- هل حلمت بأشياء لم تتحقق؟
- حلم واحد فقط، الأحلام الأخرى لا تهم، أو هي كانـــت مهمة في وقتها فقط ثم لم تعد كذلك الآن، كـــان تحـــرر الجزائر حلمًا رائعًا لكنه بمجرد أن تحقق صار شيئا نعيشه في واقعنا بدون تأثير كبير، لكن ما قصدته أنا هـــو حلمـــي الشخصي.
- وما هو هذا الحلم الشخصي؟
- لكي تعرفه يجب أن أبدأ من البداية، وأن أحكي لك قصتي.. هذا صعب، لكن سأفعل لأني أعترف لك بموهبة الكتابة، ربما أتخيلني من الآن بطلة قصتك القادمة.

وصمتت من جديد ذلك الصمت المهيب الذي يشـــعر الجـــالس بقربها أنها ذهبت إلى أبعد مكان في العالم، إلى حيث لا أحد يعلم، وهي لوحدها تدرك أين هي الآن، وعما تبحث، وماذا تريد أن تســـتخرج منه، لتدفعه إلى الواجهة ثم بدأت تقص عليّ حكايتها تلك:

- من أين أبدأ؟ لا أدري، عندما أرجع للطفولة، لا أتذكر شيئا، أو لا أحب التذكر، أو أن الذكريات حاضرة دائمـــا. لكـــن كيف نستطيع أن نخرجها من ذلك المكـــان الـــذي حاولنـــا طمسها فيه؟ ولدت في عائلة مجهولة، أقصد مَنْ كـــان مـــن

المفروض أن يكون أبـــي، ومَن كان من المفروض أن تكـــون أمي عرفت باكرا أنهما ليسا كذلك، وكنت أسمع واحدة من أقارب العائلة تقول لي: أحمدي ربك أنك وجـــدت عائلـــة تأويك؟ حمدت ربـــي نعم على ذلك، وحمدتهم هم أيضـــا، حمدت كل من كان يوجد في طريقي، لم أسألهما قط من هُما والدايّ الحقيقيان، وهُما لم يخبراني عنـــهما، وعـــن ســـبب تربيتهما لي، وكيف حدث ذلك، قبلت ما قررته لي الحيـــاة، وقلت في نفسي كما جاءتني أتعايش معهـــا، عرفـــت ســـر تواجدي ببيت السيد خالد، والسيدة خموسة، كان يملك قطعة أرض كبيرة في منطقة غرب الجزائر العاصمة، ويعمل برتبـــة "قايد" عند الإدارة الفرنسية، وزوجته كانت مـــن أشـــراف المنطقة، أهلها من عائلة شريفة مـــن أوليـــاء الله الصـــالحين، وهكذا اجتمع لهم الرزق بالسلطة، وبالدين، ولكن يا لقسوة القلوب، لم يكن ينقصهم شيء، لا شيء تقريبا بالمقارنة مـــع أغلب الجزائريين في تلك الفترة كان سكنهم كبير وواســـع، ومالهم وفير، ولكن كنت أشعر بقسوة قلـــوبهم، كـــانوا لا يُحبون إلا أنفسهم، ومالهم، وجاههُم، والنـــاس مـــع ذلـــك مضطرين للتعامل معهم، أو خانعين يقصدونهم في كل كـــبيرة وصغيرة، ويعملون عندهم كالعبيد، أو أكثر، وتكهنـــت أن عائلتي تنازلت عني لهم بسبب الفقر كي أكـــون خادمتـــهم المُطيعة، لأني رأيت بعدها عائلات تقصدهم لهذا الغـــرض، أو لأنهم لا يستطيعون تسديد ديونهم، والسيد خالد كان يحـــب الفتيات الصغيرات يأتي بهن للخدمة، ويســـتطيع إلى جانـــب ذلك أن يفوز بهن في غرفة نومه يوم يشعر بالحاجة إلى ذلك..

حسنا كان ذلك في الصيف، كنت في العاشرة أو الحادية عشر من عمري، نادى عليّ سيدي خالد، وكان المساء، والشمس تغرب، أو بدت لي حينها كذلك "تعالي يا كلبة". نعم ناداني بالكلبة، لا أدري لماذا؟ فلم تكن تلك عادته أن يناديني بأي اسم كأني غير موجودة، كأن تنادي شخصا باسمه فهذا اعتراف بأنه يوجد وله كيان مستقل، لكن تسميته لي بالكلبة لم أفهم ما وراءه حينها حتى جئته مُسرعة، ولا هثة، وعرقانة من الخوف.

كان يوما مُتعِبا حقا ذلك اليوم، من الصباح، وأنا أنظف، وأغسل، وأمسح لم أرتح لحظة واحدة، واكتمل كل شيء عندما نادى عليّ، وجئته صاغرة، دفعني إلى أن أسير أمامه ففعلت، وأمرني بفتح باب غرفته ففعلت، ثم قال: هيا تمددي على السرير فتمددت، ثم: اخلعي ملابسك فخجلت، واحمرت وجنتيّ، وصمَتُ، فعاد وكرر الأمر بصوت مرتفع هستيري هذه المرة "قلت لك اخلعي كل شيء" وزاد عليها "أيتها الكلبة ألا تفهمين" ففهمت، أو لم أفهم، فقط فعلت ما طلبه مني، وهناك شاهدته يخلع ملابسه الكثيرة، برنوسه البني، وقميصه الأبيض، وشاش رأسه الملون بالأسود والأبيض، وسرواله العربي، وسروالا قصيرا من القطن كان يستر به عورته، فيظهر لي عاريًا، وذلك الشيء الذي لم أكن أعرف حتى اسمه منتصبا نحوي، وراح يقترب مني، وهو يفتح فخذيّ ببطء أول الأمر، وعندما شاهد تخشبي وتجمد جسمي، راح يفعل ذلك بقوة دون أن يمنحني أي فرصة حتى للصراخ إذ كمم فمي براحة يده الغليظة، وتمكن نهائيا مني، حتى أحسست بذلك الشيء الذي لا يسمى يخترقني فجأة، ويتوغل بداخلي، وبصوته الخشن يتأوه، ورائحة عرقه تزكم أنفي، لم أعرف بما شعرت، أو أحسست بلا شيء كأنها غمامة سوداء غطتني، وأفقدتني الوعيّ،

وعندما استيقظت، لا أدري كم غبت عن الوعيّ، وجدتني في المكان الذي أنام فيه كل ليلة بالقرب من بيتهم الفخم ممدة على حصيرة من أوراق الحلفى، ونقاط دم كثيرة تلوث المكان وجسمي..

أشياء كثيرة حدثت بداخلي ليلتها، وخلال كل الليالي التي تعرضت فيها لهذا العقاب الأليم حتى أصبح طبيعيا للغاية، وعاديا كذلك، وبخاصة عندما حاولت أن أخبر السيدة خُموسة، أو أنبهها إلى ما يفعله زوجها الحقير معي فلم أحصد منها إلا تلك النظرة القاسية التي وجهتها لي فجعلتني أصمت صمتًا طويلاً لا أتكلم بعده أبدا..

في النهاية تتقبل حياتك كما اختيرت لك من طرفهم دون أن تقدر على فعل أي شيء، فلا أحد يمكنه أن تشتكي له سوء حالك، وتدرك شيئا فشيئا أن الأمر لا يخصك لوحدك، كنت عندما أخرج للتسوق مثلا لشراء حاجيات البيت الضرورية ألحظ الفرق بين الجزائريين البؤساء من نوعي، والفرنسيين القلائل الذين يتحكون في حياتنا، ورزقنا، وأقدارنا، أظن لا نحتاج لعلم، أو ثقافة كي نفهم أو نشعر بالحقد على هؤلاء جميعاً..

ربما تغير حظي يوم شاهدت تلك المدرسة الصغيرة الواقعة على طرف مدينة "دلس" يوم رأيتها، ورأيت بعض الأطفال المحظوظين من الجزائريين الذين يتوجهون للمدرسة جنبا إلى جنب مع فرنسيين إقشعرت روحي، واهتزت أوتار قلبي، وبلاوعيّ وجدتني أنظر إليهم بحسد وحسرة، ومرات أقف طويلا بالقرب من الباب، وأتجسس عليهم ماذا يفعلون هنالك؟ ماذا يقرأون؟ وما هي هذه الكتب، والأوراق التي يحملونها بين أيديهم؟ أسئلة لم تكن عندي الإجابة عليها حينها، لأني كنت أطرحها بصمت، وبلا كلمات تقريبا. كانت مثل أشياء تبرق في الذهن، وتترقرق في الوجدان دون أن تتجسد في جُملٍ صالحة للاستفهام.

ثم حدث، وأن لاحظ وجودي رجل فرنسي يرتدي بدلة أنيقة، وعلى وجهه سمات الطيبة، أو هذا ما ظهر لي من ملامحه يوم رأيته يتقدم مني، ويسألني عن إسمي فقلت: زهية. ابتسم لي، وأعطاني بعض الحلويات، ثم قال لي من جديد: لماذا لا تدخلي وتتعلمي عندنا؟ بدا لي سؤالا غريبا منه، قابلته بصمت، ثم هرولت راكضة من المكان الذي كنت واقفة به، كأني خفت أن يعرف السيد خالد ما حدث، ويعاقبني.

عدت مرات قليلة بعدها لذلك المكان، لأن شيئا قويا كان يدفعني لذلك أن أقف أمام باب المدرسة وأنظر، أو أنتظر حتى جاء الرجل الفرنسي مسرعا مرة أخرى نحوي:

– لن أتركك هذه المرة تذهبين حتى تخبريني من هي عائلتك؟ لكي أعلمهم بأني سأسجلك في المدرسة.

لاحظت نظراته المستغربة لوجهي ولعيني لم أشاهد نفسي قط في المرآة، وشكلي لم أكن أعرفه، بشرتي سمراء بالتأكيد، ولون شعري أسود، لكن لون عينيّ فلا أعرفهما، و لم يخبرني أحد بذلك، هل أنا جميلة أم قبيحة؟ وحدها المرآة كانت قادرة على أن تفعل ذلك، ووجه هذا الفرنسي الذي راح ينظر إليّ بإعجاب، وبسحر كأني فتنته، وأنا لم أكن قد تعديت الثانية عشر بعد.

صمتُ كعادتي، بقي هو يتفحص وجهي، ويطرح عليّ أسئلة كثيرة، ودقات قلبي تتسارع فجأة، ومخاوفي تكبر بسرعة، يا له من رجل طيب، آه، لو يأخذني معه، على الأقل هو أصغر سنا من سيدي خالد، ويبدو حنونا بعض الشيء، لكن هذه الخواطر سرعان ما اهتزت، أو تزلزلت، وأنا أسمع صوت السي خالد خلفي يصرخ: ماذا تفعلين هنا يا كلبة؟ وجاء ليصفعني، لكن الفرنسي أمسكه من يده، ومنعه عن ضربي، وراح يصرخ في وجهه:

- كُف عن ذلك، إنها فتاة صغيرة وتريد أن تتعلم، ظننتك من صفنا يا سي خالد، وتقبل تعلم بناتك في المدرسة.

طأطأ السي خالد رأسه فجأة، تصاغر حتى لم أعد أراه، وبصوت منخفض رد:

- إنها خادمة بالبيت..
- وما المانع، دعها تدرس.
- لا، هي خادمة لا يجب أن تتعلم.
- من قال ذلك؟ أنا معلم هنا، وأعرف من يرغب في التعلم، ومن لا يحتاجه.
- عفوا يا مسيو جيرار أنا..
- لا تقل شيئا، وإلا أخبرت الكولونال، وهو يعرف كيف يخاطبك.

تهديده غير المباشر جعله يصمت فجأة، وانصاع لكلمات هذا المسيو جيرار الذي قال له بصوت غليظ:

- غدا أريدك أن تحضرها بنفسك للمدرسة، وتسجلها.

ثم تركنا نعود معاً سمعت سُبابا كثيرا في الطريق، وأحسست بلطمات مروعة على الخدين، لكن لم أكن أدري لماذا لم تعد تؤثر فيّ كل تلك الأشياء، وأنا أشعر بأني غدا سأكون مع هؤلاء المحظوظين، والمحظوظات اللواتي يدرسن، وبفضل هذا الشخص اللطيف المسيو جيرار.

لسوء حظي أني عندما بدأت الدراسة انتفخ بطني، وهو شيء لم أفهمه حينها، وعندما لاحظ المسيو جيرار أخبرني بالأمر قائلا: أنت حامل، ودون أن يشرح لي كثيرا فهمت ما حدث لي، قرر أن يأخذني إلى المستشفى لكن الأطباء رفضوا إجهاضي واعتبروا الأمر سيئا، وحده

جيرار الملحد راح يُدافع عني بحجة أني فتاة صغيرة ولا أستطيع لا تربية ولا تأمين حياة شخص جديد، إحساسي بالذنب جعلني أفعل ذلك لوحدي، وأتذكر كيف حدث ذلك، حيث أخذت قضيبا من حديد، ورحت أضرب بطني ضربات متتالية وعنيفة، وأنا أصرخ وأتألم، وأفقد وعيّي عدة مرات، ثم أستمر دون توقف حتى شعرت بأني أنزف دما كثيرا أسفل بطني، وبعدها فقط سرت متثاقلة ومنهارة لبيت المسيو جيرار الذي أخذني من جديد إلى المستشفى، وهنالك أسعفوني وقد تخلصت من حمل ثقيل.

قرر جيرار أن أعيش معه في بيته الذي كان يطل على البحر.. لقد بدأت حياتي من تلك اللحظة.. صحيح كنت أخدمه كما فعلت مع السيد خالد لكنه لم يكن يأمرني بشيء، وكان يساعدني في التعلم والدراسة، وحتى قراءة الكتب فمكتبته كانت عامرة بالقصص والدراسات التي ما إن بدأت أقرأ حتى رحت ألتهمها إلتهاماً..

خمس سنوات قضيتها في بيت المسيو جيرار كانت كافية لتحدث بداخلي ذلك الانقلاب الكبير فترفعني إلى أعلى، وتعيد ترتيب تفكيري من جديد، وعبر تجربة الحياة في بيت هذا الفرنسي اكتشفت كيف أن الذهنيات مختلفة، ونمط العيش مختلف، ويا لها من صدمة أن تستفيق على وعيّ من هذا القبيل.

تستيقظ وتشعر بالتمزق والحيرة ودخان الألم يتبخر ويتكثف في سماء مغلقة لكي يخنقك من جديد.. أظن هذا ما حدث معي، ولأول مرة شعرت بأني صرت ناقمة على الوجود، وأفهم حتى ماذا يعنيه جيرار بعدم ايمانه بأي شيء إلا ما نعيشه في الحياة.. فأنا أيضا لم أكن مؤمنة، وكيف تؤمن عندما تكتشف منذ صغرك قهر الناس لك، وضعك المأسوي المرتب لك كي تقبله بصمت ذليل.

لقد تقبلت كل شيء، وحتى أن أكون عشيقة جيرار لأنه وقف معي في النهاية ضد قدري، وعرفت سر إعجابه الغريب بي فلقد كانت لي عينان زرقاوان، وبالنسبة له تصور أني مزيج من علاقة جمعت بين أوربي وجزائرية، أنني ذلك الخليط الذي ينتج في تلك المرحلة لعنته الخاصة.

لكن كان الفرق واضحًا فجيرار لم يكن يغتصبني، كان يفعل معي الحب كما يسميه، وحين أريد أنا أن يفعل. كان يطلب الإذن قبل أن ننتقل إلى غرفة نومه، ومعه ترمم صدع الانشقاق الداخلي، فلقد كانت ممارسات السي خالد كافية لتحطيمي نفسيًّا، وقهري روحيًّا وجسديًّا، وجعلي شيئا لا معنى له، امراة منكسرة إلى أن تموت، وموت امرأة هو حدث تافه لا معنى له في دنيا الرجال حينها.

كانت الثورة التحريرية قد انطلقت، سمعنا عنها بعض الأخبار وحتى جيرار المثقف والمتعلم والملحد لم يصدق ذلك، لقد كان يقول: الجزائر بلدي أيضاً، مؤكدا على أنه ولد فيها، ووالده كذلك، وجده كان المهاجر الوحيد، لم أكن أرد عليه لأنه لم يكن يناقشني، هذه مناجاته مع نفسه، هُنا لا أُصبح موجودة، وعليّ تقبل ذلك كذلك، لأني في النهاية لا أدري من أنا. والجزائر هذه التي يتصارعون حولها لا أعرفها و لم يشعرني أحد بأهمية أن أعرفها، لقد ولدت في عالمهم ذاك حيث الأقفاص تسد عليّ منافذ الخروج، وحتى نوافذ الحلم.

في تلك الفترة كان يزور بيت جيرار كبار شخصيات المدينة الكولونيل ومفتش الشرطة ورئيس البلدة وبعض رجال الأعمال ويتحدثون فيما بينهم عن كل شيء خاصة عن هؤلاء الثوار الذين يطلقون عليهم نعوتا متعددة كالمتمردين والعصاة والمشاغبين، وكان

عملي أنا أن أهتم براحتهم الغذائية، وتحضير الشراب فيسهرون حتى وقت متأخر من الليل ثم ينصرف كل واحد لبيته.

لم أستطع مفاتحة جيرار في القضية، كما لم أستطع أن أسأله لماذا هو غاضب وحزين. ألم يقل لي دائما أن الظلم سيء، والعدالة هي أحسن ما في الوجود، أليس هذا ما كان يدرسنا إياه، وهو يتحدث عن أفكار فلاسفة التنوير روسو وفولتير ومونتيسكو، لماذا الآن يشعر بأن هؤلاء الذي يحاربون الامتيازات والظلم مجرد برابرة يهددون الحضارة؟ وإذا كان هو يشعر بأنه يعيش في الحضارة فماذا عني أنا التي ولدت في الجانب الآخر من هذه الحضارة؟ لماذا لا يفكر فيّ؟ وفي حقي أنا في أن أعيش حياتي بحرية، وكرامة، وعدالة.

أسئلة كثيرة لم أطرحها عليه، وهو لم يفاتحني في الموضوع فبقيت علاقتنا كما كانت من قبل لكن زاد حجم الصمت فيما بيننا، وحتى الحب كنا نمارسه بصمت فلا حديث، ولا كلام، لا شيء غير أن يقوم هو بدوره، وأقوم أنا بدوري، وأستمر الأمر على هذا الحال حتى التقيت ذلك الشخص الذي تقدم مني وسلم لي ورقة مطوية، ونصحني بحرقها عندما أتمم قراءتها.

كان شابا في الرابعة والعشرين من عمره وسيمًا في شكله، وذكيا كما يبدو من حركاته، وعندما سلمني الورقة ابتسم لي، ووضع يده على يدي ليطمئنني، أخفيت الورقة في محفظتي، وعُدت للبيت مهرولة، وهناك فتحتها على عجل، لم يكن بها إلا بضعة جُملٍ قصيرة " نريدك أن تعملي معنا، نحن من سيحرر الجزائر، تحيا جبهة التحرير الوطني".

هكذا صرت مُجاهدة معهم. في البداية اقتصر عملي على نقل كل النقاشات التي تدور في بيت المسيو جيرار، وعندما بدأت أستمع

إلى أحاديثهم شعرت بسعادة أني انضممت لصف المجاهدين فهـــؤلاء لم يفهموا قط هذا البلد، ولا شعبه، ولا تاريخه، وهُم يفكرون في مستقبل مصالحهم لا غير..

نقلت الأخبار أول الأمر لذلك الشاب الذي سيعرفني باسمه قائلا: ناديني عمر يا أختي زهية. فأصبح عمر خلال ســـنتي الأولى صـــديقي الوحيد الذي أنقل له كل الأخبار ويطمئنني هو على مسار الثورة.

في العام الثاني، وبعد أن صرت مأمونة من طرف الثوار في الجبهة، ومعترف بقيمة ما أسديه من خدمات لهم طلبت من عمر أن يُحقق لي أمنية فسألني ما هي؟ فقلت على الفور: اسمحوا لي بتنفيذ عملية قتـــل الخائن السي خالد، قال لي: لم يحن دوره بعد، فألححت: هذا طلبـــي الوحيد. بعد أسبوع قبل طلبـــي، أخذني عمر معه ليلاً إلى بيت ذلـــك الكلب، ودخلنا إلى غرفة نومه، ووجدناه، يا للعار مع فتـــاة صـــغيرة ذكرني ذلك المنظر بكل تلك الليالي الشقيات التي عشتها معه.

قال عمر: حكمت عليك الجبهة بالموت أيها الخائن.

بينما كنت أنا أطلق الرصاص على جسمه الضخم، وأثقبه مـــن كل جهة، وأنقذ الفتاة الصغيرة من مخالبه الوحشية.

كان ذلك الفعل الانتقامي، والذي أُعتبر في سياق تلك المرحلـــة ثوريا من طرفهم أمرا حقق بداخلي فتحا عظيماً، كأني فجأة صـــنعت أسطورتي حينها، أو حققت ثورتي الحقيقية على من ظلمني..

عمر تقرب مني أكثر أيامها، وشعرت بأنه صار مُغرما بـــي، ولا أخفي أني وجدت فيه روحي التي أنصفها القدر للحظة، وتعلقنا ببعض، بل صرنا روحا واحدة في علاقة تختلف جذريا عن علاقتي بجيرار الذي لم يقل لي يوما "أحبك"، وهي الكلمة التي نطق بها عمر في أيام تعارفنا الأولى بصدق أدهشني.

لقد عرفت الحب لأول مرة مع هذا الشاب الثوري الذي كان يعمل قبل الثورة حمالاً في الميناء، ثم صار نقابيا لأنه يفهم قليلا في السياسة وحقوق العمال، وأخيرا سارع للالتحاق بجبهة التحرير لانقاذ البلد من هذا الاستعمار الطويل، وهو لم يكن يحتاج معي إلى خطب رنانة كي يقنعني بأن هذا الوضع المزري الذي نعيشه نحن الجزائريين يجب أن ينتهي ويتوقف، فلقد كان الجرح منقوشًا في كهوف أرواحنا كما على تضاريس أجسامنا، وحاضرا لكي يزغ في داخلنا كشمس مشرقة تدلنا على طريق الوضوح.

في قلب الثورة وعشقنا الملتهب جاء قرار من الجبهة يطلب من عمر أن يسافر إلى تونس في مهمة مستعجلة.

تحدثنا قبل سفره قليلا، ووعدني بأن نلتقي من جديد بعد أن تنتهي مهمته تلك، وأرسلوا لي شخصا آخر للتعامل معي، ثم طلبوا مني أن أذهب إلى العاصمة، وألتحق بخلية تنشط هنالك فقبلت ذلك، لم يكن هنالك أي مجال للرفض في تلك الفترة، وكانت آخر ليلة لي في بيت المسيو جيرار الذي قررت مواجهته بأفكاري فبدا مندهشا من تعبيري عن رأيي بصراحة في الاستعمار لكنه بقي صامتاً لوقت طويل، شرب عدة كؤوس من نبيذه الفاخر ثم أخبرني بدوره أنه قرر مغادرة هذا البلد نهائيا فإذا كنت أنا أفكر فيه كعدو فهذا يعني أن لا مكان له في هذه البلاد. بالرغم من كل ذلك حاول أن يمارس معي الحب لكني رفضت وأخبرته بأني أعشق جزائريا اسمه "عمر" ظننته سيغضب أو يثور لكنه لم يفعل شيئا مُحددًا، بقي على حالته المنكسرة تلك بشعور من فقد وطنا بأكمله في لحظة معينة.

في الصباح كان نائمًا عندما قررت مغادرة البيت، إنتابني شعور حزين، وأنا أنظر إليه مُمددًا على السرير ذلك أني لم أنس أبدًا أنه في

لحظة من الزمن تطوع بمفرده لإنقاذي من حياة لا أدري إلى أين كانت ستقودني، لقد طبعت قبلة على وجنتيه، وانصرفت.

ذهابي للعاصمة جعلني ألتقي برجال ونساء كثيرات كانوا يتحركون في الخفاء، ويحاربون العدو الذي كان أكثر قوة بالتأكيد، وجدتني فجأة في مهمة داخل بيت دعارة من قرر المهمة أشاد بخاصية ستساعدني على أداء دوري على أكمل وجه ألا وهي جمالي، وأن هذا من شأنه أن يجعل الفرنسيين يثقون بي حتماً، ويفضون بأسرارهم لي، لم يقلها بدناءة، أو إحتقار، قالها وكفى، كما لو أنها شيء عادي، وبدوري لم أرفض، ربما لسبب عميق بداخلي أشعرني أن جسدي لم يكن ملكًا لي، وهو شعور غريب وعنيف، منذ تملكه الكلب السي خالد، وكان يفعل به ما يريد دون أن يكون لي أي حق في الاعتراض أو الرفض، إن تجربة كهذه تتركه بصمتها للأبد على ما أظن، ومنذ استباحه جيرار بلطفه وعاطفته الطيبة نحو من أشفق عليها لا غير، اصبح هذا الجسد لهم، وليس لي، لأنه لم يكن ملكي من البداية، ولهذا أن أعمل في بيت دعارة فلن يغير ذلك من طبيعة الحياة التي أعيشها، ولم أخف إلا من غضب عمر الذي كان يريدني زوجة له، نعم زوجة يتزوجها، ويعيش معها، وهو يتخيل أن حياتنا ستكون سعيدة بعد الاستقلال، سننجب أطفالا ويتربون في عالم يتنفس عدالة وحرية.

قبلت مهمتي دون مناقشة التفاصيل، وشيئا فشيئا صار دوري مهما بالفعل، لقد كان الجنود والضباط الفرنسيون يأتون للشرب والاستمتاع ونسيان حربهم ضد شعبنا، وكان شعورهم عندما يمارسون الجنس مع عربيات كأنهم يستعيدون شرفهم الضائع في مكان ما من هذه البلاد، أو ينتقمون منا بهذه الطريقة، لم يكونوا يبحثون عن مسكرات ولكن عن شيء يجعلهم ينسون ما يفعلونه في الصباح أو في

مهماتهم ضد أناس عزل، وكانوا يحكون قصصهم تلك، وكان كل ذلك يجعلني أكرههم أكثر، وأحقد عليهم بشكل أعظم، ففي قمة رغباتهم الجنسية تجدهم يبكون أحيانا لأنهم فعلوا كذا بشيخ هرم، أو طفل صغير، أو امرأة نزعوا ثيابها أمام أبنائها حتى يشعروا الجزائريين بأكثر المهانات التي لا يحتملونها، يا للوقاحة، كانوا فخورين بنذالتهم تلك، لكن كنت أسجل كل المعلومات، كنت أعرف أن تلك المعلومات ستنقذ مُجاهدين من الوقوع في أيديهم، كما تجعلهم يعرفون ماذا يُخطط لهم. استمر الأمر ستة أشهر على هذا الوضع حتى أني صرت أحس بتمزق عنيف، وصُداع مؤلم في رأسي يتكرر كل ليلة كأني لم أعد أحتمل هذا الشيء الذي أقوم به فجأة، فلم أكن متعودة على حياة الدعارة تلك، كل ليلة مع أكثر من شخص، مع شرب النبيذ دون رغبة، وبقدر ما كنت متماسكة لأن الذين أعمل معهم كانوا يقفون معي ضد هذا الإحساس بالمهانة، ويحرصون على رفع مشاعري الوطنية، وتقديس دوري البطولي فلقد كان ذلك ينقص من إحساسي أني أفقد إلى جانب جسدي روحي أيضاً..

كنت أركز بشكل خاص على حبي لعمر، وأنا أتساءل أين هو الآن؟ ألم يفكر حتى في كتابة رسالة يطمئنني فيها عليه؟ أم تراه نسيني الآن لأنه في تونس، بلد حر، ونساءه أخذنه إلى عالمهن، فكف عن التفكير في.

تفكيري في أحلام عمر، ووعوده بالزواج وإنجاب الأطفال، والسعادة في بيت عائلي بعد الاستقلال أشياء كانت ترفع من معنوياتي، وتحديّ لهم.. اعتقدت حالمة أن الحياة ستبتسم لي في النهاية، وستكافئني على هذا الشقاء اللعين..

جاءت الأوامر أن أترك بيت الدعارة، وأعود إلى خلية العاصمة التي بدورها أرسلتني إلى الجبل في الأوراس حيث يمكنني أن أساعد

المجاهدين في عملية الإسعاف الطبي، ومن الأوراس إلى تونس في مهمة مستعجلة لنقل بعض الأخبار للقيادة هناك.

فرحت عندما أوكلوا لي هذه المهمة فثلاث سنوات مضت على آخر لقاء لي بعمر، وهُم أخبروني أنه يشرف على وحدات قتالية بذلك البلد، وطرت من السعادة قائلة:

سألقاه أخيرا ذلك الحبيب، والعزيز على القلب.

هذا ما ظننته في البداية، لكن لم أجد له أثرا في تلك البلاد الصغيرة، سألت الكثيرين عنه فلم يقولوا شيئا، وأحيانا كانوا يخترعون أكاذيب، ويرمونها في الهواء، لا تعرف إن كانت صحيحة، أم مجرد أخبار لا أساس لها من الصحة.

أظنني حينها فقط تألمت بعمق، وفقدت قدرتي على فعل أي شيء، دارت بيّ الأرض سبع دورات ثم أغميّ عليّ، نقلني أحدهم إلى المستشفى، وتركوني هنالك لفترة نقاهة طالت، طالت حتى أني عندما صحوت بالفعل، أو رغبت في الخروج من المستشفى وصلني خبر استقلال الجزائر عن فرنسا...

عدُت لبلدي منكسرة وسعيدة، مزهوة ومجروحة، والناس مبتهجة، وأنا أبحث عن عمر لا غير، إن وجدته فذلك ما سيجعل سعادتي تكتمل، وإلا فلن تكون فرحتي إلا مبتورة ومنقوصة وبلا شفاء عاجل لها.

لم أجده في أي مكان ذهبت أسأل فيه، كنت أجد الترحيب والتكريم فلقد كانوا يعرفونني ويقدرون دوري لكن لا أحد يعرف أين ذهب عمر وأين اختفى حتى عائلته التي وصلت إليهم بشق الأنفس شاركوني البكاء اللعين فقط، وقالوا إنهم سمعوا باستشهاده في معركة بالجبل.

لم أعرف الحقيقة إلا فيما بعد، من شخص سيقولها لي، ويستحلفني أن لا أخبر أحدًا بها، وأن لا أذكره هو فوعدته بذلك وأنا أقسم له وأكرر القسم فقال لي: لقد قتلوه. فصرخت في وجهه: من قتله؟ فرد: هُم، أقصد نحن، عفوا، قيادي في الثورة.

لم أفهم جيداً، لم تكن الثورة بريئة من دماء أبنائها، كنت أعرف ذلك، وسمعنا الكثير عن التصفيات، وحتى القتل العشوائي، كنا نقول بيننا وبين أنفسنا هذه هي الثورات يحدث فيها كل شيء، لا شيء مقدس ولا شيء مُدنس، لكن عمر ماذا فعل؟ ولماذا أجهزوا عليه؟ كان مع الثورة من البداية، كان مؤمنا بها، ومخلصاً لها.

ردّ الشخص بحزن:

– للأسف ربما هذا الإخلاص هو الذي جلعه يدفع الثمن. حسنا، سأخبرك شيئا مُهما، هناك من كانت عينه على الثورة والاستقلال، وهناك من كانت عينه مصوبة لما بعد الثورة، وماذا يمكن أن يستفيد منها، وكان على طرف أن ينتصر على طرف آخر.

لم يقل شيئا آخر، الاستقلال هو الذي غطى على كل شيء بعدها، مسح الدموع، وترك العيون التي تذرف دون أن تجف، إنه انتصارنا الكبير الذي حققناه على عدونا لكن ثمنه كان فادحا على البعض، أكثر من البعض الآخر..

هذه هي قصتي الأساسية لأنه بعد الاستقلال لم تعد هنالك قصة بل جثة تعيش، ولقد أيقظت فيّ شهوة الحياة والحكاية بعد أن تركتها طويلا منسية ومهملة، لأنه ما فائدة تذكر كل هذه الأحزان إلا إذا كنا مجرمين ضد أنفسنا، ونريد تعذيبها يومياً فقط.

***

أتذكر أنه منذ أن حكت لي قصتها تلك فقدنا القدرة على الكلام بشكل سويّ فيما بيننا، كما كنا نتحدث سابقاً، وقلصت من عـــدد زياراتي لها، وصار صعبا عليّ حتى معاشرتها كما كنت أفعل من قبـــل، ومن جهتها أيضا كأنها فتحت ثقبا في روحها الغامضة، وأخرجت منه أشياء لم تمت قط، جعلتها تتهيّب من أي حركة أو حديث..

الزَاَوشْ

الفصل الأول

في صغري كانوا ينادونني "الزاوش" أي العصفور، ولا أدري لماذا لم يكن يزعجني هذا اللقب على الإطلاق، فغالب الوقت كانت الألقاب التي نلصقها ببعضنا البعض تحمل دلالات تقبيحية، يُراد منها السخرية، وحتى الإساءة العفوية لكن "الزاوش" لم تبد لي كذلك، أو شعرت أنها ربما تعني شيئا جميلا للغاية، وهو حسن التغريد، لكني أيامها لم أكن أغني بتاتا، فقط كنت أملك حنجرة قوية وحبالا صوتية تصل إلى أبعد مسافة، وعندما يجد أصدقائي صعوبة في المناداة على صديق يقع بيته في أعلى طابق من العمارة أكون أنا الأول الذي يهتف باسمه فيسمعني على الفور، وينزل بسرعة، تلك كانت ميزتي على ما يبدو أمام الجميع وهي ميزة كانت ترفع من مكانتي نوعا ما، فتصوروا في حيّ شعبي مع جماعة من الأطفال أن لا يكون لك ميزة أو لا تحسن فعل شيء مُحدد لن تكون حتما ضمن فريق كرة القدم الذي يلعب كل صباح جمعة مقابلة مهمة، ويعني أيضا أن تكون معزولاً بشكل ما، صحيح أني لم أكن ألعب مع فريق الحيّ إلا في كرسي الاحتياط غالب الأوقات لكن هذا كان أحسن من أن لا تلعب تماماً، وخاصة أن اللعب يتسم عادة بالخشونة فكان اللاعبون يخرجون بسرعة من الملعب مكسري الأقدام، أو الركب أو حتى الدماغ، لقد كانت أياما رائعة تلك التي قضيتها في حيّ "مارشي أتناش" العالم كان يبدو فيها جميلا للغاية والفقر رغم ألمه لا يتعب تفكيرنا كثيرا فهو يقع على عاتق الكبار فقط فهم المنذورين لهذه الغايات الصعبة، توفير الأكل والشرب والملبس

والمأوى أما نحن الصغار فنلعب ونمرح ونذهب للمدرسة دون حب للذهاب فلم تكن المدرسة تعني لنا جميعا إلا حجزا طويلا ومملا يدوم لساعات، ولهذا كنا نتغيب عنها ورغم العقاب الذي كان ينالنا على عمل كهذا كنا نفعل ذلك على الأقل مرة في الأسبوع

كنت أسكن في الطابق الرابع بعمارة تتكون من خمسة طوابق بداخل شقة صغيرة من غرفتين ومطبخ وحمام ومن عائلة تتكون من ستة أفراد، كنت أصغر إخوتي وأخواتي وكانوا يعتبرونني لهذا السبب مُدللا رغم أن كل حاجيات البيت كانت تقع على رأسي أنا، فهذا هو حظ الأصغر، دائما يصرخون في وجهي كل صباح أو مساء "اذهب لشراء الحليب، أو الخبز، أو الزبدة، أو الزيت.. الخ" فلم يكن الدلال هذا إلا مفهوما يُراد منه أن أعمل أكثر، صحيح أني كنت أتحايل عليهم، وأحيانا يُتعبهم البحث عني عندما أختفي عن أنظارهم حين يحتاجون خدماتي، ولكن ذلك ما كان يضاعف من نعرتهم التهجمية ضدي، ومن كثرة طلباتهم نحوي، فكنت أكرههم كرها شديداً من شهوة تسلطهم علي، وخاصة عندما لا أجد من يُدافع عني، رغم ذلك يجب أن أعترف بأنه كوني ولدا وليس بنتا هذا كان يرفعني إلى مقام أعلى في البيت فأخواتي البنات كن يعانين من قهر إخوتي الذكور، وحتى من طرف أمي التي كانت كالضابط في ثكنة عسكرية، وتريهن كل شرور المعاملات القاسية، ومن هذا الباب فقط شعرت بأنني محظوظ بعض الشيء، ومهما كانت متاعبي لأني أصغرهم سنا فهناك من كان يقاسي أكثر لسبب آخر في البيت.

لم أكن أحب القعود في البيت، وما إن أجد الفرصة لأكون في الشارع حتى أخرج، البيت فضاء مغلق وضيق ومليء بالمشاحنات بين الجميع، أما الخارج فمفتوح على الحياة، على اللعب، وحتى على

المجهول، كنا جماعة أطفال نريد أن نكتشف ما هو أبعد لكن حدودنا كانت دائما مرسومة في أذهاننا لأن لكل حيّ أطفاله، وعصاباته، ومشاكله، غالب الوقت كنا نجد أنفسنا في مواجهة مع أطفال أحياء أخرى قريبة منا، نتعارك دون هدف، نرمي على بعضنا الحجارة فقط لأننا نشعر أنه لا بد أن نفعل ذلك. كانت تحيط بنا عدة أحياء مثل حيّ بلكور أو العقيبة، آه العقيبة كانت مُحرمة علينا، وكنا نسمع قصصا خرافية مرعبة عما يمكن أن يحدث لأي شخص يخاطر بالذهاب إلى هنالك، فلم نكن نذهب إلا عندما نكون مجهزين نحن للاعتداء على غيرنا..

كثيرا ما عُدت للبيت مكسور الذراع، أو القدم، أو بعين محمرة، وكان الأمر عاديا جدا في عائلتي أن يحدث لي ذلك، بل لم يكن أخي الكبير يتورع عن توجيه اللوم لي وهو يقول:

"أَشَحْ فِيكْ ماذا ذهبت تفعل في بلكور؟"

وكان الأمر طبيعيا كذلك أن يضع لك الكبار حدودا جغرافية لا تتخطاها، وإن تخطيتها فلا تُلم إلا نفسك، فأنت حينها المشاغب، المتهور الذي تقود نفسك للتهلكة..

كنت أظن أن إخوتي الذين يكبروني في السن يعرفون كل شيء عن العالم، لكن نادرا ما كنت أراهم يُسافرون إلى أبعد من هذه الحدود، هم أيضا كانوا يشعرون بخطر الاقتراب من أحياء معينة، ولم تكن تلك الأحياء تتوحد فيما بينها إلا عندما يلعب فريق المنطقة لكرة القدم مقابلة ضد فريق منطقة أخرى، هنا يذهب الجميع متوحدين للتشجيع بلا مشاكل مع بعض، ولا عدوانية إلا مع الخصوم.

الحياة كانت جميلة وأنا طفل، لعلي كنت لا أعرف أني سأكبر، وأتذكر ذلك كله، وأضحك، أو أبكي على أيام لم تعد موجودة،

ولكن تبقى محفورة في الخيال، قصص ناس كانوا يعيشون هنا في مكان صغير، وسط مدينة كبيرة، وكانوا يفعلون كل شيء من أجل حياتهم البسيطة والقاتمة، حياتهم التي لم يكن مهما ما كانت عليه من فشل أو نجاح، أغلبهم لم يكن ناجحا ماديا على الأقل، وإلا كانوا انتقلوا حتما إلى أحياء أخرى يسكنها الناس الذين يعيشون بلا مشاكل من النوع الذي كنا نعرفه نحن..

كانت طفولتي مزيج من خيالات الصبا الجامحة، والوقت الذي يمضي دون أن نستشعر أهميته فلا أحد كان يعلمنا معنى الوقت، وإلى أين يمضي، فليمض إذن في هذا الخبث الشيطاني البريء، أو في هذا اللعب المنهك للجسد والمنعش للأعصاب، أو في هذه الخروقات التي تكسر نمطية العالم المعقول، وهي تدخله في جنة من الأحلام التي تحملها روح متوثبة، وغير طبيعية. وقائع مفتوحة على الخيال اللا نهائي قبل أن يصطدم لاحقا بجدران الواقع اليابسة فيتفتت الخيال إلى لحظات مهشمة، وحبات عقد مبعثرة في كل مكان.

كان الشيء الوحيد الذي يريحني هو أن لا أبقى في البيت فكنت ما إن أجد فرصة حتى أخرج للبحث عن أصدقائي كمال ومسعود ومبروك. كانوا في مثل سني تقريبا ومتقاربين حتى في البنية الجسمانية كان سمير هو الأكثر سمنة وطولا فقط، وكنا نعتبره حامينا وقت الضرورة عندما نتعرض لهجوم من جماعة تسكن العمارة المقابلة لعمارتنا، أما إذا كنت تسير لوحدك ولقيت جماعة الأعداء في طريقك فما عليك إلا أن تعطي الريح لساقيك فلو مسكوك ليشبعونك ضربا حتى تنسى من أنت، غير أن تلك الصراعات بيننا كانت تحسم أحيانا على ساحة ملعب كرة القدم فكنا نربحهم مرات، ويربحوننا مرات أخرى، وعندما كنا نلعب الكرة كان الأمر يبدو كأنه صراع من أجل

الحياة أو الموت. فلا مجال للتردد في الإقدام، ولا فرصة للاعتذار عن تحقيق النصر لأن فوزنا كان يعلن قوتنا، ونجاحنا يرمز لشجاعتنا البطولية، وأذكر حتى الكبار كانوا يتابعون مقابلاتنا من حين لآخر ويشجعوننا فأخي مراد "الميكانيكي" كان يعدني بقطعة نقدية إن فزت، وكانت العشر دنانير التي أحصل عليها كافية لتجلعني آكل واشرب في ذلك اليوم ما أشتهي وأرغب..

لم تكن علاقتنا ودّية مع البنات، رغم أن بنات الجيران كنا كثيرات حينها، أذكر واحدة بشكل خاص اسمها وردة سنان هي التي كنت أجدها تلعب بالقرب من باب بيتنا كلما خرجت، وكانت ما إن تراني حتى تبتسم وتشعرني برغبتها في الكلام، في ذلك الوقت لم تكن البنات يعنين لي أي شيء، ولم أكن أرغب في مجالستهن، أو تبادل أطراف الحديث معهن، ربما وردة كانت الاستثناء لأني كنت أشعر بلطف نحوها، أو لا أدري ماذا كنت أشعر، كانت تبدو حنونة، صافية، رقيقة القلب، وتعيش في جحيم يومي، وذات جمال هادئ لا يثير لكنه يحرك خيوط القلب في الداخل البعيد الذي لم يتضح بعد.

تعاطفت معها بشكل عميق يوم رأيت زوج أمها يضربها بقسوة شديدة لسبب أجهله. كان يضربها كما لو أنها خشبة لا تشعر بشيء، وأمها تصرخ وتستغيث، لكن لم يتدخل أحد لإنقاذها منه، أما أنا فمن شدة إحساسي بألمها تدخلت، وحاولت دفعه رغم قلة قوتي، كي أحول بينه وبينها فلم أستطع إلى ذلك سبيلا، وهنا أحسست بيد غليظة تمسكني من كم قميصي، وترميني على الأرض، ولم تكن اليد غير يد والدي الذي راح يركلني أمام الجميع أنا أيضا، وهو يصرخ "ما دخلك فيهم؟" وفي تلك اللحظة تقاطعت نظرتنا معاً، أنا ووردة تقاطعا مؤلما للغاية، حيث وقعنا معا تحت قبضة هؤلاء الذين لا يرحمون.

لا أحد يُفسر لك لماذا يضرب الكبار الصغار؟ ويُهينونهم، وهم يشعرونهم بأنهم أقل من لا شيء، لا أحد شرح لي ذلك في يوم من الأيام، كما أني لم أسألهم قط، فما جدوى السؤال؟ فوالدي كان يضرب عندما تُعصى أوامره دون تفكير، أمي أيضًا رغم حنوها المبالغ فيه كانت تفعل نفس الشيء، أخوتي الكبار، المعلمون، ومدير المدرسة، وكل من هو كبير في السن داخل الحيّ كان له الحق في تأديب الصغار، ربما لهذا السبب كنا نكرههم أو نتجنبهم ونحن نشعر أنهم أعداؤنا بشكل أو بآخر، غير أن تلك المشاعر العدائية لا تدوم طويلاً، بسرعة ننسى، ونعود لعلاقاتنا الودّية معهم، فهُم من يتحملون في النهاية هذه الأعباء الثقيلة التي لولاها لما وجدنا مأوى نسكن فيه، أو أكلا نطعم جوعنا به، أو ملابس نتغطى بها في برد الشتاء القارس، وكنا نشعر بهذا في الأعياد مثلا كالمولد النبوي الشريف حيث يشعروننا بأهميتنا نوعا ما، وهم يحرصون على سعادتنا وفرحنا، أو العيد الصغير عندما يشترون لنا أفخر الثياب لنفرح معهم بنهاية شهر رمضان العظيم، كانت المناسبات الدينية هي فرصة لنحس بعمق العلاقة وحنان الكبار لوقت محدود ثم تعود المياه لمجاريها، والأمور للسير على وتيرتها القديمة، أي على ذلك الخط المستقيم الذي لا ينحرف إلا مرات قليلة.

لم يكن والدي متشددا في الدين، لكنه كان يصلي ويصوم ويقوم بما يفترض أن يقوم به أي مسلم، لكنني لم أسمعه يقول لأحد في البيت "لماذا لا تصلي؟ أو لم أرك في الجامع اليوم؟" كان غير مهتم بما يفعله أولاده في حياتهم اليومية، أما أخواتي البنات فلم يكن يخرجن من البيت إلا للتسوق، أو الحمام مرة في الأسبوع لا غير، وهن يرتدين الحايك الحريري الأبيض، وعادة لا يخرجن إلا بعد أن أصاحبهن لأنه يحرم عليهن أن يتحركن بدون محرم يحرسهن..

أذكر كيف كان يفرض عليّ هذا العقاب، وكيف كنت أتحمله بغضب شديد فبدل أن ألعب مع أصدقائي أو أتسكع في أزقة الحيّ أجدني مع أختي رشيدة ذاهبين إلى الحمام، كانت رشيدة جميلة وذات جسد مرهف، ورغم الحايك الذي يستر كل جسدها، والنقاب الأبيض الذي تغطي به نصف وجهها السفلي كان يظهر جمالها ذاك ويثير من حولها تصفيرات البعض من الشباب المراهق وكنت أحمر خجلا تارة، وغضبا تارة أخرى، ولا أدري لماذا بغباء كنت أحملها هي مسؤولية ذلك الوضع، فلو بقيت في البيت أليس أفضل لها، ولي ولشرف العائلة من هذه المعاكسات التي تحرجني مع نفسي، وتجلعني متوتر القلب وملتهب الأعصاب.

كانت تترجاني أن لا أخبر أحدًا في البيت عما أسمعه وأراه، ومرات كنت أريد أن أخبر أبي أو أحد إخوتي الذكور حتى لا أضطر لمصاحبتها كلما سنحت لها فرصة الخروج، لكني لم أفعل خوفا عليها من الضرب ربما، أو لأنها لم تكن تبخل عليّ ببعض النقود، أو لأني أتذكر أنها كانت تحكي لي قصصا كثيرة قبل النوم، وأنا في سن السادسة، وكان يستلذ سمعي هذه القصص، وأرحل معها إلى بعيد. لقد شفعت لها كل هذه المبررات كي لا أشي بها، والحمد لله أنها لم تكن تخرج كل يوم فمرة في الأسبوع، لم تكن متعبة كثيرا رغم كل شيء.

يوم جاء شخص يخطب رشيدة فرحنا كثيرا بالبيت، ثم اكتشفت أنها الوحيدة التي لم تفرح، والوحيدة التي لم تشعر بأن شيئا كهذا سيكون مصدر سعادة لها، و لم أفهم السبب، كانت العادات تقول أن زواج البنت هو أجمل ما تحلم به، أو هذا ما سمعته عدة مرات من والدتي وهي تدرب أخواتي على مستقبلهن في البيت الزوجي السعيد،

ولهذا ظننت أن شيئا آخر يؤلمها، شيئا لم تقله لأحد وفضلت كما هو أمر الصغار التكتم على أسئلتي تلك، وحيرتي كذلك.

تذكرت أني عندما كنت أصاحبها للحمام ونصل إلى الباب تقول لي:

- خذ، هذه عشرة دنانير لك، أصرفها كما تشاء، بعد ساعتين نلتقي بالقرب من الحمام أكون قد أتممت ما جئت من أجله.

كنت آخذ العشرة دنانير وأنصرف وأعود دائما في الوقت الذي حددته لي للعودة، لم أسأل نفسي قط من أين كانت تأتي بتلك الدنانير فلا أحد في البيت يمنح نقودا للبنات، ولا أحد يهتم بحاجياتهن إلا في تلك الحدود البسيطة.

أثارني حزنها بالفعل، وتعجبت من أن لا أحد لاحظ ذلك إلا أنا، وظل الجميع يتعامل معها على أنها وصلت إلى تحقيق حلمها في الزواج وأن هذا الشخص الذي تقدم لها ابن عائلة شريفة وله عمل، وأنه وإن كان يسكن مع عائلته الكبيرة، فلا أحد كن يملك شقة خاصة به في تلك الأزمنة البعيدة.

أحيانا لا نعرف لماذا يقودنا القدر إلى ارتكاب الحماقات، والندم عليها بسرعة لكن بعد فوات الأوان كأنها لازمة لا مجال للتهرب منها، تتبعك منذ الصغر لتخبرك بمأساوية الحياة التي تعيشها، وأنت تظنها جنة بلا ضفاف.

عندما تحركت الأسئلة بداخلي، وانتقلت إلى مرحلة الشك اضطررت إلى فعل شيء لم أفعله من قبل على مدار سنوات مصاحبتي لأختي رشيدة وهي تذهب للحمام، أوصلتها للباب، وعندما ناولتني العشرة دنانير، وقالت لي نفس الجمل التي تقولها عادة لأتركها تدخل للحمام، فعلت كما لو أني سأقوم بنفس الدور المعروف، وتركتها

تدخل للحمام لكن لم أبتعد كثيرا هذه المرة حيث بقيت أرقبـــها عـــن قرب، وقلبـــي يدق دقات عنيفة خوفا من حدس الاكتشاف الخطـــير الذي سأطلع عليه.

الفصل الثاني

لم يدم ترقبي طويلا حتى شاهدت شابا في مقتبل العمر يرتدي سروالا أزرق اللون، وقميصا بنيا مفتوحا على الصدر يقترب من باب الحمام، ويقف منتظرا بتوتر، وهو ينظر من حين لآخر نحو ساعة معصمه ليتأكد من وقت الموعد المرتقب، بعد لحظات ظهرت أختي، وهي تخرج بدون حايك ولا نقاب فأصبت بدهشة صامتة، وأنا أراها تتقدم منه، وتسلم عليه ثم تطوق بذراعها الأيمن ذراعه الأيسر، ثم يسيران معًا في اتجاه مجهول. شعرت بكل أنواع الغضب والشر تسري في عروقي، ودمي ينتفض كالنار في الهشيم، وقلبي يصرخ مستغيثا من هذه المفاجأة التي لم أكن أنتظرها.

لم أجد ما أقوله أو أفعله، بقيت في مكاني جامدا كصنم، وأنا أراهما يتحركان في اتجاه لا أعرفه، حاولت أن أنادي عليها حتى تعرف أنني شاهدتها متلبسة بالجُرم فتعود معي للبيت لكن لم أقو لأول مرة على الصراخ، كما لو أني بلعت لساني في داخل حلقي، كما لو أن صوتي الشهير بقوته ضاع مني، وبقيت فقط أتفرج على ذلك المشهد الذي أغرقني في عتمات حزن وغضب شديدين.

أخيرا فهمت سر حزن أختي، وأدركت أن ذلك حدث بسبب هذا الشاب، هذه العلاقة المشينة بينهما، وأنه عليّ أن أفعل شيئا، أن أقول شيئا، أن أخبر أحدا فلقد كان كتمان سر كهذا على العائلة لا يحتمل بالفعل.

كنت في الثالثة عشر من عمري، وكانت الحياة بالنسبة لي سهلة وبسيطة، ومقسمة تقسيما موضوعيا فعالم الكبار لا يهمني، وهُم أعدائي بشكل ما، لكن بما أنهم هم من أوكلت لهم مهة تأمين حياتي على الصورة التي أعيش بها، فأنا مدين لهم بالحقيقة كل الحقيقة، ولأول مرة شعرت بأنهم اقتحموا الآن تفكيري وتداخل عالمهم بعالمي، وقدرهم بقدري، ومصيرهم بمصيري.

تفطنت فجأة إلى هذا الثقل الشديد في تحمل مسؤولية أمر كهذا، وماذا لو أخبرت أمي بهذا السر الخطير؟ ماذا كانت ستفعل؟ وأختي ماذا سيكون مصيرها؟ وماذا سيفعلون بها؟ ولماذا عليّ أنا أن أتحمل ذلك؟

شعرت كما يشعر الغريق بأنه يغرق دون أن تمتد له أي يد لتنقذه من هلاكه الأخير. شعرت بعُمق الهاوية التي سقطت فيها، وكما كرة ثلج تنحدر من أعلى قمة وهي تتفاقم كلما نزلت في الحجم والسرعة كنت أدخل فجأة عالم الكبار المعقد والحزين وأحترق بناره الجهنمية ويتسع بداخلي شعور الحقد والكراهية تجاههم وتجاه نفسي..

لم يمض الوقت سريعا حتى شاهدتهما يعودان ويقفان أمام الحمام، ويتناظران بشوق لبعضهما البعض، شعرت فجأة بأن هناك شيئا يوحدهما بالفعل، لكن لم يخفف ذلك من ثقل إحساسي بالإرهاق والمسؤولية، ما هو الشيء الذي شعرت بأنه يوحدهما؟ لا أدري، لم أكن في مستوى أن أجيب عن سؤال لم أطرحه إلا بطريقة صامتة وسرية للغاية، كمن يتمتم به لنفسه، بل فقط كان علامة تعجب وحيرة، ذكرني بوردة بنت الجيران يوم سقط علينا الضرب من والدينا في نفس التوقيت، وتلك النظرات التي تبادلناها بصمت وحزن وحنان كبير، شعرت بهذا فقط دون أن أقول شيئاً، أحسست بأني آثم، مذنب، كما لو أني أنا من أرتكب هذه الجريمة النكراء، وأي جريمة، أن يكون

لأختي رشيدة عاشق سرّي، حبيب لا يعلم به الآخرون، وأنها تقوم بشيء لا يرضى عنه لا الله، ولا العائلة، ولا أي أحد.

تركته يذهب، وبقيت أنتظر لبعض الوقت حتى تعود لداخل الحمام ثم تخرج بالحايك والعجار هذه المرة كما تركتها عندما أوصلتها، وتقف منتظرة قدومي حتى نعود للبيت، وكأن لا شيء حدث، وكأنها لم تفعل ذلك الفعل؟ وكأني لم أرها تفعل.

لا أدري من أين جاءتني الشجاعة لأتوجه نحوها دون أن أقوى على قول إلا كلمة واحدة: "نذهب" فردت بهز رأسها موافقة، وأمسكتني كعادتها من يدي اليمنى، وسرنا معا صامتين، للحظة شعرت بضغط أصابع يدها على يدي فرفعت رأسي نحو وجهها، وعرفت أن دموعها كانت تسيل، لم أتجرأ على أن أسألها" ماذا هنالك؟" بقيت كما لو أني لا أعرف شيئا ولا يهمني ما يحدث لها، وأن هذه مشكلتها في النهاية، وليس مشكلتي، وعليها أن تحلها بنفسها فما دخلي أنا؟ لم يخفف ذلك من إحساسي بثقل السر المكتوم في صدري لحظتها، وأنا أدرك أنه عليّ واجب مفزع هو واجب الأخ في أن يقول للعائلة الحقيقة فيتركهم يتصرفون كما يعلمون هم كيف يتصرفون في مثل تلك اللحظات الخطيرة..

لم يكن سهلا على الطفل الذي كنته تحمل مشقة السر الخطير الذي اطلع عليه فلا يخبر أحدا بذلك، ولهذا قضيت ليلتين بلا نوم، وأنا اشعر بالحسرة على أن هذا الأمر يقع على رأسي، وبعدها وجدتني أقول لأمي ما شاهدت فتكاد تصاب بالسكتة القلبية، وتبدأ في الصراخ والعياط، والبكاء والنحيب، كما لو أنها فقدت شخصا قريبا إلى قلبها للأبد.

لم يكن قد بقي إلا شهر على عرس أختي رشيدة من ذلك الشخص الذي تقدم لخطبتها دون أن يعرفها، أو يعلم عنها أي شيء،

ولهذا بدت القصة كلها كأنها مفاجأة سيئة دفعت أمي للصراخ ثم الذهاب لغرفة رشيدة ومواجهتها بطريقة هستيرية بالحقيقة..

ظننا جميعا أن رشيدة ستنكر القصة من أولها إلى يائها، أو أنا من ظن ذلك لكن حدث العكس، وجدت رشيدة تواجه أمي بالصراخ نفسه والهستيريا ذاتها وهي تقول: نعم أحبه، ولن أتزوج من هذا التعيس الذي أحضرتموه لي..

كلام كثير قيل بينهما، وانطلقت أصواتهما عاليا في سماء الشقة حتى أنه كان يصل للجميع، حتى الجيران خرجوا وراحوا يستمعون لما يصلهم من أصداء كلام مبعثر من هنا وهناك.

صارت القصة واقعا معروفا، وهي أن رشيدة على علاقة مع شاب غريب، وأنها لا تريد الزواج من خطيبها المقترح لها..

تركت البيت حينها وخرجت، كنت أعرف أني أنا من تسبب في هذه الحالة المؤلمة، لكن هل كان بيدي حل آخر يومها؟ هل كان يمكنني التكتم على سر خطير كهذا؟ ومن جهة أخرى كان هذا الفضح هو الطريقة الوحيدة لتعلن رشيدة عن موقفها من زواج لم تكن ترى فيه سعادتها بالفعل..

خرجت ونزلت إلى الشارع غير أفكر إلا في أن لقاء أصدقائي مراد وكمال ومبروك ونجري كما تعودنا على ذلك كل يوم في طرقات شارع "مارشي أتناش" حتى نصل إلى "حديقة التجارب العلمية" بالحامة، ونحن نضحك من بعض، أو على بعض، وجدتهم في المكان المعتاد يقفون هنالك ينتظرون قدومي ويهللون لحضور "الزاوش" بينهم بعد غياب دام يومين تقريبا، وهو وقت طويل بالمقارنة مع الأيام الخوالي فنحن نكاد لا نفترق إلا لنلتقي، ذهبنا نلعب كرة القدم في ساحة مبنى نقابة العمال، ولم أتوقع عند عودتي في

المساء إلى البيت، وقد قضيت في صحبتهم لحظات مـــرح ولعـــب لا تنسى أن ألما كبيرا ينتظرني.

كانت الساعة تشير إلى السادسة ونصف مساءً، كانت الظلمة قد بدأت تنتشر في سماء الجزائر البيضاء، وكان عندي شبه أمل ضـــئيل أني سأجد الأمور قد هدأت وتحسنت بعض الشيء، لكن ما أن وصلت إلى العمارة حتى وجدت سيارات الشرطة والإسعاف وعددا كـــبيرا مـــن الناس متجمهرين ومتحلقين حول جثة مغطاة بإزار أبيض، خمنـــت في كل شيء إلا أنها جثة أختي رشيدة التي عرفت لاحقاً أنها ألقت بنفسها من الطابق الخامس كان الأمر فوق الاحتمال وشيء لا يمكن تصديقه..

أظنني منذ ذلك اليوم فقدت نهائيا علاقتي بالطفولة، و لم أعد أشعر أني أنتمي لعالم الصغار الذين لا يهمهم من الحياة إلا أن يقضوا تلـــك الأوقات الجميلة فيما بينهم غير مكترثين بمآسي القدر، ومســـؤوليات الكبار.

الفصل الثالث

تفاصيل إلقاء أختي نفسها من شباك البيت لن أعرف عنها الشيء الكثير، ستأخذ الشرطة والدي للتحقيق وسيدافع عن نفسه بالقول إنها ألقت بنفسها لوحدها دون أن يدفعها أحد إلى ذلك، وأمي ستؤكد ذلك بدورها، وحتى الجيران يشهدون بأنهم سمعوها تصرخ بكلام من قبيل أنها تريد الموت على أن تتزوج، وبعد أسبوع فقط ستطوى القضية، وينتهي التحقيق على أن رشيدة انتحرت لأنها رفضت الزواج من شخص لا تحبه.

ذلك الأسبوع لن أنساه، لقد صرت فجأة واحدًا منهم، وجزءا من هؤلاء الكبار الذين كنت أخشاهم وأكرههم، وبالتالي وضعوني معهم في نفس الإطار، صاروا يشركونني في الحديث بينهم حول ما حدث، وكيف ستكون الأمور بعد الحادثة المؤلمة.

انتبهت فجأة إلى أنهم يملكون مشاعر هم أيضاً، أحاسيس تتقطر من قلوبهم، بعد أن كانوا يبدون لامبالين ويعيشون بلا روح، فأمي طوال الأسبوع وهي تبكي، كانت تظن دائما أنها كانت على صواب وما فعلته رشيدة هو الخطأ، لكن بعد أن ألقت بنفسها من الطابق الخامس ورحيلها النهائي والأخير تدفقت تلك المشاعر الغامضة بداخلها، وأحست بذنب لا يُغتفر وبقي شيء يوجعها دائما، إخوتي أيضا لم يتحملوا ذلك الشيء الذي جعل "مارشي تناش" كله يتحدث عنهم، صارت القصة قصة الجميع، ومدار حديث الكل، انتبهوا إلى أن شخصا قريبا منهم كان يعيش بينهم قد غادر الحياة، ولن يعود إليها

أبدا، أبـــي تضعضع إيمانه بقوة روحه، وبمملكته الحديديـــة فغـــرق في صمت موحش، مؤلم للغاية، أخواتي البنات الثلاث لم يفطن من هـــول الصدمة، كانت رشيدة أختهن الكبرى، صديقتهن الحميمة، والأقـــرب إليهن من غيرها ومن فرط ما شاهدته على وجوههن من حزن حـــتى ظننت أنهن سيصابون بالجنون جميعهن واحدة وراء الأخرى، أما أنـــا فلقد تكبدت تلك الخسارة على أنها سيئة من سيئات نفسي.

الصمت ران علينا عدة شهور بعد كلام طويل لم يكن له معـــنى غالب الوقت، لم يعد أحد يجبر نفسه على الحديث مع الآخر، صـــرنا غرباء عن بعضنا، وأغلبنا يتجنب البيت لسبب أو لآخر، لوحدي كنت أتحمل مسؤولية هذا الذنب، وكان الأمر فوق ما يحتمله طفل في الرابعة عشر من عمره.

تركت جماعة الأصدقاء، أو صرت أتجنبهم، لم تعـــد عنـــدي أي رغبة في اللعب، وتفهموا من جانبهم ذلك، فالخبر وصل آذان وسمـــع الجميع، صرت أذهب للمدرسة، وأعود للبيت، وأحتجز نفسي في أي مكان شاغر وأبقى هكذا صامتا بلا حركة، دون أن أعرف طبيعة مـــا يدور بداخلي من مشاعر وأسئلة..

في هذه الفترة انقذتني وردة من اليأس، نعم وردة التي كانت تصر رغم كل تلك الآلام التي كانت تعصف بروحي أن تبقى بقربـــي وأن تتحدث معي، لقد كبرت هي الأخرى وصارت تبدو كامرأة في عمـــر الورود، تراها مبتسمة دائماً، كانت تسأل عني كل يوم، تطرق البـــاب وتطلبني "هل الزاوش هنا؟" نعم حتى هي كانت تفضل هذا اللقب على اسمي الحقيقي **مصطفى**، فكنت أخرج لها، ونجلس في درج العمـــارة، وندردش بعض الوقت، وأحيانا تدعوها أمي للدخول، وتجلسها بالقرب من المطبخ، وتنادي عليّ كي ألتحق بهما، كان شيئا ما قد تغير في نظرة

عائلتي للناس، أمي صارت عاقلة وحزينة، وتتكلم بهدوء، وصارت تسمح بحديث يجمع طفلا بطفلة دون أن تثير حوله زوبعة من الشكوك، والمحرمات.

كنت أتحدث مع وردة بسعادة فهي تسألني عن الدراسة دائمًا، وهذا كان يأخذ نصف وقت الحديث، أما الباقي فلقد كانت تغرقني بالحديث عن الأماكن التي ترغب في رؤيتها، ولم تزرها بعد، مثل حي باب الوادي، وكورنيشه المطل على البحر، الأبيار التي تطل على كامل الجزائر العاصمة، وكنت أعدها أننا حتما سنفعل ذلك يوماً ما، فهي أحياء ليست بعيدة عن "مارشي تناش" ومرات كان حديثنا يخلو من كل فرح عندما تتحدث عن زوج أمها الذي تتقبل منه كل شيء ما دام يسمح لها بالذهاب إلى المدرسة والتعلم، وأنه في الحياة يجب أن نرضى بقسمة القدر..

لماذا كان كلامها يريحني؟ لم أجب عن هذا السؤال إلا بالتأكيد على كونها تذكرني بأختي المرحومة رشيدة التي حرصت على زيارة قبرها كل نهاية أسبوع في مقبرة "سيدي أمحمد"، نعم بشكل ما كانت تُشبهها، لكن وردة كانت متعلمة، ربما الفرق بينهما كان في هذه النقطة بالذات، أختي لم تدرس أبدًا، منعها والدي من ذلك، لكن روحها بقيت حرة وتواقة إلى أن تعيش خارج الأقفاص، وتريد أن تذوق طعم حياة مختلفة.

مع وردة استطعت أن أخرج من إحساسي بالألم واليأس، وذلك الانغلاق الكبير الذي سقطت فيه، صرت معجبا بحيويتها وإقدامها على التعلم والحياة، وصارت قُدوتي، نموذجي الأول في تحمل مشاق الطريق، والظروف الصعبة من أجل الوصول إلى شيء أكبر وأهم..

أصبحت وردة هي وردة الحياة، وبفضلها تفتحت روحي على الأمل من جديد، على حب الحياة من جديد، على الإيمان من أن شيئا

آخر ينتظرني في نهاية الطريق، وأنه عليّ فقط أن أعمل من أجل ذلك. لا شيء غير الإيمان، والعمل، والحب.

أتذكر يوم قلت لها أحبك، هل قلتها حقاً؟ نعم قلتها بالتأكيد، أو خرجت لوحدها دون أن أنتبه، وكان ذلك بسبب نجاحنا في آخر امتحان قبل الدخول إلى السنة الأخيرة من الثانوية، نعم أخبرتها بهذه الكلمة التي لم أكن لأزن ثقلها على القلب، وحتى على اللسان حينما نطقتها، وبكل تحد أمسكتها من يدها، وقلت لها سنذهب لكورنيش باب الواد، وسنسير يدا في يد متشابكي الأصابع والأحلام، وسنضحك، نضحك حتى ننسى كل تلك الآلام التي صاحبتنا طوال أيامنا الخاليات، وذهبنا بالفعل رغم مخاوفها من أن يعرف زوج أمها بالأمر فينالها ذلك العقاب الشديد الذي لا يرحم..

كانت أمسية رائعة بحق، ونحن نقف متلاصقين ونتأمل البحر، وأنا أردد أغنية حب قديمة قرأتها في كتابنا المدرسي، لم تقل شيئا، بقيت صامتة ومندهشة، وهي تنظر بعينين براقتين إلى زرقة البحر الدافئة وتتمنى مثلما أتمنى أن يتوقف الزمن في تلك اللحظة فقط فنمكث فيها إلى الأبد.

مر الوقت بسرعة، السعادة التي لا تدوم طويلا، وعدنا على أقدامنا منتشين كانت الفرحة تنط من عيوننا ووجوهنا، وكنا نشعر أننا نملك أخيرا ذلك الحظ المبتسم، وأننا في تلك اللحظة لسنا عبيدا لأحد، بل أسياد قدرنا الجديد..

قبل أن نصل إلى حي "مارشي أتناش" تفارقنا حتى يدخل كل واحد إلى الحيّ من طريق مختلف، فلم نكن نريد أن يباغتنا أحد فيعكر صفو تلك اللحظات التي عشاها في عميق قلوبنا الملتهبة بالحب والسعادة.

لا أدري لماذا كنت بحبي لوردة أشعر أنني أنتمي إلى فصيلة أختي رشيدة التي قتلت نفسها من أجل حب ذلك الشاب، وهربا من عسف العائلة التي أرادت أن تحرمها منه..

صرت أفهم ذلك الشعور بعمق، مستلذا عذوبته ومقدرا خطورته، ومستبشرا بوعوده المغرية، وكم حزنت أني لم أكن قادرا على فهمه قبل ذلك الوقت يوم أخبرتهم بسر أختي وحدث ذلك المكروه الذي شل حياتنا لفترة طويلة، وبعثرنا في اتجاهات مختلفة، وأفقد الأشياء طعمها الجميل لسنوات، وسنوات عديدة.

لقد فهمت كيف أن الواحد منا إذا عشق وأحب صار قلبه ممتلئا بالسعادة والرغبة في العيش، وأنه إذا ما أجبر على التخلي عن معشوقه كيف تظلم الحياة في نظره، وتقوده إلى الهاوية، لهذا كنت مستعدا أن أقوم بأي شيء من أجل وردة سنان حتى لا أفقدها، حتى لا أراها حزينة، وحتى أستطيع بفضلها أن أستمر في العيش مطمئنا على أن الحياة ستكون في صفي، وليس ضدي.

ظننت ذلك حقاً، بل آمنت به كل الإيمان وفي اعتقادي أنه يكفي ذلك الشعور بالحب حتى تتجه الأمور إلى الطريق الذي تريد والمسار الذي ترغب، ظننت ذلك حتى تفاجأت من وقوع ذلك الشيء الذي قلب الأمور على عقبيها وأخرج السواد الكثيف من قمقمه وتركه يظهر عاريا في وضح النهار.

الفصل الرابع

عدت إلى البيت فرحًا ومنتشيا حتى شاهدت زوج أمها يمسك بها، ويضربها ضربًا عنيفا أثار غضبي، وفجأة شعرت أني تحولت من شخص، إلى شخص آخر، وبلا وعي مني تحركت نحوه لأقتله، لم يكن عندي الوقت لأفكر في طريقة قتله، كانت فقط رغبة قوية في دفعه عنها ضربه بقوة حتى يخر على الأرض، وأنهال عليه بالركل واللكمات القوية، وفي لمح البصر فعلت ما رغبت، وأنقذتها من مخالبه، وأنهلت عليه بالضرب على الوجه، والبطن حتى تراجع قليلاً إلى الوراء، ثم وهو يحاول أن يدافع عن نفسه إنزلق فجأة، وتدحرج مع سلالم العمارة حتى وجد نفسه في الأسفل مشقوق الرأس.

لم أنتبه لما حصل، كان همي أن أنقذ وردة منه، وأن أدفع عنها ضررا كان يتهددها في تلك اللحظة من الزمن الفاسد، لكن لم أعرف أني بذلك الفعل سأدفع ثمنا باهظا من حياتي..

أخذتني الشرطة إلى المركز، وأخذوه هو إلى المستشفى، وبقيت في الحبس ليلتين قبل أن يحققوا معي في الأمر، كان المفتش الأصلع الرأس، هو الذي يسأل، وأنا أجيب، كانت أسئلة روتينية بسيطة في البداية، ثم سرعان ما تحولت إلى استجواب قاس للغاية بُغية أن أعترف بما فعلته، فأخبرته بكل ما حدث، وبتفاصيله الكاملة حتى يقدر الظروف التي أعتديت فيها عليه، ظنا أني قد أستدر شفقته، ويتفهم أني بسلوكي ذاك كنت أنقذ إنسانا من الموت، فسمعني جيدا، ثم ابتسم في وجهي بمكر قبل أن يقول:

- هل انت ساذج أم ماذا؟ أشكر ربك أنه لم يمت، وإلا كنت ستمكث في السجن حتى لا يبقى منك إلا العظام.

لم يمت اللعين، ولكن حدث له شق في الرأس جعله عاجزا عن الحركة لفترة طويلة، وهكذا وجدتني أمام المحكمة متهما بالاعتداء على رجل كبير في السن، لم يكن يفعل غير تأدية دوره كمسؤول عن العائلة وذنبه الوحيد هو أنه كان يربي بنته التي حاولت حسبهم مساعدتها على الفساد.

لم يستطع المحامي الذي وكلته عائلتي أن يقول، أو يفعل الشيء الكثير بالرغم من أنه بذل مجهودا في سبيل شرح ملابسات الحادثة، وظروفها التي لا تحتاج لتحليل طويل لكي يعرفوا أنني كنت أنصر الضعف على القوة، فلقد بقي قاضي التحقيق مصرا على أني شاب عنيف، وفاسد، وبحاجة إلى تأديب حقيقي من طرف القانون حتى أكون عبرة لمن يعتبر، فحكمت عليّ المحكمة بخمس سنوات سجنا نافذا، وأذكر يوم سمعت صوت القاضي، وهو يُطلق الحكم، كيف أن كل شيء فيّ تحرك ناحية الأرض، ولم يبقى من الأصوات التي كانت ترتفع كأننا في غابة قرود إلا صوت أمي يولول ويبكي، أما أبي فتركته ينظر إلي وجهي دون كلمات، ودون أن أرى في وجهه ما يعينيني على تحمل تلك الواقعة الشديدة بصبر وشجاعة.

كان العزاء أنني أنقذت وردة من زوج أمها التعيس، وأنه بسبب ذلك الشق الذي فتحته في رأسه صار ضعيفا جدا، وبليدا للغاية، وشبه مجنون، وكان ذلك كافيا لأقنع نفسي بالثمن الذي سأدفعه من أجل أن تُحقق وردة ما كانت دائما تحلم بتحقيقه في الحياة، النجاح في الدراسة، والتفكير في مستقبل أجمل من حياتها السابقة في حيّنا التعيس" مارشي أتناش".

أما أنا فلقد شعرت بأني هُزمت من الداخل، وأنه عليّ من تلـــك اللحظة تقبل قدري الجديد الذي لن أكون فيه ذلك الشخص الـــذي تمنيت وحلمت.

الفصل الخامس

أربع سنوات وشهران فترة كافية لتغير حياة أي شخص، مهما كان هذا الشخص، وهي تضعه في امتحان حقيقي، ليس فقط مع الآخرين، ولكن بالأخص مع ذاته التي يكون يظن أنه يعرفها جيدًا، أو بعضاً من أشيائها الجوهرية، فإذا به من خلال تلك السنوات التي تحدث فيها المواجهة الداخلية العنيفة، يكتشف أنه بحاجة إلى إعادة نظر عميقة في كل شيء. حتى تلك الأسئلة الوجودية تعود من جديد، وهي تطرح نفسها بإلحاح مؤلم، وقسوة عنيفة: من أكون؟ ماذا أفعل في هذه الحياة وهذا الوجود؟، هل لهذه الحياة معنى، أم لا؟ ولماذا أوصلتني أقداري إلى هذه اللحظة العنيفة من التساؤلات؟

أربع سنوات كانت عبارة عن جلد للذات وجعلتني أندم على ما أقدمت عليه، وأنزع عن نفسي توهماتي المثالية، وأجدني في النهاية داخل تلك الحلقة المغلقة التي تقضي على البراءة والتمنيات وتؤكد لي من أن لا شيء يستحق أن نفقد من أجله حريتنا.

لم يكن السجن غير تلك الجدران التي تفصلك عن كل ما له قيمة حقيقية، وتجمعك بأشخاص لم تفكر قط أنك ستجد نفسك معهم في يوم من الأيام.

في البداية وجدتني مع عشرة مساجين كل واحد له قصته، وجريمته، وطريقة رؤيته للحياة، ولا أدري لماذا يعتقد المجرمون أنهم يعرفون الحياة أحسن من غيرهم، أم أن ذلك يرجع إلى أنهم ذهبوا لأقصى الجوانب المظلمة في أنفسهم، واستشعروا عبر هذه التجربة

حقيقتهم الأخرى، فيعتقدون أنهم وصلوا لقمة لا يصلها إلا من سار على دربهم ذاك.

تجنبتهم أول الأمر قدر ما أستطيع، وضعت بيني وبينهم جدارا آخر لكي يفصلني عنهم، أجلس لوحدي، وآكل لوحدي، وأظهر عنفي عند اللزوم فهم يستقوون على الضعفاء بسرعة، ويحولونهم إلى خدم لهم، تلك التراتبية تظهر جليّا في السجن، فليس هناك سجان وسجين فحسب، ولكن هنالك أيضًا سجين تحت رحمة سجين آخر، فحتى في الجحيم يتسيد البعض على البعض ويفرض الأقوياء بطشهم، وإرادتهم على الضعفاء، وأنا كنت مُطالبا بأن لا أسقط في هذا الوضع المخل بكرامتي، لأنه بات واضحا لي أنه إن سقطت سأصبح أكثر حقارة من كوني سجينًا يمضي وقته بين تلك الجدران الأربعة الصماء. سأصبح عبدا لشخص آخر.

كان العنف ضروريا كي لا أصبح مثل الذين رأيتهم خاضعين في السجن، وبذلت قصارى جهدي كي أشعرهم بقوتي التي لا تلين وقد تركوني لحالي منذ اليوم الذي تصارعت فيه مع أول من حاول أخذ غطائي مني، وكدت أقتله بالضرب، وقد تركته مسجى على الأرض ينزف دماً، ومن يومها شعرت بأن رسالتي وصلتهم جيدا فلم يقترب مني أحدٌ بعدها.

صرت بعد سنة واحدة قويّا جداً، يخافون مني ويحترمونني في نفس الوقت، شعرت بأنه مع هؤلاء لا حاجة إلى الكلام أو الحوار، هم مصنوعون على شاكلة واحدة، القوة لوحدها ما يحدث فيهم الأثر المنشود، وتنقص من عنفيتهم نحوك، لا أدري من أين جاءتني تلك القوة في البداية، لكنها بالتأكيد نبعت من داخل نفسي لا غير، شيء لم أفهمه جيدا، ولم أحاول شرحه لنفسي كذلك، والأكيد أنه المكان الذي إن لم

تصبح فيه قويّا فستكون ضعيفًا، ومن الأحسن لأمنك وسلامتك وبقاءك على قيد الحياة أن لا تكون في جهة الضعفاء فلا أحد سينقذك مما ينتظرك من هوان وبؤس، وعنف شديد.

حاولت نسيان كل شيء، نسيان الناس الذين عرفتهم من قبل، حتى افراد عائلتي طلبت منهم أن لا يزورونني، ورسائل وردة سنان التي كانت تصلني في الشهور الأولى بانتظام تركتها على جنب، ولم أعد اقرأها بالمرة، كانت تذكرني بحماقتي وبندمي على بطولتي الوهمية حينما قمت بفعلتي تلك، حتى أرسلت لها رسالة أخبرتها فيه بأنه من الأفضل أن تهتم بحياتها، وتنسى وجودي فوق هذه الأرض، لأني أنا نفسي نسيته، ولم يعد يهمني كثيرا إلى أين ستمضي الأشياء، فأنا في السجن، في ذلك المكان المظلم من هذا العالم، حيث للحياة شروطا مختلفة وقوانين أخرى تضبط الحركة، ولا داعي للتمسك بأحلام باطلة فهنا لا شيء غير الكوابيس القاتلة، وحكايات العنف اليومي المتكررة.

أربع سنوات كانت كافية لتخلق حياة أخرى، وضعًا جديدًا يجب التعامل معه بشكل مغاير عن ذلك الذي تعرفه في حياة عادية وطبيعية..

في سنتي الثانية أصبحت أمارس الرياضة، وأقرأ بعض الكتب العلمية دون أن أعرف لماذا العلمية بالذات هي التي كانت تستأثر باهتمامي، ولكن كانت فرصة لشغل الذهن بقضايا لا علاقة لها بالسجن، حيث أن كتب العلم تفتح فضاءات واسعة في ذهن الإنسان تبعده عن منقطته الصغرى التي يعيش فيها..

كما بدأت رغم أنفي أختلط مع بعض السجناء، بعض الشباب الذين يقاربونني في السن، كنا نتشابه في أننا ضحايا سياق واحد دفعنا إلى مصير كهذا الذي وجدنا أنفسنا فيه، تعرفت بالأخص على ذلك الذي كان مسجونا بتهمة قتل فتاة كان يحبها، وهو ما جعلني أسأله

أسئلة كثيرة: كيف وصلت إلى قتلها؟ فكان رده الوحيد: الغيرة، وعندما وجدها مع شخص آخر لم يستطع تقبل ذلك فقتلها بسرعة، ومن دون تردد، كما أخبرني بأنه لم يندم على فعلته تلك.

كان في الثانية والعشرين من عمره ذا جبهة عريضة ووجه سمين، ولكنه كان يوحي بأنه في الثلاثين، أو أكثر لضخامته الجسمية، وكان يتحرك بطريقة عسكرية في فناء السجن، ولا يحب عندما يتحرك أن يتكلم أو يقترب منه أحد، ولا أدري لماذا تكلم معي مرة، وقد سألني إن كنت أملك "راديو" فلقد كان يُريد سماع أغاني شعبية، أخبرته بأني لا أملك، ووعدته أن أهديه واحدًا حالما أحصل عليه، ومن يومها صار كأنه صديقي، يكلمني من حين لآخر، ويعترف لي بنواحي ضعفه من مثل أن الجريمة الي ارتكبها تؤرق لياليه، ولا يقدر على النوم وهو يريد أن يقتل أشخاصا آخرين حتى ينتقم من كوابيسه المزعجة.

كان اسمه كريم، وهو الذي عرفني بعدها بشاب آخر اسمه رشيد، وقال إنه متدين، ودخل السجن بسبب دعوته الدينية، عندما تحدث مع رشيد أول الأمر لم أجد فيه ما ينبيء على أنه شخص مختلف عن غيره، عدا لحيته الكثة الطويلة، وطريقته المنظمة في الحديث، وهو يستعمل العربية الفصحى واستشهاده بالقرآن والحديث، وعندما كان يتلو على مسامعي القرآن الكريم كانت دموعي تنزل لوحدها، وتحدث تلاوته هتذه في داخلي تأثيرا كبيرا، ومرات أردد مع غيري "الله أكبر.. الله أكبر" وبعدها بسرعة صرت أصلي مع جماعة يقودها، وهو ما اعتبره فتحا مبينا، ونعمة من الله أن نجد طريقنا حتى في السجن.

وجدت طريقي مع هذه الجماعة فصرت مُلازما لها، كانوا أحسن من المجرمين الآخرين الذين لا حديث لهم إلا النساء، والجنس، أو الجرائم التي ارتبكوها. مع جماعة رشيد كنا على عكس ذلك نتحدث

في أمور أهم، ونعمل على تنقية أنفسنا من الشوائب الدنيوية، والصعود بها إلى أماكن علوية.

أظن تعرفي على الأخ رشيد كان أحسن ما حدث لي خلال هذه الفترة من السجن، فأمور كثيرة تغيرت بداخلي، ولا أخفي أني صرت أشعر براحة نفسية، وطمأنينة كبيرة، وصارت الصلاة التي لم تكن تعجبني من قبل، وتلاوة القرآن في كل وقت تعطياني إحساسا رائعا بالسعادة التي لم أكن شعرت بها من قبل.

حتى جاء ذلك اليوم المشهود.

لم نكن ندري ماذا حدث خارج السجن، وكنت أقضي داخله سنتي الرابعة، وصلتنا أخبار مشتتة عن انفجار شعبي مهول وقع في الجزائر العاصمة، ثم بدأنا نعرف من الشباب الوافد إلى سجننا ما حدث بالضبط، لقد انفجر الشباب العاصمي، وحطم كل شيء، البلد في حالة غليان وغضب، وهذا ما جعل الأخ رشيد يقول لنا:

"أظن جاءت ساعة الحق، وسنصدح بها."

لم أتصور انه بفعل تلك الأحداث سوف يسرعون في تسريحنا من هذه اللعنة التي صارت بيتنا الوحيد، ورغم أنه كان قد بقي لي عشرة شهور من حكمي، قالوا لنا: إعفاء حكومي.

جاء ذلك كمحاولة من السلطات إظهار حسن نيتها تجاه الشباب الذين قتل العديد منهم في تلك الانفجارات المتعددة، فرحت كثيرا، وتواعدت مع الأخ رشيد الذي لم يكن من بين من افرج عنهم، على اللقاء قريبا، وهو أوصاني بأن أبقى على العهد والأمانة.

شكرته على حسن ظنه بي، وخرجت من السجن مبلبل الخواطر، يومها كانت الشمس مشرقة، والسماء صافية، وبدت لي الحياة مثل الحرية جميلة جدًا.

لم أفكر في العودة بسرعة إلى حيّ "مارشي أتناش" بل كل ما رغبت فيه هو التمشي فقط، تذوق تلك النعم الصغيرة التي لا يشعر بها إلا من عاش أربع سنوات في السجن بين جدران صماء، لا تحن ولا ترق.

مشيت دون أن أتعب، فالنشوة كانت مشتعلة في الصدر، وهي تحرك الجسم بطلاقة حيث تريد، ولقد شكرت الله وحمدته أن فتح عليّ بهذا النصر المبين، ولهذا توجهت إلى مسجد "الجامع الكبير" بساحة الشهداء، وصليت فيه عدة ركعات، ودعوت الله أن يفتح لي أبواب رحمته، كان المسجد ممتلئا بالشباب الذين يرتدون أقمصة بيضاء، لديهم لحى طويلة، والكثير من الرجال الذين عادوا من كابول وقندهار بلباسهم الأفغاني المميز، يتحلقون جماعات صغيرة، يتكلمون فيما بينهم، أو يستمعون لبعضهم، فرحت بمنظهرهم ذاك، وشعرت كما لو أن حالتي التي ظننتها فردية صارت جماعية في بلدي، وأن هذا يعني أن الطريق لتحقيق الحلم صار واقعا لا يمكن رده..

صحيح أنه أثناء سيري التجوالي ذهبت إلى كورنيش باب الواد، وبشكل خاطف مرقت تلك الصورة، وأنا مع وردة سنان منذ أربع سنوات خلت، وكيف كنت أطير بجناحين خافقين من السعادة والحب، وكيف أن الظروف شاءت في ذلك اليوم أن تغير مساري كله إلى طريق آخر مؤلم وحزين، لكن قدر الله، وما شاء فعل، فلقد كان كل ذلك سببا لأتعرف على الأخ رشيد مُصلحي الروحي كما سميته حينها، وفرح بتلك التسمية أيّما فرح.

إن الزمن متحدا مع السجن كاف لتغيير حتى جلودنا التي تتآلف مع القسوة، والخشونة، أما القلوب فهي تذهب إلى عزلتها الصامتة، وتبقى تنتظر خروجك منه لكي تنفجر لوحدها رقراقة كمياه نهر عذبة وصافية.

عدندما عدت لحيّ "مارشي أثناش" وقفت متأملا كل تلك الأزقة، والمساحات، والعمارات المتداخلة في بعضها، وأنا أسترجع ذكرياتي الطفولية، وأصدقائي الذين كنت أسرح معهم وألعب، ومراحل صعبة قاسيتها بعد موت أختي رشيدة، وابتسمت لذلك كله، فالقلب انفتح على نور الله، ومن يعطه الله نوره فلقد منحه السعادة الأبدية والخلود.

بيتنا لم يتغير من الناحية الشكلية، لكن أهلي تغيروا، وعندما رأوني صرت مثلهم فرحوا بذلك، وأسعدهم لقائي، وأشعروني أني صرت الآن جزءاً من هذه الخلية التي يجمعها الدين، وتوحدها التقوى.

كما أخبرتني أمي: والدي هو الذي فتح الطريق للجميع، حين أصبح سلفيا، وارتدى القميص الرمادي، وسروال نصف الساق، ووضع الكحل على عينيه، وأسدل لحية طويلة، وتعطر بالمسك، فصار كالنور المهيب الذي يخيف الظلمات، وسار على طريقه إخوتك بعدها، واحدا وراء الآخر، وهُم الآن عناصر في "جبهة الإنقاذ" التي ستخرج بلدنا من الكفر إلى الدين، أما أخواتك البنات فلقد تزوجن بعد أن لبسن الحجاب، والنقاب من متدينين صالحين، ونحن والحمد لله بخير.

سألوني عن حياتي في السجن، وسألتهم عن الحيّ وناسه، وراحوا يحكون قصصا كثيرة عمن تغير، وعمن يتبع "الطاغوت"، وصار تقسيم الناس واضحاً هذا معنا، وهذا ضدنا، والحياة منقسمة بين من يُريدها دولة دينية، ومن يرفض ذلك.

قضيت تلك الأيام أتنفس فرحة الخروج من السجن، والعيش بحرية، وإن لم أسأل عن وردة سنان فلأني سمعت ما جرى لها من مؤذن المسجد الذي كان يعرف كل أخبار الحيّ، وما يجري فيه، فأخبرني بأنها

دخلت الجامعة، وتخرجت من معهد الإعلام والصحافة، وتعمل صحفية في جريدة مستقلة، وعرفت أنها لا تأتي لزيارة والدتها إلا مرة أو مرتين في الشهر، ومن باب الفضول اشتريت تلك الجريدة لأقرأ ما كانت تكتبه فهالني أنها تنتقد المتدينين، وسلوكاتهم، وتقول إنهم يريدون تأسيس دولة معادية للحرية والحقوق، وإن المرأة في هذه الدولة لا قيمة، ولا مكانة لها إلا أن تكون زوجة صالحة في البيت تعمل على رضا زوجها وتربية أبنائها.

تأسفت وتعجبت أنها اختارت هذا الطريق، بينما أنا ذهبت في طريق آخر غير ذلك.

التقيت بشباب الحارة الذين لم أكن أعرف إلا قليلهم فأثنوا على تجربتي تلك، وأن السجن أفادني في إصلاح قلبي وتربية روحي، ولم يفسدني كما يفعل عادة مع المجرمين، ووجدت أن أغلبهم صار ينتمي للجماعة، رغم اختلاف الجماعات حينها، بين من يريدون تدينا حرفيا لا تشوبه شائبة، وعودة للحياة التي عاش عليها الرسول الكريم، كانت الجماعة الغالبة هي التي تريد أن تصل بالدين إلى سقف العرش بقلب كل شيء على عقبيه، وكانت فترة حالمة بالنسبة لهؤلاء، وأولئك، والناس تسير خلفهم، أو تتبعهم كموجة غامضة تأتي من مكان بعيد في البحر وتجرف معها كل ما تجده في طريقها..

لم أنظم مع ذلك لأي جماعة، ولكن الذين كانوا يريدون تحقيق حلم الدولة الدينية من خلال حزب "الإنقاذ" اتصلوا بي، بل كانوا أول من جاء ليهنئني بخروجي من السجن، واعتبرت ذلك بادرة حميدة من طرفهم، وبعدها أرسلوا لي شخصا أخبرني بأن هناك من يريد أن يتكلم معي في مكتبه، فقبلت الدعوة من باب الاستماع حتى لا يفهم من سلوكي أني نافر من الجماعة ومذهبها، وعندما ذهبت لمكتبه،

وجدت شخصا عرفته بسرعة، وكان صديقي في الصغر فرحب بي أيما ترحيب، وقال بسرعة:

- أعرف أنك تفاجأت.
- نعم صحيح.
- نعم هدانا الله لطريقه الصحيح.
- الحمد لله.
- بوركت أخي، كنت دائما في البال، لكن أعذرني لم أزرك في السجن، لم يكتب لنا اللقاء حتى الآن.
- لا بأس، حتى أنا قبلت ظروفي تلك، ووكلت أمري لله.
- هل تعرف؟ لقد حدثني عنك الأخ رشيد، وقال لي إنك نِعم الأخ، وإنك مصدر ثقة، ورجل شجاع، وبك سينتصر الإسلام ويسحق أعداءه المجرمون.
- آه، الأخ رشيد إنه إنسان روحاني، وبفضله تعرفت على الطريق الصحيح، لولاه لبقيت أعيش في جاهليتي الحمقاء دون هدف.
- ولهذا نريدك أن تكون معنا، نحن بحاجة إلى الأخيار بين صفوفنا، ولرجال شجعان، وأنت والحمد لله لا ينقصك ذلك.
- شكرا لك، أنا في الخدمة.
- نعم نريد حملة لترويع المفسدين في الحيّ، كما تعلم، لا يزال هناك مراكز للفسق، والشر، تفسد على الناس دينهم، ونحن لا نستطيع أن نصمت على هذا طويلا.
- ماذا تقصد؟
- فكرنا جيدا، وقلنا إنه حان الوقت لنرعب أعداء الله ورسوله، فلا حل إلا بتطهير المجتمع من هؤلاء المفسدين ليفهموا أننا لسنا مثلما يظنون نخافهم، ونحذر منهم.

- ولكن ألن يؤثر ذلك على صورتكم، وأنتم متهمون في الصحافة بأنكم تعادون الحريات والحقوق.
- إنهم أصدقاء الطاغوت يا أخي، وهم يروجون للإشاعات والأكاذيب، لأنهم يعرفون أننا سننتصر عليهم في الانتخابات، ونحقق دولتنا التي نريدها.
- وما المطلوب مني؟
- أنت كما أخبرنا الأخ رشيد تملك شجاعة في المواجهة، ونريد منك تأسيس خلية من الشباب الذي لا يخاف لتأديب الكافرين والفُساق.

شكرته على حسن ثقته بي، ووعدته بأني سأفكر في طلبه، ولم يمر إلا يومان حتى قبلت طلبه ذاك، خاصة وأنه عرض أن يكون ذلك بمثابة عمل أقوم به، وأتلقى مقابله راتبا شهريا، ومكافآت مالية على كل إنجاز نحققه في الميدان.

كان ذلك كافيا ليجعلني أقبل بالمهمة دون نقاش كبير فلم يكن بحوزتي أي شيء أعمله حينها، وقد قضيت كل تلك السنوات في السجن.

في الأسبوع الأول اخترت جماعتي التي شعرت أنها يمكن أن تقوم بهذه المهمة، وكان سهلا عليّ إقناعهم بالفكرة، والدور الذي سنقوم به في سبيل نصرة شريعة الله على الأرض، وكانوا شبابا متحمسين، وبعضهم كان مثلي قد دخل السجن، وخرج منه، ولم يكن له عمل يقتات منه فكانت الفكرة أكثر من مرضية لهم، حتى وإن وجدت من يقول لي إنه سيفعلها مرضاة لله لا غير، فتوكلنا على الله، ومررنا على بعض الخمارات، وتركنا رسائل تهديدية وكذلك على بعض بيوت نساء كنا نعرف أنهن يستعملنها للدعارة، وقدمنا لهن النصيحة في البداية ممزوجة بالتهديد حتى يتوقفن عن مخالفة تعاليم السماء.

قمنا بدوريات ليلية كذلك لمنع الشباب الطائش من تناول المخدرات، أو الاعتداء على سكان الحيّ البسطاء، تحولنا بسرعة إلى أمن حقيقي، حتى صاروا يسموننا بالشرطة الإسلامية، وكان يفرحنا ذلك، والناس تُبارك لنا ما نقوم به، وتشجعنا على ذلك، لأن الشرطة الحقيقية لا تهتم بتربية المجتمع، أو مساعدة سكان الأحياء الشعبية على التغلب على ما يهدد أمنهم.

كنت أنتظر مع ذلك أن تأتي الشرطة لتوقفنا عن هذه الأعمال، فلقد ضايقنا بعض التجار المفدسين وهم لا شك يملكون معارف هنا أو هنالك، لكن لم يحدث ذلك، لسبب أجهله، كأن عملنا كان يخدم هدفهم دون أن نعرف، لكن مرة واحدة فقط اتصل بي شخص، يرتدي بدلة أنيقة وطلب رؤيتي، وقدم نفسه على أنه ضابط شرطة، سألته ماذا تريد؟ فأخبرني بأنه يعرف ماذا نفعل، وهو مخالف للقانون، لكن سنغض البصر عما تقوم به، لكن حذرني من الاقتراب من بعض الناس وقدم لي قائمة فيها الكثير من التجار وكان من بين تلك الأسماء، اسم عاهرة تدعى شكيرة.

أخبرته بأننا نقوم بدورنا الأخلاقي. فضحك مستهزئا، وردد عليّ ما قاله لي، ثم تركني وانصرف، فاتصلت بالأخ الذي يدير مكتب الحيّ، وأخبرته بحديثي مع ذلك الضابط، فقال لي:

- حسنا يبدو أنه يعمل في الأمن السري، ومع ذلك لا داعي لمواجهتهم الآن سيأتي دورهم لاحقاً.

كانت الأيام تتسارع، وجبهة الصراع تزداد توسعًا، ومساحات الفرقة والبغضاء تكبر بيننا وبينهم، لكن شعرت دائما بأني أقوم بدوري على أحسن ما يُرام، وحتى الخلية الصغيرة التي أنشأها سرعان ما بدأت تستنسخ في كل حيّ من أحياء مدينة الجزائر العاصمة، حتى صارت

موجودة في كل مكان تقريباً، لم أكن أعرف قيادات جبهة الإنقاذ حينها حتى عقدوا مؤتمرا كبيرا أوكلوا لي مهمة الإهتمام بالجانب الأمني، ووجدتني فجأة أقود عشرات الشباب المعبئين بالعقيدة، المشحونين بمهمة سماوية، وأوجههم إلى الأماكن الحساسة التي يجب أن تُحرس حتى لا تخترقنا أي قوة أمنية خارجية.

كانت تلك فرصتي لألتقي بالقيادات الكبرى، وبرجال مدربين أحسن مني كان أغلبهم قد شارك في حرب المجاهدين الأفغان ضد الروس، وعادوا إلى الجزائر أكثر حماساً وعزيمة، وكانت لهم معرفة بالأسلحة والتخطيطات، وشكروني رغم ذلك، معترفين أني أملك موهبة حقيقية في الحراسة والأمن، وأنه يجب أن ألتحق بخلية أهم في الجبهة من أجل ذلك.

في ظرف سنة فقط وجدتني في أعلى هرم القيادة، وهذا ما شجعني على الإخلاص أكثر في تأدية مهامي، وكنت أقدر كيف فتح الله الطريق لكي أكسب رزقي بعرقي، ولكي أؤدي هذا الدور المهم في صناعة تاريخ جديد لبلدي، وأمتي التي صرت مقتنعا أنها إن لم تنتهج شريعة الله ورسوله فلن تحقق أي نصر، وصار عدائي أكبر للحكومة الطاغية، وللكفار الذين ينتهجون طريق الأجانب في الحياة، ويتصورون أن ذلك هو النهج الصحيح لتحقيق التقدم..

قائد الخلية الذي اسمه قادر كان يركز في حديثه معنا على عنصر الحذر في كل الأوقات حيث يقول:

"نحن في مواجهة جهاز عسكري قويّ جدا، وخبيث للغاية، ونحن لا نأتمنهم حتى لو أظهروا عكس ما يبطنون، فنحن نعرف أن عدم تدخلهم في شؤوننا اليوم ليس إلا طريقة لكي يفهموا قدراتنا واساليبنا في العمل، لهذا يجب أن نبقى على حيطة من أمرنا، ربما هم يختبرون

قوتنا، أو يكيدون لنا في الخفاء، ويجب أن نجهز أنفسنا لأي طارئ فإن حققنا ما نريده نجحنا، وإن لم يتركونا نصل إلى لحكم فنكـــون علـــى استعداد تام للجهاد في سبيل الله".

ظننت أن كلمة "الجهاد" لن تكون ضرورية أبدًا في ذلك السياق فجبهة الإنقاذ كانت محصنة برجالها المخلصين، والشعب الجزائري الذي يتقبلها لتغيير جذري وكبير، وحتى بخلاياها الأمنية التي تشكلت علـــى مدار هذه الأيام كانت منضبطة، وتعمل بروح أخوية كبيرة وبإخلاص مشرف، وقلت في نفسي إن الأخ قادر كان يُبالغ نوعا ما عندما يتفوه بذلك الكلام الكبير، لكن لم يكن من جانبـــي إلا تقـــديم مراســـيم السمع والطاعة، وتطبيق ما يوكل لي من مهام دون نقاش، أو إعتراض، فذلك هو العهد الذي قطعته على نفسي مع الأخ رشـــيد أول مـــرة، وسأبقى عليه حتى أرحل عن هذه الحياة.

الفصل السادس

ما كان يتوقعه القيادي قادر وقع بالفعل، لم تكن السلطات تريد أي فوز للإسلاميين فجرهم للمواجهة معها وتحديها، ووقعو في الفـــخ، أقول هذا الكلام الآن لأنه في تلك اللحظة كنا نعتقد أننا الأقوى، فهم لا يملكون إلا الجيش والأمن، أما نحن فكل الشعب معنا، كل النـــاس تريد أن يسقط هذا النظام، وسيقفون وقت الحقيقة في صفنا، لم نحسب حساب الآخرين، وحتى قادر كان يســـخر مـــن كمشـــة المـــثقفين والصحفيين الذين ينتقدوننا ويقول:

- هؤلاء الكلاب سيدفعون الثمن غاليا.

تجهزنا بشكل جيد لكي نخوض حربا داخلية مع كل من تسول له نفسه الكلام عنا بسوء، وكل من يخالفنا الموقف أو الرأي هو عـــدونا بالضرورة..

أتذكر تلك الليلة التي اتصل بـــي خلالها قادر، وكيف أنســـاها، وهي الليلة التي طلب مني أن أنفذ أمرا بالقتل، الحق كنـــت مُســـتعدا لذلك، نفسيا تجهزت لشيء من هذا القبيل، وتدربت عليه، في السجن تحدث مع الأخ رشيد في موضوع الاستعداد لقتل الأعداء في سبيل الله، ولقد وقر في قلبـــي اطمئنان عجيب لفعل شيء كهذا.

وعندما جاءت ساعة التطبيق، وقفت حائرا، ليس بسبب تنفيذ القتل، ولكن لأنه كان يجربني حقا، وهو يأمرني أن أجْهِـــزَ علـــى تلك الصحفية الكافرة وردة سنان التي لا تتوقف عن سبنا في مقالاتها كل يوم.

استخرت الله، وصليت حتى منتصف الليل، وقرأت ما قدرت على قراءته من قرآنه الكريم، ثم عندما بلغت الساعة الثالثة ليلا توجهت إلى حيث تُقيم، كانت مخابرات جهازنا السري قد أعطتني كل المعلومات اللازمة عن أماكن إقامتها، وعرفت أنها تبيت تلك الليلة عند شيوعي في بوزريعة، وبيته يعتبر ملجأً يختفي عنده هؤلاء عند الضرورة.

أعطوني أمرا بتصفيتها دون أن يحددوا الطريقة، قالوا فقط إنه نسلط الرعب على قلوب هؤلاء الصحفيين التابعين للنظام فيعتبروا من ذلك، أو يصمتوا نهائيا، فوعدتهم بحسن التنفيذ..

لم أكن قد رأيت وردة من سنوات خلت، أهملتها داخل صفحات الماضي الجاهلي الذي طلقته نهائيا، حياتها تغيرت، وحياتي كذلك، لم يعد ما يجمعنا في النهاية، هي ذهبت في ظلامها، وأنا في نوري، وحان الوقت لنتقاطع من جديد.

سخرت من عبثية الحياة، وأنا ذاهب لقتلها، هي التي أنقذتها ذات يوم من الضرب، ودخلت من أجلها السجن حتى تُكمل أحلامها التي كانت ترفرف خفاقة بين جنبات صدرها، ها أنا الآن قادم لإطفاء تلك الحياة التي ساعدتها على أن تستمر ذات يوم.

وصلت إلى البيت، بقيت أراقب حتى أعرف إن كان المكان محروسًا أم لا، فلم أجد ما يثير الريبة، الشيوعي العجوز ينام باكرا، وهي تختفي في غرفة فوق السطح، كل شيء كان سهلا حقيقة للاقدام على ما جئت من أجله، وحتى لم أكن بحاجة أن أفتح الباب، كان عليّ تسلق شجرة كرمة، وأجدني على سطح الفيلا ذات الطابقين، وأرى غرفتها التي كانت مضيئة.

هل كانت مستيقظة حتى ذلك الوقت المتأخر من الليل؟ هل شعرت بدنو أجلها فلم تنم؟ أم تراها تكتب شيئا تنفث فيه حقدها

علينا، وتصورنا بأبشع الصور اللعينة، ماذا فعلنا لها حتى تقول عنا كل ذلك الكلام المشين، وتظن أنها بذلك تدافع عن حرية المرأة، وحقوقها، أليست حريتها وحقوقها تكمنان في هذه الشريعة السمحاء التي أنصفتها، وجعلتها مكرمة ومقدسة عندنا.. تبا لها سأقتلها دون ندم، سأنفذ فيها شرع الله دون تردد " الله أكبر...الله أكبر".

ثم تقدمت، وضربت الباب الخشبي بأسفل حذائي فانكسر، ووجدتها ممددة على السرير تقرأ كتابا. اندهشت، وهي تراني أدخل عليها بذلك الشكل، فتحت عينيها واسعًا، وبقيت تحدق في، عرفتني حتما، رغم أن لحيتي صارت تغطي بكثافتها نصف وجهي، شاهدت الخنجر في يدي اليمنى، وعزيمتي المملوءة شررا، شاهدت كل ذلك في نظرتي القاسية والمشحونة وقدرتي على تنفيذ ما جئت لأقوم به، تصورت أنها ستصرخ حينها، ستستغيث كما يفعل الضحايا قبل أن يسافروا إلى العالم الآخر، لكنها بقيت صامدة، وتنظر إليّ بتحد وصلابة استفزتني في النهاية، وجعلتني أتقدم منها مُسرعا لأقوم بالذي جئت لأجله، سحبتها من على السرير دون أن تبدي أي مقاومة، بقيت عيناها متربصتين بعيني كأنها تقول لي "أقتلني أيها النذل فلن أتضرع لك، لن أتخاذل أمامك أيها الجبان" بضربة واحدة من الخنجر فتحت رقبتها، وسال دمها على جسمها، ولطخ ثيابي أنا كذلك ثم خرجت روحها، وهمدت أنفاسها، واستكانت لموتها..

وضعتها من جديد على السرير جثة هامدة، وأنا أتجنب نظراتها التي بقيت متحدية، وكأنها ترمقني حيثما أتحرك، حيثما أدير رأسي، أو أخفيه، كأنها لا تزال حيّة، وتضطهدني بتلك النظرات القاسية، والمشتعلة بالحقد، والثأر، والإهانة.

ثم وقعت بدمها فوق إزار أبيض، كتبت عليه ما أمرت بتدوينه، وانصرفت عائدا إلى المخبأ الذي وفروه لي كي لا أقع في يد الأمن..

شكرني القيادي قادر في الغد على انجازي للمهمة بحرفية عالية، وأثنى على شجاعتي وقوتي الروحية، وقال أننا نحتاجك أيها المغوار في معركتنا الطويلة مع هؤلاء الكفار الفسدة.

منذ أن نفذت تلك المهمة حتى صار القتل بالنسبة لي سهلاً، وكنت أنفذ ما يأمروني به دون نقاش إلى أن بدأت الحرب العاصفة بيننا وبين السلطة فطلبوا مني الصعود إلى الجبل حيث الجيش المنقذ ينتظرني هنالك.

تركت تلك المدينة في صباح باكر داخل سيارة أخ يعمل في الشرطة، وكان يعطينا المعلومات، ويسهل كل حركاتنا، أوصلني إلى منطقة بوفاريك ثم تركني هنالك لتأخذني خلية صغيرة إلى البليدة، ومنها إلى تابلاط، ثم عبر رحلة جبلية عسيرة إلى أحراش البويرة حيث تجمعهم الرئيسي.

سألني أميرهم الكبير، وهو يتأمل وجهي جيدا:

- أخبروني أنك نحرت منهم الكثير.

قلت بصدق:

- نعم وفقني الله لذلك.

- كم عددهم؟

حاولت عبثا تذكر عدد الذين قتلتهم بعد تنفيذ أول مهمة لي فلم أذكر، قلت له:

- عددهم كثير، والحمد لله.

ظننت أني سأمكث في الجبل كل ما تبقى لي من عمر، لكنهم ظلوا يرسلونني في مهمات كثيرة إلى العاصمة، وكنت أقوم بها دون

نقاش حتى جاءت العملية الأخيرة التي عرفت أنني لن أعـــود منـــها سالماً.

كانت السيارة المفخخة جاهزة، وكان معي شاب في مقتبل العمر قرروا أن يشركوه في آخر لحظة، كان يضحك غير مبالي بموته القادم، وقد طمأنني هذا في العملية فأنت تشعر بأنك تقاتل مع أناس يرغبون في الموت، ولايهتمون بمصيرهم، لأن أعمالهم هذه ستكون في ســـبيل الله، وكل شيء يهون من أجل هذه الغاية..

تحدث لنا الأمير قادة ليلتها عن معنى العملية التي ســـنقوم بهـــا، وأهميتها، وكيف أنه بهذه الضربة الموجعة سنهدم أوكار العنف الأمني، ولن تقوم لهم قائمة بعدها، وسندخل في قلوبهم الرعب الذي لن ينسوه أبداً.

قرأت القرآن ليلتها، ولم أستطع النوم حتى جاء الصباح، فخرجت من غرفتي، وتغسلت وتطهرت، وصليت ثم ارتديت ملابسي، وتوكلت على الله، ركبت السيارة المفخخة، ولحقني الشاب بعدها، وسرنا بهـــا حتى وصلنا إلى شارع عميروش، كانت الساعة تشـــير إلى العاشـــرة صباحا، كانت الشمس مشرقة، والسماء صافية، والشارع مزدحما على آخره، بالسيارت والناس الذين لم يكن يتوقع أحد منهم ماذا سيقع لـــه بعد قليل، كنت أنا الذي أقود السيارة، وكلما اقتربنا من مركز الأمن رحت أنطق بالشهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" حتى وصـــلنا إلى المكان، فأطلقنا أنا والشاب صـــرخة واحـــدة "الله أكـــبر" وحـــدث الإنفجار..

الهادي بن منصور

الفصل الأول

عدت من بلغاريا إلى الجزائر بعد غربة طويلة دامت سبع سنوات حيث أرسلت للدراسة في بعثة طلابية تتكون من ثلاثة أفراد لدراسة السينما، والتخصص في الإخراج السينمائي. ذهبت عام 1979، وعدت عام 1986.

عدت لحي "مارشي أتناش" الذي وُلدت فيه، وقضيت طفولتي بين حدوده، وتعلمت في مدرسته الابتدائية، والمتوسطة، وفي ثانوية الإدريسي القريبة منه حتى دخلت الجامعة ثم جاءت الفرصة للدراسة في الخارج فقبضت عليها بكل عطش وشغف، فلم يكن عندي الشيء الكثير لأفعله في هذه البلاد التي نشأت فيها، وكذلك لأن السينما كانت بمثابة مشروع حياتي الذي نذرت نفسي له..

توفي والدي قبل أن أرحل بشهرين، ولحقته أمي بعدها في ظرف أقصر لم أكن أتوقعه قصيرا للغاية، فأمي كانت تعيش حالة نفسية معقدة، جراء ماضيها اللعين، وأبي كان يشعر في داخله بالاضطهاد كما لو أن كل ما كان يقوم به من عمل وجهد يحدث أثرا عكسيا على نفسيته.

لقد تركاني وحيدا حينها، وحيدا إلا من ذكريات كثيرة لم أكن أرغب في أن أسجن بداخلها، وهكذا عندما قرأت اسمي ضمن قائمة البعثة الطلابية لم أتردد للحظة واحدة في تحضير نفسي للذهاب، وها أنا أعود رغم أني فكرت طويلا في الاستقرار في أي دولة أوربية بعيدًا عن كل ما يربطني بذلك الماضي الحزين، وذكرياته السوداء القاتلة.

وجدت البيت الذي آوى طفولتي مهجورا وحزينا للغاية، وكان متوقعا أن ألقاه فارغا من أي صوت، أو حركة لكنني كنت متأكدا أنني عدت شخصًا آخر، بأحلام أخرى، وأني بشكل ما قدرت على تحقيق ذلك الطلاق العنيف بيني وبين ما كان يعيق رؤيتي للماضي بصورة مشرقة وصحيحة.

عُدت اليه بشغف المحب الذي يريد أن يلتصق بمحبوبته أطول عمر ممكن..فلقد كان هذا البيت يختصر حياتي الأولى، تلك التي لم أنسها قط، وحياة والديّ الصعبة، كما كان يمثل كل الذكريات التي بقيت منقوشة في كل جزئياته الصغيرة وجدران غرفه الكثيرة.

إنها الحياة كما يقول الجميع تمنحنا أشياء، وتأخذ منا أشياء، وما على الناس إلا تقبل ذلك بصبر، وعدم التفكير كثيرًا، فأن تُفكر هذا يجعلك تنظر للحياة بسلبية مخيفة ويحرمك من تذوق لحظاتها السعيدة، وفي تلك الفترة من الزمن التي قضيتها بعيدا في الغربة كنت أريد أن آخذ من الحياة ما أستطيع أخذه، وعندما عدت فكرت أن أمنحها ما أستطيعه من خلال الفن الذي أؤمن به، وأراه المنفذ الذي يربطني بأعمق ما في الحياة من جمال ودهشة.

كانت الفكرة الوحيدة التي استولت عليّ بعد استقراري من جديد أن أنجز أول فيلم لي عن "حي مارشي أتناش" والحياة كما يعيشها الناس في بساطتها ويومياتها المعتادة، استهوتني الفكرة بسرعة ووجدت طريقها إلى قلبي وذهني، فالواقعية حتى وإن لم تكن مذهبي الأول في السينما، إلا أنها بدت لي الأكثر تقبلا في واقعي الجزائري الذي يحتاج إلى توصيف وتشريح، ودخول إلى أعماقه الهشة رغم الصلابة التي يتظاهر بها في الخارج، وهذا التناقض بالذات بين ما هو باطني، وخارجي هو الذي فكرت فيه بجدية وعمق.

لكن لو سايرت داخلي كانت هنالك مشاريع أخرى تستأثر أكثر بتفكيري، فالسينما كانت تعني أكثر من رغبة في مواجهة الواقع اليومي للناس بل التعبير عن هواجسي الداخلية العميقة، وعندما كنت ببلغاريا فكرت في مشروع عن الموت، بل كتبت سيناريو بعنوان "رائحة الموت" يتحدث عن شخص يُطارده الموت أينما يذهب، ويكتشف في نهاية الفيلم أنه هو من يُطارد الموت، فينتحر، يضع حدا لحياته بدون حزن، وينتهي الفيلم بصوته وهو يردد: "**لم أكن أريد أن أعيش.. لقد فُرض عليّ ذلك..**"

لكن سيناريو من هذا القبيل كان سيثير سخرية الشرطة الوطنية للإنتاج السينمائي التي كانت تدعم فقط الأفلام ذات البعد الوطني الاشتراكي، رغم أن مرحلة منتصف الثمانينات كان يفشي بزوالها تقريبا، أو بقائها شعارًا لا يطبق منذ رحيل الرئيس هواري بومدين، وجاء عهد الانفتاح مع الشاذلي بن جديد، ولهذا بدا لي موضوع فيلم عن حياة الناس الشعبية موضوعاً سيقبلونه حتماً، أو لن يترددوا في تفهمه على الأقل من باب الواقعية التي يدافعون عنها في السينما تبعا لما قرره الدستور والمواثيق الوطنية آنذاك، أن يكون الفن في خدمة تنمية وتطلعات المجتمع، لقد ذهبت إلى الشركة الوطنية بحماس فياض لأعرض عليهم السيناريو الذي يتحدث عن وقائع حيّ شعبي، مثل أغلب الأحياء العاصمية تقريبا، منتظرا أن يتحمسوا بدورهم لفكرتي، أو لمشروعي الحالم، وأن يفتحوا لي كل الأبواب بعد أن درست في الخارج، وتعلمت بفضل منحة الدولة الجزائرية كل ما يمكن تعلمه من تقنيات الإخراج السينمائي، وفنياته وآلياته، دون أتصور أنني وأنا أطرق بابهم أني سأكون العدو رقم واحد لهم.

لقد حذرني البعض من ذلك، وهم يقولون:

"إن لم تكن تملك واسطة فلا داعي أن تتعب نفسك."

تعجبت بعض الشيء، وأنا أتساءل:

"هل يمكن أن يكون هنالك واسطات في الفن؟"

أجبت نفسي بنفسي:

"في كل شيء إلا الفن."

لكن تبين لي بعد انتظار مزعج، وتأخر طويل العكس تماماً، فقضيت شهورا وأنا أنتظر الرد دون جدوى، فلم يصلني شيء منهم، و لم أستغرب مع ذلك فلقد استقبلوني بجفاء في مكاتبهم كأني جئت أسرق منهم شيئا ثمينا يخفونه في أدراجهم تلك، حتى أهملت الفكرة لبعض الوقت، وتراجعت عن مثاليتي الأولى في أن الأمور ستسير على ما يرام منذ البدء، ورحت أبحث عن مهنة أقتات منها، ولحسن حظي أنني التقيت بصديق لوالدي، أو من يدعي أنه صديق والدي فطلبت منه المساعدة، وأخبرني بأنه يملك حانة قرب المرسى الكبير فاقترحت عليه أن أعمل بها كعازف، فقبل على الفور.

من يومها صرت أعزف على آلة الساكسفون أشهر مقاطع الجاز الشهيرة لبعض فناني هذا النوع من الأمريكان السود بالطبع، وهم الذين سحروني في ليالي غربتي، وكانوا زادي الروحي في ذلك الصقيع البارد أضف إلى ذلك أن الموسيقى كانت تسعدني من الداخل، وتنسيني التفكير في المسائل العويصة التي تواجهني كل يوم وليلة، تلك الحياة التي تصبح كصخرة ثقيلة ترفعها على كاهلك، وعليّ أن أبتسم مثل "سيزيف" المسكين كي لا أتركها تدعسني كاملاً.

نسيت أمر مشروع الفيلم الذي اقترحته حتى جاءتني رسالة قصيرة يطلبون فيها لقائي، ولا أخفي أني فرحت، وأعادت لي تلك الرسالة بعض بارقات الأمل والحلم، بل ذهبت للقاءهم متحمسا ونشوانا،

وعلى خلاف المرة الأولى استقبلوني ببعض الترحاب، ثم أدخلوني مكتبا واسعاً علقت على جدرانه الأربعة بوسترات لأفلام جزائرية قديمة، وبه أربعة كراسي جلسوا هم عليها، ثم تفطنوا إلى أني لا أملك كرسيا أجلس عليه مثلهم، فطلبوا من الحارس أن يحضره لي ثم عندما استتب الأمر سألني أحدهم:

- الفكرة جيدة لكن مستهلكة، ما الجديد الذي ستقدمه؟

وحتى قبل أن أجيب قال آخر:

- السيناريو ينقصه التفاؤل، أنت تتحدث عن الحياة الصعبة، وليس عن الأمل عند هاته الشريحة من المجتمع.

وظننت أنهم يمزحون فقط حتى قال الرابع:

- أظنك تستلهم الواقعية الإيطالية لكن هذه الواقعية سوداوية جداً لا تبعث على التفاؤل.

سألت متدخلا بسرعة:

- هل هنالك معايير محددة لقبول الأفلام؟

فرد عليّ شخص كان يدخن بالقرب من النافذة، ويتأملني بعناية مركزة، كما لو أنه مُحقق شرطة يبحث عن المجرم، وليس الفنان بداخلي:

- ليس هنالك معايير مُحددة، ولكن أنت غير معروف في الساحة السينمائية في بلدنا، لا نعرف عنك إلا أنك تخرجت من معهد سينمائي بلغاري مجهول، وهذا يعني أنه من الصعب أن نضع ثقتنا فيك بسهولة، وندفع لك أموالا من خزينة الشعب لإنجاز فيلم لا نعرف قيمته الحقيقة.

أخيرا شعرت بأنه يجب أن أتكلم، وأقول شيئا فقذفت جملة واحدة من لساني:

- لكي تثقوا بـــي عليكم تجريبـــي في العمل.

لكن جملتي نـــزلت كالصاعقة عليهم، ورد عليّ الـــذي يشـــبه المحقق:

- أموال الدولة لا نرميها هكذا؟

فلم أجد ما أقوله بعدها، وظننت بسرعة أن اللقاء سيتحول إلى فيلم أورسن ويللز "المحاكمة" المقتبس من روايـــة كافكـــا فقلـــت متحديّا:

- لا أدري لماذا دعوتموني، هل لتخبروني أني عاجز عن القيام بما أنا قادر على القيام به. هل لتقولوا السيناريو لم يعجبكم؟ أم..

انفجر أحدهم مقهقها، وقام منصرفا من المكتب ثم سرعان مـــا تبعه الثاني، وهو يضحك كذلك، والثالث، ولم يبق إلا المحقق الذي لا أدري لماذا أخفى ضحكته عني، وبقي يتأمل السقف المقشر الطـــلاء ثم قال لي:

- طبعا لم نقرر شيئا بعد، الأمر يخضع لنقاش في مجلس القـــراءة، ولكن سنخبرك بما سنقرره في أجل قصير.

ثم قام هو الآخر من على كرسيه، وتقدم ناحيتي، وفـــتح البـــاب الذي كنت أجلس بالقرب منه، ودون أن ينبس بحرف واحد فهمـــت أنه يدعوني للانصراف.

تركت مبنى الشرطة الوطنية للإنتاج السينمائي غير متفائل، بعـــد أن ظننت العكس، بل زاد ذلك اللقاء من خيبتي، وتمنيت لو لم يدعوني لأني كنت تقريبا صرفت ذهني عن تحقيق أول فـــيلم لي، وغرقـــت في عملي الجديد كعازف موسيقى الجاز بحانة "المرسى الكبير".

***

عدت للبيت مبتئسا، وشربت ما وجدته في ثلاجتي من بيرة، وأنا أطلق العنان لخيبتي كي تصرخ، وأمني نفسي أنها عابرة هذه اللحظات بالتأكيد، وأنه يكفي الفنان أن يشعر بأن ما في داخله سيصمد، ولن يموت، حتى لو تعقبته دوائر الشر، وأحبطته نفوس الأشرار.

يومها لم أفكر أبدا أن شخصًا غريبا سيطرق بابي، ويحييني بعد موت قصير.

فتحت الباب فإذا بها فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، تقف قبالتي، قالت بسرعة:

- اسمي ربيعة.. سمعت أنك مخرج سينمائي، أنا جارتك في الطابق الثالث من العمارة.
- أهلا.. مرحباً.
- الحق لا أدري لماذا جئت أطلب مساعدتك ليس من عادتي أن أتكلم مع أشخاص لا أعرفهم، لكن بما أنك جاري سمحت لنفسي..
- نعم، لا بأس، إذا قدرت على مساعدتك فسأفعل من دون تردد.
- أنا أحلم بالتمثيل منذ كنت طفلة صغيرة، ياه.. كم يسعدني لو أعطيتني فرصتي لأحقق هذا الحلم الجميل.

لم أعرف ماذا أقول لها، وكيف أخبرها بأنهم رفضوا حتى مناقشة فكرة الفيلم، وأني لهذا السبب أصبحت مخرجاً فاشلاً قبل حتى أن أنجز المشروع الذي يثبت ذلك على الأقل من وجهة نظرهم، لكن صمت عن كل هذه الأشياء المريرة، وقلت لها:

- نعم يُسعدني أن أحقق لك هذا الحلم.

فابتسمت، وبقيت ترقب ما أضيف من كلمات لم أجدها في الحقيقة، وفي ذلك الترقب بقيت أنظر إلى وجهها، يا للملاك الرائع، يا للجمال الذي يفتح شهية القلب على الغوص عميقا في حديقة الأنوار العشقية. كان وجهها مساحة من الضوء الذي يبدد غشاوة الظلام بسرعة، وحتى من ناحيتي فقد أشرقت روحي برؤيتها.

بقينا على هذه الحال لبعض الوقت ثم راحت تخبرني أنها تدرس بالجامعة قسم لغة فرنسية في سنتها الرابعة، وأنها تُحب السينما كثيرا، وتحفظ ذاكرتها الكثير من الأفلام العربية، وذكرت لي مخرجيها وممثليها المشاهير وحتى كتاب السيناريو المفضلين لديها، وبقيت تتحدث طويلا دون أن أجرأ على دعوتها للدخول إلى البيت فلقد بقي حديثنا يجري بالقرب من الباب، أنا واقف، وهي واقفة، وفكرت أن أقترح عليها ذلك لكنني تراجعت، لا أدري لماذا، ربما وضعت في ذهني سكان العمارة، وأقاويلهم التي يمكن أن تتسلط عليها في ما بعد، غير أن عدم مبالاتها هو الذي جعلني أتشجع وأسألها:

- ألا تخافين من نظرة الناس للتمثيل؟
- لماذا أخاف؟
- لا أدري، مازلنا مجتمعا تقليديا.
- نعم صحيح، لكن هذا حلمي الوحيد في هذه الحياة لأشعر بأنني حققت شيئا ذا قيمة.
- نعم بالتأكيد

ثم ختمت حديثها:

- لقد أفرحتني بموافقتك على ذلك، أعرف أنك ستجربني بالتأكيد، ولكن موافقتك المبدئية شيء يسرني كثيرا.

وعدتها بأنني سأفكر في الأمر بشكل جيد، وأنني سأخبرها حتما عندما أبدأ في تنفيذ المشروع، ثم سلمت عليّ مصافحة، وهي تغادرني، فبقيت أرقبها من الخلف تنزل سلالم العمارة، لكم كانت رائعة حينها، وهي تقفز كالغزالة، أو الغواية بين الأدراج منتشية بفرحة حلمها ذاك.

تركتني ربيعة مغمورا بالسعادة، وأنا أدرك أن كلمة "سعادة" شيء مبالغ فيه، لكن شعرت بخيوطها تضيء عتمة في قلبي، نافذة يطل منها الضوء على تلك المنطقة المسيجة بالخيالات، والأوهام الكثيرة.

انطباع أوليّ غريب له مذاق ساحر، كنشوة الجعة التي شربتها لأنفض عني غبار الخيبة، شعور جديد يستولي عليّ كما لو أنها أول مرة أشاهد فيها امرأة، تفتح قلبي على مصراعيه ثم تتركه عاريا من دون حصانة، ومنذورا للتيه، والغواية، رغم أنني قد عايشت تجربة سابقة مع سيدة بلغارية، تجربة في الحب، أو هذا ما أوحته لي حينها.

كان ذلك خلال شهوري الأولى من وصولي لذلك البلد الجميل، ولم تكن إلا معلمة الموسيقى في المعهد السيدة "**آنيليا**"..

فمن أول درس حضرته لها، لا أدري كيف عصرتني بنظرتها الشغوفة تلك، ومنحتني ملجأً عاطفيا أنا القادم من بلاد مكبوتة من ناحية المشاعر، تضمر الأحاسيس دون أن تقدر على التصريح بها حتى تتعفن في داخلها وتموت، وكانت "**آنيليا**"هي المفتاح الذي استطاع ولوج هذا المغلق بداخلي..

في البداية لم أشغل نفسي بها كثيرا، فقد كانت مُدرستي، وكنت أعجب بطريقتها في تعليمنا العزف على مختلف الآلات الموسيقية، وهي تشرح لنا كيف أنه قبل أن نتعلم العزف يجب أن نُحب

الموسيقى، مذكرة إيانا بمقولات فلاسفة جعلوا من الموسيقى الفن الأول في الوجود، كما كانت تحكي لنا سيرة موسيقيين موهوبين، متذكرا كيف تختم حديثها "لولا هؤلاء لكانت الحياة بشعة بالفعل". لقد حضرت معها فيلم "أماديوس" الذي يحكي قصة موزار وتأثرت لدموعها التي كانت تنزل كلما استمعت لمقطع موسيقي يعزف، كان في ذلك سحر نوراني لا يمكن شرحه أبداً، بفضلها أحببت الموسيقى، وتفتح ذوقي عليها بشكل غرامي، وكانت هي تدعم هذا الميّل بداخلي، "ومن يُحب الموسيقى من شأنه أن يحب الحياة" كما كانت تقول لي.

كنت أعجب بهذه الطريقة في تحبيب الموسيقى، وجعلها أكثر من فن، بل رؤية للعالم، وفلسفة في تذوق الحياة، لقد كانت، وهي تتكلم، وتتحرك بتلقائية، ترفع يدها، وتنزلها كأنها في أوركسترا، ثم تجلس على طرف مكتبها فتظهر تضاريس جسدها المموسقة هي الأخرى فتخطفني إليها وأنا أشعر بزلزال مهتاج يهزم الكبت الجنسي العنيف، وما كان يزيد من ذلك التوتر الغامض للشهوات أنها كانت تخصني باهتمامها، كما لو أنها تفرح بتلك النظرة الشهوانية التي تطلقها عينايّ الناريتان.

هل كان الكبت الجنسي هو الدافع نحوها؟

لقد كنت في الثانية والعشرين من عمري، ولم أكن أعرف أي شيء عن جسد المرأة، لقد كان الأمر خليطا من هذا كله، خليطا من حنان مفقود، وتشوقات هلامية، ورغبات غير مُصرح بها، وكان كل هذا ملحوظا على تصرفاتي حتما مع تلك السيدة التي بقدر ما كنت أقدرها، وأستمتع بدروسها بشغف كبير كنت مجنونا بصورتها، ولا يمضي يوم إلا وأستحضرها ليلا قبل النوم، وقد أفعل ما يفعله المراهق

بملامسة عضوي لكي أستخرج منه تلك النقاط البيضاء اللزجة فأنهي بها مشكلة ليلتي القلقة تلك.

لقد حدث اللقاء عندما دعتني إلى بيتها كي تساعدني حسبها في تطوير مهاراتي في العزف على الساكسفون، ولقد قبلت دعوتها سعيدا ومتوترا، بل قضيت ليلتي قبل الذهاب، وأنا أحلم بأصابع يدها ترتعش على خيوط تلك الآلة الموسيقية، وتخيلتني هائما في تلك الرائحة الغامضة للأنثى حينما يفقد العقل قدرته على الضبط، والمشاعر تهتاج، ولا مكان إلا لتلك اللذة الصرفة الباحثة عن مخرج في نفق الجسد الجميل..

"إن الحياة ليست إلا لحظات" هكذا أخبرتني، وفهمت أن اللحظة التي تعنيها هي اللحظة التي أحلم بها لا غير، وتريات الموسيقى الحالمة، وهي لم تهتم بتعليمي ذلك، لقد ذهبنا إلى غرفة النوم على وجه السرعة، واكتشفت، وهي تدفعني كي أسقط فوق السرير كيف أني كنت جاهلا حتى بالأبجديات، بينما راحت هي تتعرى ببطء وغنج، منتشية بفكرة أني مازلت عذريا حتى ذلك الوقت، وأن هذا سيتيح لها نشوة مثيرة أكثر من شخص خبير كما شرحت ذلك لي لاحقا.

همست في أذني:

"أيها العربي الأسمر أنت من الآن فصاعدا عطيلي الجميل".

وضحكت من عطيل، والعربي الأسمر، وضحكت من هذا الشعور أن تراني بهذه الصورة الغرائبية، لكن ما همي أن تراني كما تريد، كنت أغرق في جسدها الأبيض الناعم، وألتهم نهديها المدورين، وأتذوق من شفتيها الشهيتين عبير الشهد، وأنا أعصرها بين ذراعي كوسادة ناعمة، وأصرخ بأعلى صوتي مُطلقا كل تلك القيود التي

لجمتني طويلا، وكل تلك السنوات التي حرمتني فيها الحياة من تـــذوق شيء خالص كهذا الذي منحتني إياه "**آنيليا**".

لم تكن لتمضى تلك الليلة الأولى دون آثار فلقد هوت كل أقنعتي المزيفة التي كنت أحصن بها نفسي، وأضع جدرانا سميكة تعزلني عـــن النساء كما يفعل كل سكان بلدي الذين يختارون صمتهم على البوح، وكبتهم على التصريح، فلقد فتحتني "**آنيليا**" على الحياة، ورحت أطلب منها "المزيد.. المزيد"، "حرريني أكثر فأكثر" ولم تكن تبخل عليّ بكل ما أريد، بل طلبت مني حتى أن أعيش معها بالبيـــت، وأوفـــر منحـــة الدراسة لفعل أشياء أخرى على إيجار شقة صغيرة بضـــواحي المدينـــة فقبلت، وكان التحرر حافزا على فعل أشياء أخرى أهم، واكتشفت أن فرحة الجسد كانت تجعل العقل يعمل بحزم كبير، فولـــدت بـــداخلي الإرادة لأعمل أكثر، وأدرس أحسن، وصارت السينما بالفعل قريبة من روحي، كما كانت "**آنيليا**" قريبة من جسدي.

لكن ما إن مضى العام الأول في تلك السعادة المكثفة حتى شعرت بأن "**آنيليا**" راحت تتغير واكتشفت أنها تبحث عن شخص آخر تجرب معه نفس الشيء، وظننت أنها توهمات مني لا غـــير، حـــتى شـــعرت بابتعادها الحقيقي، وراحت فرحتي تذبل وأنا أشاهدها تميل بنظرها نحو طالب جديد وافد من المغرب، كان أكثر سمرة مني ويحمل كما كنـــت أحمل حتما تلك العذرية الي تبحث عنها في الرجال الوافدين من بعيد، فيتملكني ذلك الشعور بالغيرة، والحسد، بل وجدت نفسي عدة مرات أتخانق مع ذلك المغربـــي الذي فهم القصة، لكنه لم يفوت فرصته هـــو أيضاً، وراح يُساير الرسائل التي تصله منها، ولم يمض شهر على بدايـــة العام الثاني من الدراسة حتى أخبرتني السيدة الجليلة بأنها لا تستطيع أن تتحمل نفقة عيشي معها، وأدركت بألم ما تود قوله لي، وما تريدني أن

أفعل، فما كان مني إلا أن استجبت لرغبتها تلك دون نقاش، وعدت لإستئجار بيت صغير في الضاحية، مبتعدا عن تلك الليالي الشبقية التي فتقتني كرجل وبقيت أستحضر أنفاسها وهواءها طويلا بعد ذلك.

لم يثنيني الشعور بالهجران رغم تألمي منه من متابعة ما جئت من أجله إلى بلغاريا، بل زاد من تصميمي على العمل أكثر، ولقد تفوقت على بقية زملائي الذين جاؤوا من دول عديدة، وحتى على بعض البلغاريين أنفسهم، وكان الجميع يثني على هذا النبوغ الذي أبديه في التعلم بسرعة، وحبي الكبير لفن السينما، ومشاهدتي الكثيفة للأفلام الكلاسيكية البديعة، وحسن تعليقي عليها، وقراءة الكتب التي تتحدث عن فنيات الإخراج السينمائي، وسيرة المخرجين وغيرها، وكان هذا كفيلا بأن يملأني بتلك النشوة الروحية النادرة التي اعتبرتها معوضا على فقدان نشوة الجسد مع تلك السيدة الجميلة..

مضت سنوات الدراسة على هذا الشكل تقريًبا، أما الملذات الجسدية فلا أقول أني أهملتها تمام الإهمال وقد انفتحت عليها وعرفت مذاقها ونعيمها، بل نظمتها قليلا، وصرت أستعين ببعض البيوت المتخصصة في هذا الشأن، وكنت أجد ما أبتغيه مقابل مبالغ نقدية معقولة، لم تكن تؤثر على ميزانيتي الشهرية، وهذا ما مكنني نسبيا من نسيان"**آنيليا**" كل تلك الفترة، فلم تعد إلا ذكرى جميلة في القلب والذاكرة.

لهذا عندما جاءتني دعوتها في سنتي الدراسية الأخيرة إلى مطعم جميل في الساحة قبلت دون تردد، وسعدت هي بذلك، وراحت تتحدث معي بصراحة، وهي تشرح لي موقفها:

- أعرف أنك غضبت مني لأني تركتك من أجل شخص آخر.

أجبتها قبل أن تكمل كلامها:

- لقد نسيت ذلك.
- لا يهم..أنا لا أنسى، هل تذكر ماذا قلت لك في البداية، إن الحياة مجرد لحظات، وهذا يعني أن لا شيء يُعوض تلك اللحظات التي يمكن أن نسرقها من الحياة.

كدت أصرخ في وجهها غضبا "ألم تكفك اللحظات التي كنت أمنحها لك" لكنني كتمت غضبي ذاك، وتركتها تتكلم.

- كنت شابا في الثانية والعشرين، وأنا امرأة في الأربعين، بالنسبة لك الحياة لا تزال مفتوحة على التجريب، والبحث، والوصول إلى ما تريد، أما أنا فحتى لو بقيت من الداخل شغوفة، وأنثوية فإن الجسد لا بد أن يترهل يوما ما، ويضيع منه ذلك السحر الجذاب الذي ولعت به..

بالنسبة لي لم تكن بحاجة لتبريرما فعلته فلقد تقبلت فكرتها دون تردد بعد سنة من فراقنا، بل كنت أشعر في داخلي بأني مدين لها بتلك التجربة التي قذفتني إلى الرجولة دون سابق دراية وعلم، ولهذا تركتها تكمل حديثها دون أن أقطعه هذه المرة.

- المرأة ليست كالرجل أنت تعرف هذا جيدا، ثم أتصور أنه حتى لو بقيت معك السنوات الأربع المتبقيات لك للدراسة كنت حتما ستتركني يوما، وتعود لأهلك وبلدك..

تركتها تفضفض بما في جعبتها من شروح، وحالات وأفكار، ولقد تحدثت حتى عن ماضيها البعيد وزواجها الأول الذي فشل بعد خيانته لها، وزواجها الثاني الذي لم يستمر إلا عشرة أشهر فقط، وخراب حياتها العاطفية حتى سقطت دمعة من عينها اليمنى، كما لو أن قلبها كان لا يزال مجروحا من تلك الذكريات القديمة/ القريبة من نفسها.

وفي تلك اللحظة شعرت بيقظة حنان عميق نحوها، وقلت بلطف وصدق: إنني غضبت منها في البداية فقط، لكنني تفهمت بسرعة موقفها الطبيعي، ورحت أشرح لها كم أن الأمر مختلف بين بيئتين ومجتمعين في نظرتهما لحرية المرأة وحرية الفرد بشكل عام، وخاصة الفروقات بين مجتمعاتنا العربية والأوربية، وأذكر كيف حكيت لها عن علاقتنا بالنساء، وكيف يسودها الكثير من الزيف والنفاق فواقعيا نحن ندعس على رقبة المرأة فنمنعها من الحياة، ونمع أنفسنا بذلك من الحياة نحن أيضاً، وكيف أن هذه النظرة التقليدية هي خليط من أشياء كثيرة تربينا عليها وامتزجت بعروقنا، وصارت جزءاً من ذاكرتنا الموروثة، وثقافتنا الخاصة، وأنني عشت معها تجربة انفتاح لا أنساها، وأنها بشكل، أو بآخر كانت حبي الأول، حبي المجروح حتما، حبي الجسدي الذي فتق الخارج فأعطاه قوة في الداخل، لينتهى الحديث بيننا بعناق مشتعل، وقُبل لاهبة، وبكاء حار كذلك، وقضيت ليلتي معها أتنعم من جديد بمباهج ذلك الجسد الذي كان يتوقع أن يخسر قريبا الكثير من سحره في معركة الإغراء القصيرة العمر..

تذكرت هذه العلاقة لأن الفتاة التي رأيتها قرب الباب، وقالت إن اسمها ربيعة أيقظت فيّ دون أن تعي ذلك الشعور الناقص، وغير المكتمل بالحُب، ذلك الذي كان ينقص ربما علاقتي ب"**آنيليا**"، والذي رغم ما منحتني إياه من ثقة بالنفس بقيت أرتعب من فكرة المغامرة مع المرأة باستمرار، وأخاف من أن يكون ظاهرها غير باطنها، فمن يفهم ماذا يدور في خلد امرأة دائماً، ومن يستطيع التأكد من أن ما تقوله هو ما تشعر به فعلاً.

الفصل الثاني

في الليل كنت أعزف على آلة الساكسوفون التي أحضرتها معي من بلغاريا، مثلما كان يفعل فنانو الجاز السُود، وهم يلتحمون بمقاطعهم تلك حد الاتصال الشبقي بموسيقاهم، وينقلونك عبرها إلى عوالم من الصفاء المؤلم، والفن الخالد.. طبعا لم أكن أعزف بتلك البراعة الفذة التي تشبه الوحيّ الملهم من السماء، فالموسيقى بقيت تعويضا عن خيبة السينما، وكنت أقول بداخلي، بما أنهم لم يريدوني أن أخرج فيلمي ذاك، فلأبق حريصا على هذا الخيط الآخر مع الفن، وأنعم بما تمنحني الموسيقى من ساعات نشوة تُبقي جذوة الفن بروحي مشتعلة..

في حانة "المرسى الكبير" المطلة على البحر كان العالم يبدو واسعا جدًا رغم ضيق المكان، متسعا بلا حدود في خيال الناس الذين يأتون للنسيان، والشرب، هؤلاء الذين كانوا يشعرونني بغربتي حتما فأغلبهم كان يتألم بصمت مرّير، ويتوجع من محن واقعية أكيدة، غير أنهم كانوا متفقين على فكرة واحدة، وهي أنه إذا ما دخلت إلى الحانة فللنسيان، أو على الأقل، رمي الهموم من وراءك، والتقدم للحياة بخفة الفراشات التي لا أثر لها عندما تقف على الزهر وتستنشق عبيره.

كان العمل يأخذ أغلب وقت الليل، وكنت أعود للبيت متأخرا على الساعة الثالثة صباحا حيث يغط الناس في نوم عميق، ولا أدري لماذا قبل النوم أجلس قرب الشرفة، وأبقى غارقا في تأمل ذلك الهدوء الجميل في مدينة صاخبة نهارا، وميتة ليلا.

بقيت صورة ربيعة منطبعة في ذهني، منقوشة في مكان ما من ذاكرتي، ربما لأني فرحت أنها تجرأت، وطرقت باب بيتي، كان ذلك بالنسبة لي شجاعة لم أنتظرها حقا، ذلك أنني عندما أسترجع ذكرياتي الشبانية أتفطن إلى أنه كان هنالك دائما سور بين الذكور والإناث من الصعب اختراقه إلا بالتحايل، أو الكذب، وهي أمور لم أكن أحسنها، فلقد تربيت على الصدق مهما كانت الظروف، ولهذا بقيت المسافة بيني وبينهن بعيدة، وها أنا بعد غربة كل هذه السنوات، أجدني في نفس وضعيتي الأولى، الحاجز نفسه، ولولا أن ربيعة هي التي جاءتني بقدميها، وتكلمت معي لا أظن كنت سأذهب نحوها، أو نحو غيرها.

كان سكان الحيّ يعرفون والدي أكثر مما يعرفونني أنا، لا أدري لماذا كنت محاصرا منذ الصغر، ربما خوف عائلتي عليّ من الانحراف جعلهم يطوقونني بذلك السياج السلكي، ويفصلوني عن الواقع الذي أعيش فيه، حتى في المدرسة الابتدائية لا أذكر زملائي، أما في المتوسطة والثانوية فكانوا يعدون على الأصابع، وكانت زمالات عابرة جدا لم تستوقفني، ورغم ذلك كنت أشعر بميل نحو الآخرين، نوع من الرغبة في التعرف عليهم دون أن أسمح لهم بمخالطتي، ولعلي كنت جاسوسا ممتازا منذ صغري، أتابع حياة الناس بتفاصيلها المملة دون أن يشعروا بي، أو حتى يدركوا أنني أتجسس عليهم.

كانت قصص حيّ "مارشي أتناش" متشابهة تقريباً، فهم سكان بسطاء، وجاؤوا من مناطق مختلفة من هذه البلاد الكبيرة، لقد حملتهم الظروف الصعبة على الهجرة إلى العاصمة بأحلام وأوهام كثيرة. بعد الاستقلال مباشرة كسروا أبواب الشقق، واحتلوها، وصارت ملكا لهم، لكن البعض لم يكن محظوظا إلى هذا الحد فطرد منها بسرعة، وعاد إلى المنطقة التي جاء منها، وهناك من دخل السجن بسبب ذلك،

فسكنات هذا الحيّ لم يكن ليسمح أن يأخذها الفقراء البؤساء دائما، قلة قليلة استفادت، وكان على رأس هذه القلة المجاهدون المحررون للبلد، فهؤلاء كان سلاحهم في يدهم، وشعارهم "ما أخذ بالقوة، لا يسترجع الا بالقوة" مرددين ذلك بفخر، كما كانوا يقولون "من يريد أن تبكي أمه فليقترب"، ولا أحد كان يُريد أن تبكي أمه عليه، فلقد سالت الدماء بما يكفي لكي أي شخص يرغب في إهلاك نفسه من أجل سكن، أو قطعة أرض، ففي تلك الفوضى الكبيرة بعد الاستقلال عام 1962 كان كل شيء ممكنا، ومفتوحا على المجهول، وكان الناس يخافون حتى من ظلهم، فتهمة شبهة التعامل مع الفرنسي قتلت الكثيرين، وشردت العديد من العائلات.

أما والدي فلقد سكن هذا الحيّ عام 1963 وذلك بفضل عمي رضوان الذي كان واحدًا من مجاهدي خلية التحرير في القصبة، ولولا أخاه هذا لبقينا في بيوت حيّ القصبة الضيقة والصغيرة، والتي لم تكن بأي حال من الأحوال تصلح للعيش الكريم، فعمي تدبر الأمر بحسب معارفه وواسطاته في الجيش، وهو الذي أقنع والدي بأحقيته في ذلك السكن.

إن كل ساكن من سكان الحيّ كما في مختلف الأحياء الأخرى بالعاصمة قصصا مماثلة، عن الطريقة التي حصل عليها على هذا البيت أو ذاك، وسيقول البعض كان ذلك طبيعيا للغاية أن يأخذ الجزائريون ما حرموا منه قرنا بأكمله.

لا أدري لماذا لم تكن علاقتي بهذا الحيّ حسنة على الدوام، ولأعترف أني كنت وحيد والديّ وهذا كان سببا كافيا ليركزوا على تربيتي، وتثقيفي، وإبعادي عن الآخرين الذين قد يفسدون حلمهم في رؤيتي شخصًا ناجحا في الحياة.

والدي كان يعمل في المحاماة، مهنة كانت تجعله ملتحما مع مشاكل الناس وقضاياهم، كنت عندما أعود من المدرسة أسمعه يصرخ "الدولة تخلت عنهم، ويظنون أنني سأحقق لهم المعجزات".

أمي لم تكن تعمل كانت ماكثة بالبيت، رغم أنها كانت تملك ثقافة فرنسية واسعة أخذتها من عملها الطويل في منزل أحد الأغنياء الفرنسيين في مدينة "شرشال"، وفضلت البقاء في البيت تحت تأثير شعور قاس بألم غريب ظل ينهش قلبها، وضميرها كل يوم، ولم أعرف ذلك الشيء إلا بالصدفة، وأنا أسمع خالتي تقول لها "يجب أن تنسي، وإلا بقيت مريضة "لكن أمي لا تتوقف عن الكلام بطريقة شبه هذيانية "لقد كان ذلك الفرنسي يغتصبني، مازلت أتذكر ذلك" كان وقع السماع حينها شديد الإيلام، وشعرت كما لو أنني عشت تلك اللحظة ثانية وراء ثانية دون أن أقدر على فعل شيء، خالتي تطمئنها وتقول: " يا أختي زوجك يعرف القصة، وسامحك لأنك لم تفعليها برضاك، ثم أنك انتقمت وقتلته يوم كان يُريد الفرار، ألا يكفي هذا لكي ترتاحي من هذا الألم". لم تقل لها أمي شيئا حينها، ظلت صامتة، لكنه الصمت الذي يتكلم فوق العادة، الصمت الذي ينوح من الداخل كأنها قطة جريحة على وشك الموت.

حاولت أمي عبثا نسيان هذه القصة، مثلما يحاول أي شخص أن يهجر شيئا يؤذيه فلا يريد العودة إليه، أو التفكير فيه، لكن كان الألم حاضرا بقوة شديدة، وكان الجرح يتغذى من روحها الصامتة التي عندما تتحدث تتكلم كأنها تمزق جسدها بالسكاكين.

لِكُلِ عائلة أسرارها، وما حدث في وقت الثورة حدث، ويجب أن ننتهي منه هكذا قال عمي رضوان لأبي، لكن المشاعر لم تنس أبدا، والذكريات المحفورة على الأجساد لم تمت قط، والقلوب التي عاشت

تلك اللحظات التي اختلطت فيها الرغبة في النصر، وجرائم الحرب باقية لا تموت..

تساءلت مع نفسي: ما النسيان إذن؟ ثم قلت: لا نسيان، الذاكرة أقوى، وهاوية الجُرح تبقى مفتوحة تنتظر من يسقط بداخلها لتبتلعه بلا رحمة.

لقد رفع النصر النفوس إلى أعلى، وهو يُعيد لها كرامتها المسحوقة منذ قرون والآن حان الوقت لنذهب إلى الأمام كما كان يقول عمي رضوان بصوته الغليظ.

والدي كان يعرف ما حدث لأمي، ومع ذلك تزوجها، وهو أيضا كان مجروحا في صميم ذكرياته التي لم ينسها قط، لكنه لم يكن يرغب في الحديث عنها، لقد اعتقل وضرب، وأهين في السجن من أجل أن يكشف أسرار خلية التحرير في القصبة، وكان ذنبه الوحيد حينما اعتقله الفرنسيون أن أخاه كان عضوا فيها، لكنه لم يقل شيئاً، وتقبل أن يفعل به ما يفعل مُستسلما لأي نهاية كانوا يريدونها له.. لقد اعتبروه بعد الاستقلال مجاهداً، وهو لم يشعر بأنه قدم شيئا بإرادته، وربما لو قدر أن يفعل ما يريد لكان هاجر قبل الثورة لأنه كان شابا متعلما، ويحلم بالدراسة الجامعية في دول متقدمة. كأنه لم يسامح قدره على ذلك، وبقي بين حالتين أحلاهما مُرْ.

لهذا أحسست أن والدي كان يكره الشعب، يكره السياق الذي وجد نفسه فيه، كل شيء حدث خارج نطاق إرادته، ولأن الأشياء حدثت على هذا المنوال كمل دوره كما يجب لكنه ظل في داخله محبطا، وغير منسجم مع الواقع الذي يعيش فيه.

تعرفا على بعضهما قبل الاستقلال بسنتين، وتحابا بطريقة ما، لا أعرف تفاصيل حبهما ذاك، لكنهما تحابا، وتكاشفا بما جرى لهما،

غطى كل واحد على أسرار الآخر، وكانا سندا لبعضهما البعض، وعندما استقلت الجزائر كان ذلك هو الفوز الأكبر على كل تلك الذكريات السوداء التي بقيت راسخة في مكان ما من أعماقهما، لم ينسيا تماماً، أو بالأحرى استطاع والدي على محاولة النسيان، أما أمي فظلت مريضة بتلك الذكرى، وكانت عندما تستحضرها تبكي وتتكلم عنها بهذيان غريب، وأنا صغير لم أكن أفهم هذيانها جيدا، وكان أبي يترجاها أن لا تتكلم أمامي بهذا الشكل، وكبرت، وعرفت تلك القصة، وشعرت بالذنب نفسه كأنها ذاكرتي هي التي تحمل ذلك الجرح القديم الذي لا ينسى.

حلمت رغم كل ذلك أن أكون منسجما مع ذلك المحيط الذي ولدت فيه لكن لا شيء حدث كما حلمت به، وفرت لي عائلتي سجنا داخليا كبيرا شعرت أنه كان سجني أنا أيضا وفي داخل السجن لا نعرف جيدا الوجهة، نتدبر أحوالنا كي نبقى يقظين، منتبهين، نكافح من أجل لحظة ما كأنها آخر لحظة في حياتنا التعيسة.

الفصل الثالث

من الصعب أن يجد الإنسان دائما تفسيرا منطقيا للحياة، لأن الحياة تشبه الفوضى، ولأنه من المستحيل في عالم الفوضى هذا وضع أسس ضابطة تستقيم على ضوءها الأمور، فتتضح الطرقات التي نسير فوقها.

الحياة تقوم على جراح كثيرة بعضها يندمل، وبعضها يبقى مفتوحا للأبد، وكل جرح هو حكاية لا تموت، وذكرى لا تنسى.

ليست هذه الفكرة فكرتي، بل سمعتها من السيدة البلغارية التي كنت مُعجبا بها، وهي تتحدث معي بقلب مفتوح، وتحاول جاهدة أن تستخلص من حياتها القاسية جوهرها المفقود.

من عادتي أن لا أضع نفسي في مكان الآخرين، وأن لا أحاول النظر للحياة من زاوية رؤيتهم لها، مقتنعا أن لكل واحد منا زاوية رؤيته الخاصة في النهاية، مقاربته المختلفة للعالم، وتجربته المميزة التي يستوعب، ويتعايش من خلالها مع المُمكنات التي تتاح له أن يعيشها، ولعلي فهمت منذ طفولتي بالبيت الذي عشت فيه أن الحياة هي ما نعيشه، وانتهى الأمر، وما عشته كان كافيا لأفهم القليل، ولكي أترك الغامض مفتوحا على أسئلتي التي لا تتوقف..

كانت السيدة البلغارية ترى أن الحياة تنقسم إلى قسمين أساسيين: قسم نعيشه دون أن نفكر، أو أن تفكيرنا فيه يكون غير مهم، غير محدد، أما القسم الثاني فهو ذاك الذي نقضيه، ونحن نفكر في الأشياء التي دفعتنا إلى اتخاذ قرارات مُعينة كان لها أثر حاسم على حياتنا.

قلت لها بأني لم أعش في الفترة الأولى من حياتي إلا ما كان يريدني الآخرون أن أعيشه بدءاً من عائلتي، ومحيطي، أما المرحلة الثانية فاكتشفت فيها نفسي بعد هجرتي للدراسة، وفي ذلك البلد الأوربي شعرت بأني أملك قراري بيدي، ومصيري مرتبط بما أريده وأفعله، لا بما سيقرره الآخرون لي..

أخبرت "**آنيليا**"بأنني أنتمي إلى مجتمع الناس فيه ليسوا أحرارا إلا بقدر ولاءهم لمن يحكمهم، أو يؤّمن وجودهم، ويشرف على سير حياتهم، أحرار مقيدون، وأننا لهذا لا نملك أي قدرة على تغيير مسارنا من اتجاه إلى آخر، فنحن نعيش داخل القطيع أشبه ما نكون بالغنم، وبحاجة إلى راع له سلطة الأمر والنهي، هو الذي يحدد الوجهة التي يجب أن نذهب اليها، وكلاب حراسة مدربة مستعدة للنباح في أي لحظة عندما ننزاح عن الطريق.

على قدر ما كنت أشعر باستغرابها من كلامي كنت عاجزا عن تفهم طبيعة مشكلتها مع الحياة بالمقارنة مع مشاكل بيئتي، فهي كانت تتصرف كما ما تريد، لقد كانت قوية وذات روح شجاعة، ولا تفرط في متع الحياة، وبحسبها فإن المشكل دائما هو الماضي الذي لم نفكر فيه بعناية عندما يطرق بابنا في ساعات الليل المتأخرة، ويشعرنا بالكآبة..

كنت من حين لآخر أسترجع ذكرياتي مع "**آنيليا**". لحظات البوح والمكاشفة، والحرية التي منذ عُدت لم أعد أجدها مع آي شخص آخر، وفي النهاية كان عليّ تقبل ذلك الشيء المؤسف، أنني عدت إلى سجني الكبير.

كان الأمر الوحيد الذي سعدت به حقا هو العمل في تلك الحانة ليلا فلقد صار هو كل متعتي التي أعيشها بكثافة وأحسه جميلا من

الداخل، و لم أتصور أن العزف على آلة الساكسفون سيشحنني بعواطف جمة ولا نهائية، وسيوحدني بموسيقى الجاز والتي أصبحت دون وعي مني مدمنا عليها، وفي تلك الحانة كان المخمورون من زبائن ساعات الليل الطائشة يمدحون مواهبي تلك، ويدعونني للشرب معهم فكنت أعتذر على أساس أن الشرب لا يتماشى مع العمل ليلا، لكن في آخر السهرة كان لا بد من الشرب مع بعضهم ممن كان يعتبر الحديث معي فرصة لا تعوض، لكن بسرعة سيكتشفون قدرتي على الصمت الطويل، وأني شخص داخلي ينصت أكثر مم يتكلم، ومع ذلك كانوا يتكلمون معي في كل شيء تقريبا، عن حياتهم وأسفارهم، ونساءهم، وأعمالهم، وتعاستهم، وأفراحهم، بل كنت أتحول إلى ذلك القديس الذي يعترفون له بذنوبهم، وكنت أعجب من نظرتهم لي بهذا الشكل المتعالي، متذكرا كيف كان والدي يحذرني من مخالطة الناس، ومن التكلم معهم، فهم لا يعرفون من الحياة إلا الشكوى، والأنين، وتحميل الآخرين مسؤولية إخفاقهم في الحياة والعمل والحب، ورحت أتساءل بداخلي إن كانت الشكوى والأنين سببا لكي نهرب من الناس مثلما كان يفعل أبي.

تساءلت دائما لماذا أراد والداي أن يجنباني الاختلاط بالناس، كانا يعرفان الحياة أحسن مني، ولعلي لهذا خضعت لتربيتهما تلك، أو رغبتهم في أن لا أخالط أحداً حتى أكبر ويشتد عودي، وأكون بذلك قادرا على التمييز بين الحسن والسيء، هل فعلا ذلك لحمايتي، و لم تكن الغاية إلا أن أنجح في الأهداف النبيلة التي سطروها لي كي أحققها في مستقبلي.. ربما، وربما كان الدافع الخفي هو ماضيهم الذي لم يستطيعا التخلص منه، وظل يلاحقهما كمجرم لعين، و لم يجدوا إلا ابنهم ليرميانه على كاهله.

أما في النهار فكنت أقضي نصفه نائما تقريبا، وبعد الظهر أخرج للتجول والمشي حيث كنت أريد اكتشاف المدينة، وهي بحاجة لـــذلك الاكتشاف المستمر فأمشي دون توقف ودون ملل، وأنا أنظر للنـــاس، وهم يعبرون ويتحركون ويثرثرون ويعملون، ولا يعملون. كان العـــالم يتحرك معهم على نفس الطريقة، وبنفس الإيقاع، فلم يكن هنالك ما يُدهش لكن نظرة السينمائي التي تسكنني كانت تحاول أن تكتشف ما يختفي وراء هذه المظاهر البسيطة والعادية، ففي داخل الحياة توجد حياة أخرى، وعوالم مختفية لا تنكشف إلا لمن يتوغل أكثـــر في الأعمـــاق المدلهمة للوجود البشري الغامض..

رأيت ربيعة مرتين بعد لقائي الأول بها أمام باب شـــقتي، في المـــرة الثانية التقت نظراتنا عند بائع المواد الغذائية السي ريبوح، وهو رجل ثقيـــل الظل، سمج اللسان، كنت أشتري بعض الحاجيات المنـــزلية، فابتسمت في وجهي لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة، وبادلتها الابتسامة دون أن أقول شيئا بدوري فلقد احترمت هذا الصمت، أو التخفي الذي أرادتـــه حينـــها، ثم كانت المرة الثانية عندما لقيتها بالصدفة وأنا أمر قرب الجامعـــة المركزيـــة كانت مع مجموعة من الفتيات الغارقات في أحاديثهن، لكن ما إن لمحـــتني حتى سارعت نحوي، وسلمت عليّ فرحة ومزهوة، وراحت تعتذر علـــى المرة الفائتة عندما لم تكلمني، وهي تشرح لي سبب ذلك:

- بائع المواد الغذائية لسانه طويل، وهو معروف في الحيّ بنقـــل كل الأخبار المغرضة والشائعات السيئة، وعادة يتجنب الناس الحديث أمامه، أو يتحدثون فقط عندما يريدون لخبر مـــا أن ينتشر بسرعة..

سألتها إن لم تكن مشغولة فأدعوها لشرب شيء مـــا، فوافقـــت على الفور، وسرنا معاً حتى ساحة الشهداء، وطوال الطريق ظلت ربيعة

تتكلم بفرح عن حبها للتمثيل، ورغبتها فيه، وكيف أن ذلك سيحقق جزءًا من أحلامها الكثيرة.

سألتها على الفور:

- هل لكِ أحلام كثيرة؟
- نعم كثيرة أريد أشياء عديدة من الحياة.
- مثل ماذا؟
- إلى جانب التمثيل أحب أن أصبح راقصة، أنا أتعلم الرقص في الباليه الوطني منذ سنة. أشعر بالحرية عندما أرقص، كل همومي تذهب إلى مكان آخر.
- جيد.
- وأريد أن أتمكن من السفر يوما، وأنجح في مكان آخر من العالم، في مكان يقدر بالفعل مواهبي، ويعطني الراحة والسكون.
- يبدو أن هذه المدينة أتعبتك.
- لقد تعذبت في الحياة، تعذبت أكثر مما تقدر فتاة على تحمله لكن أموري تحسنت منذ..

لا أدري لماذا توقفت عن الحديث.

سألتها مع ذلك:

- منذ ماذا؟

فردت بصعوبة:

- حكاية طويلة.. سأحكيها لك ذات يوم..

أبديت تفهماً لموقفها وصمتها، فلم ألح على طلب المزيد، وصلنا إلى مقهى يطل على الميناء، وجلسنا فيه، تهاطلت عليّ أسئلتها بسرعة عن السينما، والفيلم الذي أنوي إخراجه، وكيفية التمثيل، وغير ذلك

من الأسئلة التي تتعلق بمجال عملي، كنت أجيبها بمتعة، وأنا أتأمل بياض وجهها، وعينيها الصغيرتين، وأنفها المستقيم، وشعرها الذي يسدل على ظهرها كأنه رداء حريري تتلاعب به نسمات ذلك المساء الجميل..

ثم عُدنا من حيث جئنا لكن هذه المرة أخذنا سيارة أجرة، وطلبنا من السائق أن ينقلنا إلى غاية ساحة أول ماي، وهناك افترقنا.

لا أخفي بأني، وأنا أتركها تذهب شعرت بمرارة غريبة مُفكرا أنه لو كنت في بلغاريا الآن، وانسابت خيوط المحبة بيني وبين امرأة بلغارية كما انسابت اليوم مع ربيعة لكنا أكملنا الحديث حتى الليل، ولربما أسعدنا أن نضع قبلة على شفتي بعضنا، وربما أكثر من هذا..

تركت "لو" على جهة، وعدت للبيت أخذت حماما ساخنا، واستعددت للذهاب نحو الحانة للعزف من جديد، وكان ذلك كافيا لاستجمع أوهامي وأحلامي في موسيقى هاربة تحكي عذابات الإنسان الخالدة عبر السنين.

الفصل الرابع

أنهض صباحاً، وأغسل وجهي بسرعة، ولا أريد الـتفكير في أي شيء، التفكير يدعو دائما لليأس، يُحبط الإنسان من البداية، يرغمه على التردد والتراجع مرات كثيرة، يدخله منطقة صعبة يستحيل فيها الفعل، والفعل هو الحياة، أو غريزتها المندفعة للأمام، وأنا تفكيري لا يذهب إلى الأمام، عادة ما يلوك الذكريات، ويمضغها عدة مرات، ثم يدفعها من جديد إلى الواجهة، يجترها كما تجتر البقر ما أكلته في لعبة لا تنتهي، ولا تتوقف، فالجراح تسكن الماضي، وهي التي تفعل مفعول السم في الحاضر.

قررت أن أذهب من جديد في محاولة أخيرة ويائسة لإقناع الشرطة الوطنية للإنتاج السينمائي بفيلمي عن حي "مارشي أتناش" كنت مُصممًا على إقناعهم بوجهة نظري، على فرض رؤيتي عليهم، وحتى تهديدهم بأني سأفضح كل هذه الممارسات التي تقف ضد المبدع الجزائري، أو هكذا رحت أحمس نفسي كي أقدم على الفعل بدل التفكير، وأنا بحدس ما، أعرف أن لا شيء يسير بهذه الطريقة في هذا البلد العجيب، وأنه يجب أن يتسلح الإنسان بقوى خارجية تساعده على تحقيق ما يريد.

الكل يقول لك هذا، وينصحك أن تبحث عن أناس نافذين في جهاز الدولة، أو الحزب، أو -إن كان لك حظ - واحدا من رجال الجيش، هؤلاء تسمع كلمتهم دون نقاش، فهم أسياد البلد من دون منازع، حتى لو لم يستعملوا أوراقهم دائما، أو تدخلوا بشكل مستمر،

فيكفي أن يقرر أحدهم شيئا حتى تفتح لك كل الأبـــواب، ويبســـط أمامك الستار الأحمر إن أردت، وربما سيدفعونك حتى إلى أن تـــذهب إلى أعلى مكان ترغب فيه، فتشارك بقدرة قادرة في أهم مهرجانـــات السينما العالمية كمهرجان "كان" مثلا" وتنافس حتى السينما الامركية على "أوسكارات" هوليود المغرية والمسيلة للعاب المخـــرجين في كـــل مكان من العالم..

سيفعلون ذلك، لا لأنهم يملكون وساطات طبعـــا في هـــذه المهرجانات، بل لأنهم سيغدقون عليك ما تريد من الأموال التي وإن كنت قليل الموهبة فستتمكن حتما من خلالها على تقـــديم فـــيلم يُبهر..

لكن هذا الطريق لا أعرفه، ولا أريد أن يكون طريقي، وأيضا من أين لي بمعرفة هذا النوع من الشخصيات النافذة في الحكم، والتي تعيش ربما في زوايا مظلمة، وغير مرئية على الأقل لبشر من نوعي.

في الحانة التي كنت أعمل بها تحدثت مع صاحبها مرة وأخبرتـــه بأني سأتخلى عن حلمي لأنهم لا يريدون قبول الســـيناريو في لجنتـــهم الموقرة.. لم يفهم من كلامي تقريبا أي شيء، هو الذي لم يقرأ في حياته كتابا واحدا، ولم يدخل المدرسة أبدا، لكنه كان يعرف المهنـــة الـــتي يمتهنها فالناس تحب الشرب من أفقر خلق الله على وجه هذه المدينة إلى أغناهم، وحانته تؤكد له ذلك كل مرة من خلال عدد زبائنه الذي لا يتوقف عن الارتفاع حتى أنه صار يميز بين الناس، لا يقبل إلا بعـــض الناس المهمين ويطرد زبائن الفقر كما يسميهم، إنه يعرف جيدا رائحة النقود لأنه يشمها حيثما تكون، وقد لا يحتاج لذكاء كبير عندما يسأل مثلما سألني:

- كم يكلف إنتاج فيلم؟ وكم يربح المخرج من أموال؟

أسئلة جعلتني أصرف نظره عن الفيلم، وأغير موضوع الحديث، وأكتفي بشرب تلك البيرة الباردة على التحدث عن الجانب المالي في أمر فيلم لم أتصور أنه سيكون له ذلك النجاح التجاري المرغوب فيه من طرف المنتجين.

لكنه لم يصرف نظره، وتهاطلت عليّ أسئلته، فحاولت أن أشرح له ذلك دون جدوى ثم أقنعته في الأخير بأنه ليس في هذا فوائد مادية كثيرة، بل متعة للبصر والدراما لا غير، فضحك مني مستهزئا، وكأنه راح يقول لي: لماذا تضيع وقتي إذن أيها الأحمق؟

حدث ذلك أيضا مع زبون قيل لي إنه يعمل في وزارة مهمة بالبلد، أهم وزارة تقريبا، تلك التي يعيش منها كل الجزائريين والجزائريات، كنت أراه يأتي مرة نهاية الأسبوع، لأنه يعمل في صحراء النفط بحاسي مسعود، تحدث لي عن حياته التي كانت مقرفة تقريبا، وبعد كأسين أو ثلاثة بدأ عقله يفلت من الرقابة، وراح يضحك ويسخر من نفسه "أحد أقاربي هو الذي أوجد لي هذا العمل، واكتشفت أن الكثير من أبناء بلدتي ومنطقتي يعملون أيضا في نفس المكان، في كل الخدمات، من المطبخ إلى الحراسة إلى الهندسة.. الخ أعرف ستضحك لو قلت لك لم أصبح مديرا بكفاءتي فكما تعرف في هذا البلد لا أحد يعمل في مكانه، فقط كنت ذكيا على طريقتي المحدودة، أقنعت كل أقاربي، وأهل منطقتي بأن أكون ممثلهم في النقابة، هذا لا غير، فوافقوا، ونجحت بأغلبية ساحقة في انتخابات النقابة، والإدارة عندنا تحب التفاوض مع شخص واحد على جماعة، وإرضاءه على إرضاء الجميع، ولهذا بسرعة عرضوا عليّ المنصب فقبلت وصرت مديرا.. في الحقيقة لا أعمل الشيء الكثير فقط أجلس في مكتبي، وأمضي على وثائق عقود لا أفهم فيها شيئا كبيرا صراحة،

لكن عندي عمالا تحت إمرتي يفهمون كل شيء، ومتخرجين من الجامعة.. هم يشرحون لي ويقومون بالمهمة على أحسن وجه، هؤلاء المساكين سيبقون طوال حياتهم تحت، لأنهم لم يفهموا أي شيء في هذا البلد وهذه الحياة..

صرفني كلامه عن طرح مشكلتي نهائيا أمامه.

***

خرجت رغم ذلك الكم الهائل من الشعور بالإحباط متحمسا بعض الشيء من البيت، أي بذلك التصميم المبالغ فيه على أن أحقق ما أريد، دون أن أجهد نفسي في التفكير كثيرا كأني تركت الأمر للحظ، أو الصدفة..

عندما دخلت مركزهم الكبير للشرطة الوطنية للإنتاج السينمائي لم أجد أحدا بالباب فاستغربت، فلقد شاهدت أول مرة حارسا ثقيل الظل والمزاج يرتدي ملابس البحارة "الشنغاي الصيني" ولا يحب الكلام مع أحد، كما يُبدي لك امتعاضه بمجرد أن يراك، ثم يتحاشاك كما نتحاشى العفن، كأن الهدف الأول من عمله أن يشعرك بأنه غير مرغوب فيك هنا، أو من الأحسن كما تفهم من تعابير وجهه "أن لا تكلمني من فضلك فأنا حضرة الحارس أهم منك، وأهم من عائلتك ووو."

إنها السلطة الأولى التي ستواجهك وتتحداك، وتُضعف من معنوياتك إن جئت بمعنويات مرتفعة، وتشعرك تلك الطريقة الاحتقارية المتقنة الصنع أنك أصغر من حشرة، أنك لا شيء، فوجهه يظل يقول:

"من أنت حتى تدخل هذا المبنى؟ من وراءك، أو أمامك حتى تستطيع رؤية أحد داخله؟"

إن عدم وجوده أفرحني، وشجعني على الاستمرار في التوغل داخل المبنى الذي على غير العادة وجدته فارغا حتى أنني ظننت أنه يوم عطلة، فرحت أتأكد من الجريدة التي كنت أحملها معي من تاريخ اليوم فعرفته أنه الخميس الذي لا يعمل الجزائريون إلا نصفه، فخفت أن لا أجد أحدا، وأن يتبخر الحماس الصباحي القليل في الاصطدام بذلك الباب الحديدي الذي أتوقعه في كل مكان أذهب إليه.

الجدران صامتة، مهلهلة إلا من صور لممثلين أغلبهم رحلوا منذ فترة عن هذه الحياة، وبوسترات أفلام جزائرية قديمة ملصوقة على جدران لم تطل من سنوات غابرة، أفلام كنت قد شاهدت بعضها، وعلى العموم قلة منها فقط من كانت تملك نظرة مختلفة، وتقدم شيئا مثيرا، فلقد كان أغلبها أفلاما ثورية وطنية فيها من الافتعال الشيء الكثير، بعضها كانت له جمالية الصدق مثل "أولاد نوفمبر" الذي شاهدته بحماس عاطفي كبير أو "معركة الجزائر" الذي أخرجه الإيطالي ***جيلو بونتيكورفو*** بروعة مدهشة.

توغلت أكثر قبل أن أعثر على ذلك الباب الجميل نسبيا والذي كتب أعلاه بأحرف مذهبة داخل إطار مطاطي أسود اللون "المدير"، فتنفست الصعداء، لأنه لم يتح لي أن ألتقي بهذا الملك المتربع على عرش السينما فيزيارتي الأولى، تشجعت، وطرقته مرتين أو ثلاث، وعندما لم أسمع كلمة "ادخل" تجرأت، فقد جئت كالمقامر يومها، فدفعت الباب بهدوء فإذا بي أقع على تلك المفاجأة، وأشاهد ذلك المنظر الذي لم أنتظره، أو أتوقع يحدث في مكان كهذا المكتب، وفي يوم كهذا اليوم.

كان الرجل الخمسيني على ما أعتقد ذا اللحية المنقطة على ذقنه، والشعر الأسود الذي يتخلله شيب، والجسم البدين مع بطن منتفخ يقف في موقف لا يحسد عليه.

وجدته في غمرة لحظة شبقية، وهو يلج فتاة سمراء اللون من الوراء في حالة لهاث وعرق، وداخل معركة حامية الوطيس، صورة رغم غرابتها كادت تدفعني للضحك والعودة من حيث جئت معتذرا على الإساءة له وتعكير صفو لحظات سمن على عسل كتلك، لكن الواقعة وقعت لّما شاهدت الارتباك في وجه الرجل الذي سارع لرفع سرواله بينما صرخت الفتاة من الذعر والحرج، ولبست بسرعة فستانا كان مرميا على أحد الأرائك، وخرجت من المكتب تجري.. بقيت صامتا حتى شعرت أن الوضع صار مناسبا للحديث:

- جئت من أجل سيناريو فيلمي المعتقل عندكم.

بدا الرجل الخمسيني في حالة لا يحسد عليها فلم يستطع أن يرفع نظره نحوي، ولا أن يتكلم معي، بقي مطأطئ الرأس، اعتدل في جلسته على مكتبه، وهو منمهك في غلق أزرار قميصه، وتحسين وضعية ربطة عنقه في محاولة متأخرة لإعادة الاعتبار لفخامته، ثم قال:

- من أنت؟ وعن أي فيلم تتحدث؟
- فيلم "وقائع الحياة اليومية" واسمي...
- لم أسمع به من قبل.
- عرضته على لجنتكم منذ ستة أشهر.
- ستة أشهر فقط، وجئت تحتج.. هناك أفلام لم يحسم فيها منذ عشر سنوات، هل تريد أن ترى عدد السيناريوهات المحتجزة عندنا؟

وقام من مكتبه متوجها لخزانة حديدية، وفتحها أمامي لكي أتفرج بنفسي، وقال لي: "أنظر" هالني المنظر بشكل غثياني، وقلت محتجا:

- ولماذا لم تحسموا في أمرها؟

- ماذا تقول؟ هل تريد أن تعلمني عملي؟
- بالطبع لا، جئت فقط أسأل عن موقفكم من فيلمي، ولن أخرج من هنا حتى أعرف إن كان مصيره سيكون هذا القبر الكبير في خزانتك.

قلتها بنبرة غاضبة، وتصورتها تقوم بدورها المطلوب في وجه شخص كان يتعرق ليس بسبب غضبي منه، أو صراخي في وجهه، بل لأني أفسدت عليه متعته التي كان غارقا فيها حد الذهول.

- هل تعرف مع من تتحدث أيها الشاب؟

تعودت من هؤلاء أنهم عندما يستعملون كلمة شاب فلكي يضعوك في حجم معين، ويمكنهم بفضل خبرتهم العمرية الطويلة أن يوقعوا عليك العقوبة التي يريدون، لكن لم أرغب في الاستسلام، وقد شاهدت ما شاهدت، فقلت له بتحد أكبر:

- نعم أيها الشيخ أريد أن أعرف مصير فيلمي.

رد بحنقة:

- وما دخلي أنا، لماذا لم تتكلم مع اللجنة المشرفة على ذلك؟ هل تظنني فارغ وقت وشغل حتى تهجم على مكتبي هكذا دون استئذان.
- فعلت هذا لأنك لم ترد على طرقات الباب.. لماذا لم تسمعها؟
- هل تحاسبني على ذلك؟ أغرب عن وجهي، وإلا طلبت لك الشرطة.
- لن أغرب، يجب أن تحدد لي موعدا لأعرف ماذا عليّ أن أفعل.

أحس بورطته معي، كانت نظرته تشعرني أنني أحمق، وغِرٌ صغير لا يفهم أي شيء في الحياة والعمل، لكنه لكي يتخلص مني بأسرع

وقت، ويعود ربما لحالته الشبقية التي كان يتنعم فيها قبل دخولي المفاجئ، قال لي بهدوء الخبثاء الذين يعرفون كيف يتصرفون بلين ولطف مرات قليلة حتى يتخلصوا من أعداءهم:

- حسنا عُد الأسبوع القادم، وسيخبرونك، ليس عندي وقت الآن..

كدت أقول له: "عندك وقت لجامعة السكرتيرة فقط وليس.." لكني صمت لأنه مهما كان الحال شعرت أني كسرت شوكته، وأضعفت من قوته، وأزلت الهيبة عن فخامته المزيفة تلك، وأخبرته بأنني سأعود، ويجب أن أعرف الإجابة النهائية وإلا..

لم يقل شيئا حينها كأنه فهم تهديدي، وأظنه استوعب ما ينتظره مني في المرة القادمة، استوعب أكثر ماذا يجب أن يفعله غدا، ولأنه كان يريدني أن أخرج، وأغرب عن وجهه بسرعة اختار الصمت فجأة، ومن جهتي وفرت عليه المزيد من الخجل، والغليان، وقمت منصرفا، وأنا أغلق الباب خلفي مغادرا مبنى المركز.

تركت المكان فرحا كأني انتصرت بالصدفة على مؤسسة كبيرة كهذه، ولكن لم يكن انتصارا كاملا حينها، كنت أعرف أنه ربما غدا سيجد شيئا آخر ليقمع حلم تحقق فيلمي على أرض الواقع..

لماذا ذهبت بذلك التصميم؟ كأن القدر كان إلى جانبي، أو كأن قوة خارقة جعلتني أذهب بشعور المنتصر لا المنهزم، والأصدق أن أقول أن تلك الفتاة ربيعة هي التي حمستني أكثر للذهاب دون أن تعرف تفاصيل مشكلتي مع المركز.

كنت أريد أن أسند لها دور البطولة في الفيلم قائلا بداخلي:

نعم هي لا غير الأصلح لتمثيل المرأة التي تريد الحياة في وسط حيّ يرى في المرأة خطرا على الحياة..

كثيرا ما تساءلت كيف يمكن لمجتمع أن يقبل أن يعيش والمرأة مختفية عن الأنظار، غائبة عن الحضور؟ هل يستطيع الرجل أن يفرح حقا بتلك الحياة الخالية من منظر النساء؟ أليس هن من يمثلن ربيع الحياة، وجمال الوجود؟

في حي "مارشي أثناش" تبدأ المرأة في الاختفاء ابتداء من الساعة السادسة مساء فمكانها الطبيعي هو البيت، يبقى في الشارع إلا الرجال فقط، كان الوضع ينطبق على كل الأحياء، وهي صورة بقيت تدفعني للشعور بالاغتراب والحيرة، كمخرج سينمائي يحلم بتقديم صورة شاعرية عن الحياة كنت أتصور أن يكون للمرأة دور البطولة دائما فهي التي يقع عليها تنمية الحس الحياتي المتدفق، وإعطاء المعنى الجمالي للأشياء.

فاتحت ربيعة في ذلك المساء عندما لقيتها بالقرب من الجامعة المركزية في موضوع الدور الذي قد أسنده لها، سألتني عن الفيلم وموضوعه، فأخبرتها أنها قصص عن الحياة اليومية، ومن خلال فتاة في الثانية والعشرين من عمرها تنظر إلى حيّها بعين المحبة وألم التساؤل.

فابتسمت بعمق، ونظرت حينها إلى السماء، ثم بكت.

لا أدري لماذا بكت حينها؟ ظننت أني قلت شيئا أزعجها، ولكنها لم تتفوه بكلام كثير كأن خبرا كهذا فتح لها ثقبا في السماء، وتركها تطير بأجنحة أحلامها إلى بعيد، وراحت تعتذر على دموعها التي انسابت من الفرح لا غير..

وكما كانت متيقنة من نجاحها في تأدية الدور كنت متأكدًا بدوري.

كانت ربيعة رقصة فرح، وأغنية ربيع جميلة، وفي عينيها ترقص كل الأحلام الشاعرية النادرة، ومن غيرها يستطيع أن يُجسد في فيلمي

الذي رحت أتخيله حينها رقة الوجود في واقع مظلم، وشاعرية الحياة في جسد ميت.

***

يظن الرجل، أو يحلم كلما التقي امرأة أن تكون بلا تاريخ مظلم، ولا ماض متعب، وبلا قصص معقدة لأنه يريد أن يراها في تلك اللحظة الأنسب له لكي لا يتحمل ثقل كل تلك الأشياء التي تجرها معها حيثما ذهبت، وأينما حلت، لكن هو يعرف في صميمه أنه لا توجد امرأة من هذا النوع، فكل فتاة وإن كانت في الثانية والعشرين من عمرها سيجد عندها ما لن تقوله ذاكرة مركبة من تفاصيل كثيرة يستعصي فهمها، والقبض عليها بسهولة، وما تحتفظ به سيبقى لنفسها فقط، وإن باحت به يكون ذلك من باب عدم القدرة على كتمان السر لفترة طويلة.

لم يكن عندي أي حدس بخصوص هذه الفتاة الجميلة فلقد صدقت ما روته لي من حكايات كثيرة عن نفسها، أغلبها لم يكن مهما، وشعرت أنها قصص يمكن أن تُحكى للجميع، إنها الواجهة التي تلمع ولا نعرف ماذا يوجد خلفها. كل الناس تحمي نفسها بهذا الشكل، تقول فقط ما يجب قوله، وتروي ما لا يخدش الصورة الداخلية التي تبقى منطقة الأسرار الخفية على أنظار الفضوليين، وحرفة المتجسسين.

بالنسبة لي كل ما شد انتباهي من الوهلة الأولى لم يكن إلا كونها تحمل نظرة حالمة، وإرادة قوية لبلوغ السعادة، وأنها على عكس من شاهدت منفتحة وجريئة، وهي أحسن من يقدم لي ذلك العون العاطفي المنشود في غربتي الثانية.

في بلغاريا لم أعقد كثيرا حياتي بهذا المشـــكل، كانـــت عنـــدي الدراسة، والموسيقى، والعمل، والقراءة، فكان وقتي مشغولا بكل مـــا أحبه تقريبا، وعندما كنت أشعر بحالة فراغ تستولي عليّ، أو اكتئـــاب يستنـــزفني كان يمكنني أن أذهب لأي حانة، وأترقب أي امرأة أشـــعر أنها تريد أن تقضي بعض الوقت الممتع، وكان يكفي دعوتهـــا علـــى كأس، وتبادل الحكايات في أمور غير مهمة، أو النكت، أو القصـــص المضحكة لنذهب بعدها مع بعض نكمل السهرة في بيت واحد منا، ثم نقضي على ذلك الشعور بالعزلة والكآبة النسبية، ونحن نمارس الحـــب على أجمل صورة، كأن تلك الغاية وتلك اللحظات هي خلاصة الحياة الحقيقية، فإذا ما استيقظنا صباحا، تحررنا من ثقل ذلك الـــذي كـــان يفسد علينا المزاج، ويوتر أعصابنا طوال الأيام الـــتي حرمنـــا منـــه، ثم يذهب كل إلى طريقه دون أن ينتابنا أي شعور بالذنب، أو الإحساس بأننا أسأنا للحياة بفعل شاعري جميل كالحب.

بعد عودتي إلى الجزائر قضيت ستة أشهر دون أن ألمـــس جســـد امرأة، ووجدت صعوبة في تقبل ذلك خاصة، وأن واحدا في الحانة دلني على بعض نساء الليل وقال: "بَرَدْ أَزْعَافْك فِيهُنَ" نعم بهذه الجملة التي وقعت على أذني بطريقة مفاجئة وقلت بداخلي:

حتى تعبيرنا عن ممارسة الحب يأخذ شكل عنف حقيقي فيصـــبح الجنس مجرد تبريد للغضب الرجولي فقط..

صحيح كانت حانة "المرسى الكبير" تعج بهاته النسوة من مختلف الأعمار والأشكال، وكثيرا ما تحدثت مع بعضهن لمجرد الحديث، وكن يشعرن بظلم كبير نحوهن، أو سوء فهم، أو قصر نظر، بدَوْنَ لي دائما متقدمات في في الوعي، وفي رؤيتهن للحياة على الرجال، وغير مباليات بالنظرة التي تلقى عليهن من طرف المجتمع، كن يشعرن بنفاق الواقـــع،

وازدواجية تعامله معهن.

أعترف بأني كنت ضعيفا نحو واحدة منهن، كانوا ينادونها "أسمهان" كانت في الأربعين من عمرها، وذات جمال مثير، وجسد يشتهى من أول نظرة، وكانت تحسن الحديث، وتترقق في الكلام، ولأن اسمها المستعار الذي اختارته لم يكن عبثيا كانت تغني أغاني أسمهان بصوت عذب جميل.

كنت أبادلها الحديث، أو إن قلت الصدق كنت أستمع لها غالب الأحيان، فهي تتمتع بمواهب في الحكي، وصراحة في إبداء الرأي، وهي تتحدث بعفوية نادرة، بلا لف ولا دوران دون أن تهتم بالأثر الذي يتركه كلامها وجرأتها عليك.

أول مرة تحدثت معي دخلت الموضوع مباشرة:

- أراك مستغربا أحيانا في تقبلي لعملي، لكن أعدك أنني سعيدة به، لقد حملت عاري طويلا بداخلي، لكنني الآن لم أعد مبالية بذلك، وأتساءل كيف حملت عار هؤلاء الرجال، وليس عاري كل هذه السنوات من عمري، كان عندي زوج لا يدخل البيت إلا ليضربني، أو يهينني، أو ليشعرني أني أقل من دودة زاحفة يمكنه أن يعفس على رقبتها فتتمزق في رمشة عين، وكنت أتقبل ذلك بصمت المقهورة قائلة إنه الرجل، رجلي أقصد، هذا الذي يوفر لي بيتا، وأكلا، وملبسًا فكيف أغضب منه، زوجوني منه صغيرة، وقالوا: لا تعودي إلينا أرجوك.. لقد تربيت على العنف، أبي كان يضربني هو الآخر لمجرد أن يشتبه في أن شخصا يهتم بي، كما لو أني أنا المسؤولة عن هذا الاهتمام، وبعدها انتقلت إلى زوج معقد نفسيا، بل مليئ بكل الأمراض النفسية التي جمعها فيه، غيور

هو الآخر يشتبه حتى في نملة إن وجدني أنظر إليها، وبسرعة صار يضربني هو الآخر، تقبلت ذلك الضرب منهم جميعا، كانوا يفعلون ذلك لمصلحتي، ولأني حسبهم خائنة بالفطرة، ومستعدة لأن أفسد الرجال الأطهار في أي لحظة.. حسنا لقد حان الوقت الآن لأفسد الجميع، فهم في النهاية يحبون المفسدات مثلي. انظر لهم كيف يأتون إلى هنا، ويرمون الأموال على أجسادنا، كأنهم لم يروا جسد امرأة طوال حياتهم التعيسة. كيف تريدني أن أقنع بدور الزوجة المطيعة الآن، وهؤلاء الرجال يأتون نحوي لكي ينسوا زوجاتهن المطيعات، لا لم يعد عندي أي مشكلة من هذه الناحية، أنا سعيدة بعملي، وهم يدفعون أكثر لمن يروها مستبدة، وتلعب دور من يؤدبهم على أخطائهم.. صدقني لو كنت أعرف أنهم على هذا الشكل لاخترت أن أكون عاهرة منذ حداثة سني هذا أحسن بكثير من رفس أقدامهم الخشنة كل يوم باسم الولاء الزوجي، وغير ذلك من الأفكار التي يحشون رؤوس النساء بها.

كان بوح "أسمهان" نوعا من الصراحة التي لا تستعملها مع الجميع، فهي ذكية بقدر ما هي شيطانية خبيثة، أما أمامي فلا أعلم السبب الحقيقي، أو ربما لأنها شعرت أني لا أحاول الاقتراب منها كثيرا، وأن دوري في الحانة يقتصر على العزف فقط، وأني عندما أعزف أغرق في عوالمي وأنسى كل ما حولي من كائنات خيالية، وأرواح بخارية أو هكذا تصبح بفعل الشرب، تشبه الأشباح التي تطفو في جغرافيا مهجورة مقبرة نسيان العالم، جزيرة لوحدها وسط بحار لا حدود لها تطفوا فوق ماء غير مرئي وترقص لوحدها غير عابئة بنظام

الكون، وقوانين العالم، كأنها تعيش حياة أخرى فيها الكثير من الغواية، والسحر والدهشة.

طلبت مني أسمهان مرة واحدة فقط أن تصحبني للبيت عندما تأخرت في الحانة ولم تجد زبونا يأخذها إلى حيث يريد، فاعتذرت بادئ الأمر، ثم قبلت أن تقضي الليلة في بيتي، وراحت طوال الطريق تمازحني قائلة "لا تخف لن أعتدي عليك" وعندما وصلنا للبيت صعدت أنا الأول ثم لحقتني هي على أمل أن لا يشاهدنا أحد من سكان الحيّ، فلقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وما إن دخلنا الشقة حتى سألتني عن المكان الذي تنام فيه فأرشدتها لإحدى الغرف، وبعد ربع ساعة ذهبت لأسأل إن كانت ترغب في شرب شيء ما، فوجدتها غاطسة في النوم كطفلة بريئة..

كانت "أسمهان" هي الوحيدة التي صادقتها نوعا ما في الحانة، الأخريات لم يكن يرغبن في تضييع الوقت مع رجل مثلي يعزف بجنون هستيري الموسيقى الأمريكية، وله أفكار مثالية لا علاقة بها بالواقع اليومي الذي يعيشونه، لقد كنت أفهم جريهن كل ليلة وراء ربحهن، فلهن حياة أخرى خلف هذا الستار الأسود الذي يفقدن فيه حقيقتهن، ويستعرن بدلها حقيقة أخرى، لوحدها أسمهان شذت عن القاعدة، ولا أخفي أني لمست فيها شبها ب"آنينا" البلغارية رغم أنها كانت سمراء البشرة لكن كانت في مثل سنها تقريبا، وتملك جسدا رهيباً يفتح شهية الرغبات، يتقطر بعنف الشهوات المثيرة، لقد كانت تحسن إظهار مفاتنها بطريقة أخاذة تجعلك تراه بهذا الشكل الذي يسحرك، ويبقيك في منطقة التهيج العنيفة، فتنسى نفسك عندما تقترب منه، وخاصة ما تدخره في جيوبك.

حافظت في البداية على نوع من الصداقة البريئة معها، دون أن نذهب إلى الممارسة الجنسية رغم أنها كانت تلهبني كلما اقتربت مني،

وكثيرا ما كانت تشعر بذلك، وهي تضحك مبتسمة من تأثيرها عليّ "ماذا ألم تشتعل بعد؟" أو بطريقة ساخرة أخرى "أريد أن أعرف كم من الوقت ستصمد" ومرة مبتسمة دائما "بدأت أشعر بأني ذميمة لأنك لا تريد أن تفعل ذلك معي" لكن من جهتي خفت أن أخسرها لو ذهبت معها إلى أبعد من الحد الذي رسمته في ذهني لعلاقتنا، وأيضا كان قلبي مخطوفا بربيعة، فتاة الجيران الصغيرة والحالمة مثلي والتي كانت دون حتى أن تعي ذلك تبحر بي في سفينة عشقها إلى أبعد مكان في البحر الرهيب للحب.

عندما سألت أسمهان عن الحب ضحكت مقهقهة:

- هذا أتركه للحالمين مثلك.
- لماذا؟ ألا تعتقدين أن الإنسان يجب أن يُحب ويَحب.
- ربما.. لكن لا ينطبق هذا الحديث عليّ الآن، لقد زوجوني صغيرة قبل حتى أن أبدأ في التخيل، في رسم صورة لرجل أحلم به يأتيني فوق حصان أبيض (تتوقف ضاحكة أو حالمة) وبعد الزواج صار الرجل بالنسبة لي أحقر مخلوق على الأرض (بقسوة قالتها) أعذرني على هذه الصراحة، ثم وجدتني مرمية على الطريق هاربة من ذلك الجحيم بدون قدرة على الاستمرار في تلك التمثيلية التعيسة.

(تصمت كأنها تتجرع مرارة ذكريات قاسية) تعود للكلام:

- والذين ساعدوني لكي أقف على قدميّ لم يكن دافعهم الشفقة بل الاستغلال لا غير، واستغلوني كما يريدون دون أدنى شفقة، أعرفهم جميعاً، كما أذكرهم واحداً واحدا من صاحب محل الملابس الجاهزة الحاج مختار، إلى صاحب مطعم الفصول الأربعة، إلى الشرطي كريمو، الكل قال لي في أول الأمر: أنا

لك المنقذ، وينقذونني لشهور قليلة في أماكن معزولة يفرغون فيها شحناتهم الجنسية ثم يطلبون مني المغادرة بعدها، لم يكونوا منقذين بل لصوص متعة، وسراق رغبات، احتجت إلى وقت لكي أفهم ذلك، أشرح لنفسي ماذا يحدث لي، لماذا يحدث لي هذا؟ لماذا هم هكذا؟ فهمت قليلا: الرجال يريدون من المرأة الاستمتاع لا غير، أما التي يرونها صالحة للزواج فهذه هي النعجة الطيبة الوفية التي تقبل العبودية، ولا تقول أي شيء.. لهذا فضلت أن أعمل على أن يستغولنني بالمجان، ولم يكن عملي الجديد يحتاج لذكاء، أو مهارات خاصة فقط كان عليّ التردد على الحانات، لأجد من يريدني بمقابل، لم تكن الأمور يسيرة وسهلة في البداية، تعرضت مع ذلك للاعتداءات والسرقة، وغير ذلك، سهل أن تخدع امرأة لا يحميها أحد، لا الرجل، ولا القانون، ولا المجتمع، ولا الدولة، لكن الآن أسمهان لها خبرة عشر سنوات هاهاها.. نعم عشرت سنوات هذا كاف لأقتنع، وأجيبك على سؤالك أن الحب قصة تصلح ربما للآخرين، وليس لي..

كان كل سؤال أطرحه عليها تجيبني عليه بحكاية طويلة، وتأمل في الحياة التي عاشتها حتى أني كنت أتساءل كيف قدرت هذه المرأة على مواجهة كل هذه الظلمات؟ يجب الاعتراف بأن قلب الإنسان أقوى من جسده، وأن روحه مهما أراد لها الآخرون من شر، وهم يدفعونها دفعاً أن تسقط في مستنقع الحضيض تبقى شامخة دائما، تتبدى في نبرات صوتها الواثقة، والتي لم تفقد حبها العميق للحياة، وكل ما عاشته لم يخدش كرامتها الداخلية كامرأة معتزة بنفسها، وتفعل ما تريد.

على عكس أي شخص قد يجد في سماع قصص أسمهان ما يثير تقززه، وألمه، فالعاهرات عادة ينظر لهن على أنهن فرصة للنسيان وليس التذكر المرير للحياة، كنت أبصر فيها تلك القوة الإنسانية التي لا تقهرها الظروف، ولا تهزمها المآسي والمصاعب، كان يمكنني أن أقول لها بكل صدق هذا الكلام:

"الروح أشرف ما في الإنسان".

و"أنت التي يرونك وسخة وقذرة وتستحقين الموت على الحياة..بوركت أيتها القديسة الشجاعة أنت تعرفين طريقك أحسن مني بالتأكيد وأنا لا أعرف غير أن أنحني لك تقديرا لهذا العناد الذي قطعت به طريق ظلماتك حتى تصلي إلى لحظة صفاء مع الذات".

لقد فكرت في أسمهان كي تكون هي الأخرى بطلة في مشروعي السينمائي، سيكون رائعا الفيلم بحضورها حتماً، امرأة أخرى تتحدى وقائع الحياة اليومية التعيسة، فيلم على طريقة فريديريكو فليني، وهو يدمج النساء في عالم كرنفالي متعدد الألوان، والأطياف، والأصوات. في "مدينة النساء" حيث العالم صرخة حياة لا موت، ونشيد يتعالى كسمفونية خلود تلحن في سماء الأزل.

***

ماذا أقول لربيعة؟

أريد أن أمسكها من أصابع يدها، وأطير، حيث التحليق في الأعالي يكسب الإنسان نظرة شاعرية للحياة، أريد أن أضعها بين ذراعي، وأحلم، أحلم أني أمتلك في تلك اللحظة عالم الوجود الآخر، وأصرخ معها بجنتي وعذابي، بكمال حلمي وطاقات روحي المحلقة، هي منتهى حبي، وقمة شهوتي..

ربيعة هل تسمعين صوتي الآن، دقات قلبـــي، رعشات هذا النداء الآثم بداخلي، أنت الحياة، وبدونك من يسقني إياها؟ ومـــن يفـــتح لي نوافذ روحي حتى لا تقتلها الأقفاص الخانقة؟

***

بقيت أفكر في هذا الفيلم الجهنمي الذي سأشـــرع في إنجـــازه ببطلتين من تجربتين مختلفتين، ورؤيتين متباعدتين، كل واحدة تحكـــي عن عالم الوقائع اليومية، الأولى تسرد تجربتها في النهار، والأخرى في الليل.

إن أجمل الاشياء تتحقق بأحلام كهذه، والسينما ما هي إلا حلم، ومضات حلم، رقصة حلم، ضوء حلم، نهر حلم، شـــعر حلـــم، وإذا رغبت أن تكون سينمائيا حقيقيا يجب أن تؤمن بالحلم من البداية..

كنت معجبا بالمخرج الروسي أندري ***تاركوفســـكي*** وبســـيرته المدهشة "النحت على الزمن" كانت طريقته في جعل الواقع الضبابـــي، الذي يحتجزنا نحن البشر منفذا للروح كي تنظر إلى العالم بعين ثالثـــة، فيها الواقع، وفيها السحر، فيها الصراخ الحياتي، والصمت المتأمل، فيها الأشواق والحنين، وفيها البحث المستمر عن خيط يربط كـــل هـــذه الأشياء بعضها ببعض.

إن السينما هي التي توثق لعالم جديد، وتصنع من كآبتنا فرحا، أو لحظة غوص وتأمل، أو حزن، أو فرح، أو انتظار، أو أمل.

هذه المدينة تحتاج لأحلامي، وليس لشيء آخر، تحتـــاج لصـــور ترفعها إلى أعلى، فهي لا ترفع رأسها كثيرا إلى السماء، ذلك أن عيونها مندمجة في الأرض، هي مسلوبة الإرادة، وترفض أن تعـــيش بموســـيقى الضوء، وشاعرية الأحلام، تريد أن تبقـــى مســـجونة في الإسمنـــت،

والحديد، والجدران التي تفصل الحياة عن الشعر، والسينمائي عليه أن يفعل ذلك، أن يرفع نظرها للسماء لتقول:

آه كم، هي جميلة، كم هي زرقاء، كم سحبها خفيفة، وأني بحاجة إلى ذلك كله كي أعيش وأمضي، وأتقدم، وأبني شيئا مختلفا في هذه الحياة.

هكذا بدأت أحلم وأخطط، وأرسم سيناريوهات لوقائع الأحلام.

* * *

أطلب من ربيعة ما لم أجرؤ على فعله من قبل:

- هل تأتين لبيتي هذا المساء؟
- ماذا؟
- كرهت أن نلتقي في الخارج، وأنت تعلمين؟
- أعلم ماذا؟
- ما أحمله لك من مشاعر؟

لم تقل شيئا بقيت نظرتها ملتصقة بالأرض، وعلامة استفهام كبيرة ترتسم في وجهها، سعيدة، وغير سعيدة، عادة ما يكون الاعتراف بالحب من طرف واحد مخيبا للآخر، كأن الحب لا يقبل بالاعترافات المفاجئة، ولكنها سألتني دون أن تسأل: هل تحبني؟

- كثيرا، وأريدك أن تكوني بجانبي.

جاوبتني أخيرا:

- أريد طبعا.
- اليوم أنتظرك على الساعة الثانية بعد الزوال
- سأحضر.

وعدتني بالحضور، تركتني أرقص من السعادة، وأغني من الفرح.

* * *

ومع ذلك لم تأت ربيعة لشقتي في ذلك المساء، انتظرتها بفارغ الشوق والحلم، أحضرت الأكل والمشروبات، وجهزت الشقة لتكون مناسبة لاستقبالها أنا الفوضوي الذي لا يهتم كثيرا أين يرمي ملابسه عندما يتخلص منها، ولا كتبه، ولا أوراقه، قمت بحملة تنظيف واسعة من الصباح حتى منتصف النهار دون أن أحس بالتعب فلقد كانت نشوتي فاضحة، وكيف لا، وأخيرا ستأتي الفتاة التي تهيج مشاعر قلبي كل ليلة إلى بيتي.

عندما وصلت الساعة الخامسة شعرت بألم كبير، وأيقنت أنها لن تحضر، هكذا هن النساء يفاجئننا دائما، ويخيبن أجمل التوقعات، يسقطننا في خيبة الداخل العميقة، لحسن الحظ كان هنالك دائما صوت يحذرني من الاستمرار في هذا الطريق، لكن بقيت أجد لها الأعذار ربما وقع لها شيء، ربما حدث لها مكروه، ربما منعوها من الخروج، من يدري في مثل عائلاتنا ماذا تواجه الفتيات من صعاب في التنقل، والتحرك.

ألم تخبرني بعمليات الاستنطاق الطويلة التي تمارسها أمها عليها أحيانا عندما تتأخر قليلا خارج البيت:

- أين كنت؟
- مع من كنت؟
- ماذا فعلت؟
- كيف تأخرت؟
- لماذا لبست هذا اللباس اليوم؟

أعذار كثيرة سأحاول أن أخفف بها من ثقل ذلك الإخفاق في رؤيتها في بيتي، والاندماج معها أخيرا في لحظة عشق لا تهدأ إلا لتستعر من جديد كنار أبدية خالدة..

يا للوهم..نتعلق بأحلام، ونظن أن السماء ستساعدنا على تحقيقها لأننا تعلقنا بها ما يكفي كي تنفتح الطريق، كل الطريق، كي لا تقف أية حجرة عثرة أمامنا..

انتظرتها أطول وقت ممكن حتى تأكدت أنها لن تجيء فذهبت للحانة، وعزفت كعادتي على الساكسفون، وأنا في حالة تململ وحزن، لا أدري لماذا من بين جميع الحاضرين حينها لم تأتي إلا أسمهان للحديث معي، وقد لاحظت هذا الحزن في وجهي، لم أخبرها بما حدث، تكلمت معها لأول مرة عن مشاريعي السينمائية، ورؤيتي للفيلم الذي أود تحقيقه، وأخبرتها عن رغبتي في أن تكون ممثلة رئيسية، وأقنعتها بأن هذا الفيلم سيكون صرخة تنديد، ودعوة لشاعرية الحياة.

ابتسمت لي، وهي تقول:

- جميل مشروعك، لكن لا أستطيع تصديق الرجال.

أجبتها بغضب هذه المرة وأنا أحاول أن أستفسر عن سر هذا الكلام:

- لماذا لا تصدقيني؟

ردت دون أن تهتم بما قلته لها:

- هكذا لا أدري.. لكن طبعا أقبل أن ألعب اللعبة، وأكون في الفيلم.. ما قصدته ليس له علاقة بمشروعك الجميل، ولكن كونك تخفي حالتك عني.
- أية حالة، كما تريني أنا كالمعتاد.
- طبعا.. طبعا لكن اليوم أحس بك منكسرا. ماذا حدث لك؟
- لا شيء، فقط لا أدري إن كان مشروع الفيلم سيتحقق أم لا؟

- إن كنت تؤمن به ستحققه، وليس شرطا الآن، ربما غـــدا، أو بعد سنوات، ربما في مكان آخر، أنا مقتنعة بأن إيماننا بما نحلم هو المعجزة الوحيدة التي يمكن عن طريقها أن نحقق ما نريد.

ثم صمتت، وأخرجت علبة سجائر "الجيتان" الزرقاء من حقيبـــة يدها، وطلبت مني أن أشعل لها واحدة ففعلت دون حـــتى أن أرفـــع بصري إلى وجهها، فهي كانت كالعادة مُتأهبـــة الـــروح، مُســـتنفرة الحواس، وفي كامل إغرائها الجسدي، يكفي أن تقترب حـــتى تحتـــرق بنارها دون أن تملك الوقت لفهم ماذا يحدث لك..

بصعوبة بعد أن طال صمتها الذكي سألتها:

- هل تأتين معي للبيت هذه الليلة؟

فضحني سؤالي المباغت عندما راحت تضحك مقهقهة مما أثـــار أعصابـــي حينها فسحبت على الفور طلبـــي، وقلت بنرفزة شديدة:

- حسنا..لا داعي لذلك.

وهممت بالانصراف لولا أنها أمسكتني مـــن ذراعـــي الأيمـــن، وسحبتني نحوها بقوة، وراحت تطبع على شفتيّ قبلة ساخنة اهتزت لها كل فرائسي، ثم قالت:

- كيف تتصورني أضيع فرصة طلبك أيها الأحمق، وأنا أنتظرها منذ وقعت عيناي عليك، وأنت واقف هناك في زاوية الحانـــة تعزف تلك الموسيقى النادرة، وتنقلني إلى عالم آخر ليس لـــه أدنى علاقة بمعيشي اليومي.. أنا رهن إشارتك أيها الشـــاعر، أيها الحالم، وتحت تصرفك، وبدون أن تدفع لي شيئا..

أخذتها معي للبيت، وقضيت ليلة جهنمية بامتياز.

الفصل الخامس

الزمن كفيل بتجريدك من كل شيء، تتعلم منه حكمة الخسارة، واستحالة النسيان، تسمع أصوات أناس تحثك على السير قُدُماً إلى الأمَامْ، تدفعك دفعاً إلى هذا الأمام، وتسألهم:

"ماذا يوجد في هذا الأمام؟"

فيضحكون بصوت واحد، ثم يقولون لك:

"تقدم وستعرف".

تتقدم مسرع الخطوات لأنك تريد أن تعرف، ولأنه المستقبل، وكل خطوة إلى الأمام هي قبض على هذا المستقبل، وعندما تتقدم تقف فجأة أمام هاوية المنحدر، تتساءل حينها بينك وبين نفسك:

ماهذا؟ هل تريدونني أن أموت؟ هل تريدون قتلي؟ هل هذا هو مستقبلي؟

صوت بعيد يقول:

"حذار من المستقبل.."

* * *

أُحدث أسمهان عن هذا الكابوس فتسخر مني، وتقول أشياء جميلة مع ذلك:

- أنت حساس فقط، ولهذا كل ما يحيط بك تراه سلبيا، لست فنانة حتى أعرف ماذا ترى؟ وبماذا تشعر يكفيني أن أحس أنك كتلة ملتهبة من الأحاسيس التي تفيض بحب على الناس،

وتخاف أن لا يبادلوك نفس الأشياء، أن يذهب حبك سدى، أنت لست بحاجة لتقنعهم بأي شيء، افعل ما تراه صحيحا، وانتهى الأمر، ودعك من السوء فهو موجود في كل زمان ومكان..

كلا لم تخلصني أسمهان من حبي لربيعة، ولكن أنعشتني، ودفأتني، وسربت الكثير من الأحاسيس الإيجابية ناحية قلبي، خففت من وطأة الوحشة والغياب، من ثقل الانتظار والروتين اليومي، والتعود على نمطية الحياة في مدينة الجزائر العاصمة حيث لا مفاجآت، ولا توقعات بتغير الأمور إلى أحسن..

لم ألتق ربيعة منذ ذلك اليوم حتى أعرف ماذا حدث لها ولماذا أخلفت موعدنا في البيت وبما أن أسمهان قررت البقاء معي بالبيت تدريجيا لم أحاول أن أسأل عنها، كأنها سدت ذلك الفراغ، لكن لم تستطع ملأه، كأن الحب شيء آخر لا علاقة له بالجسد والحنان.

أسمهان أعتبرتها تجربة، وقالت لي بصراحة:

- ليس حباً ما يجمعنا، ولكن أنا أعتبرها مشاركة وجدانية، وأنا أحب أن أجرب شيئا كهذا فمنذ زمن طويل وجسدي مجرد سلعة أتاجر بها، أريده أن يتذوق شيئا آخر دون أن يكون من وراءه أي مصلحة، هل تفهمني؟
- نعم أفهمك يا عزيزتي، وأفهم أني سعيد بتواجدك معي في البيت.
- أحيانا أقول أنك نقطة ضوء في نفق حياتي المظلم..

لكن المشكلة لم تكن في تفهمي أنا، وحب أسمهان للبقاء معي، كان في الجيران، في سكان حيّ "مارشي اثناش" الذين بدأوا يلاحظون تردد هذه المرأة الشيطانية الغريبة في ملبسها، وزينتها، وطريقة مشيتها

على مسكني فصار لسانهم يذكرني بأسوأ النعوت، ويتحدثون عني في مجالسهم الخاصة والعامة، وصرت أشعر أنهم يتجنبون حتى طرح السلام عليّ في درج العمارة عندما أتقاطع مع أحدهم، عرفت حينها أن الخبر انتشر بسرعة البرق، وأنه لا مفر من المواجهة، إن لزم الأمر ذلك، فلن أسمح لهم بالتدخل في حياتي، ما دُمت لا أتدخل في حياتهم، ولا أحشر أنفي في قصصهم، رغم أني سمعت منها الكثير فلا شيء يخفى على أحد هنا، فكل واحد يشعر أنه يحمل مهمة رسولية في توصيل الشائعات الشنعاء عن غيره، خاصة إذا كان على خصومة معه..

كنت أعرف بأني شخص غير مرغوب فيه بالحيّ منذ عدت من بلغاريا، فلم يسلم عليّ حتى من كنت أعرفهم من صغري، بعضهم تجنبني تماماً كما لو أني جئت حاملا مرضاً خطيرا، والبعض لم يأت ليهنئني بالعودة خاصة من الجيران، ثم ظلت التهمة تلاحقني كما قد تلاحق كل من هو في مثل حالي وهي أني شاب أعزب، وأسكن في شقة لوحدي، وهذا كاف لخلق البلبلة في النفوس، والمخاوف في الصدور، فأن تكون أعزب فهذا لا معنى له إلا أنك ستقع في الرذيلة إن عاجلا أو آجلا، وأنه من الأحسن لي إن وقعت في ذلك الفساد المنكر أن أقع فيه مكان آخر، فهُم لا يمانعون أن تحدث مثل هذه الأشياء إن حدثت في صمت مطبق، وبعيدا عن أعين القبيلة، وأنظار العسس القدامى، ولعلهم يفعلون ذلك هُم أيضا بطريقة سرية فلا تخرج حكايتهم للعلن، كما كان من الضروري لمن هو في حالتي أن لا تسقط نظرتي على واحدة من بناتهم، إلا إذا كانت النية طبعا هي الزواج، فهذا سيفرحون به كل الفرح، وبخاصة أني أملك شقة في حيّ بالجزائر العاصمة، وهذا في حد ذاته امتياز ما بعده امتياز.

مع تفهمي لما يجري من حولي لم أجد الطريقة المثاليـــة لأواجـــه المشكلة، فأنا من جهتي أيضا لم أسع للاتصال بأحد، ولا التحدث مـــع أي شخص، كانت الوحيدة التي تعرفت عليها هي ربيعة، وذلك لسبب وحيد أنها هي من بادرت عندما طرقت باب بيتي، ولولا ذلك لربما ما كنت لأسمع باسمها، وما كنت لأعرفها أبداً.

أنا في النهاية ابن هذه الأحياء الشعبية، وأعرف طرائق تفكيرهـــا، وخطورتها على الأفراد المختلفين، ويستطيعون بسرعة التجمع في جماعة شريرة عندما يشعرون بأن خطرا مهددا لهويتهم المشتركة، فيتحدون في جماعة متجانسة من الصعب حتى التحدث معها، كالغوغاء التي تصرخ وتهدد وتنتقم وهي لا تترك لك أي فرصة للدفاع عن رؤيتك وفهمك للأشياء.

أخبرت أسمهان بما يجري من غمز ولمز فضحكت كعادتهـــا مـــن تخوفاتي تلك.

فعندما أظن أنني في ورطة تخرجني منها بتساهلها مع القضية، وهي تضحك كأن لا شيء مهم، ثم تقول لي:

- أنا لا أخشاهم، وأستطيع أن أضع كل واحد في منـــزلته التي يستحقها، لا تقلق عليّ..

كلامها مع ذلك لم يثلج صدري، أو يضعف من مخاوفي حينها، وهي قد تتصرف بسوقية كبيرة مع من قد تسول له نفسه أن يصـــدر نحوها أي كلمة سيئة، أو يتصرف بأي سلوك عدواني، فلقد شاهدتها عدة مرت في الحانة تبهدل رجالا بطولهم وعرضهم، وكانوا يصمتون صاغرين، أو يتركون المكان فارين، لكن في الحيّ لو حدث شيء من هذا القبيل كيف سأتصرف؟ وماذا أقول لهم؟ وهم حتما إذا خـــافوا منها سيتوجهون نحوي باللوم، ويوجهون عدوانيتهم ضدي، فكيـــف

أرد عليهم؟ وهل أستطيع أن أتعامل معهم بتلك السوقية؟ في النهاية اعترفت لنفسي بأنني مثالي جبان وأنهم سيغلبونني حتما بوقاحتهم تلك.

في ذهني قلت متسائلا:

هل خلق الفنان عندنا ليواجه هذه المشاكل؟ ليغرق في هذا النوع من المستنقعات؟ وماذا يفعل بتلك الأحلام الكبيرة التي تعيش في قلبه؟ هل تكسرها مثل هذه الأمور السخيفة، وتدخلهم العشوائي في حياته الخاصة؟ على أي جبهة يحارب الفنان، جبهة الحرص على حريته الشخصية أم مواجهة المؤسسات التي تقمع مشاريعه الفنية؟

حاولت أن أقنع أسمهان أن تلبس ملابس لا تثير ولا تستفز أحدا منهم، وأن تكون حذرة في كلامها وطريقة سيرها، ومن الأحسن، إن استطاعت أن لا يروها بالمرة، فغضبت مني، وراحت تصرخ بهستيريا في وجهي:

- لماذا أفعل ذلك؟ أنا لا أخشاهم..

أجبتها بضعف:

- نعم أعرف، لا تغضبي، أنا من يخشاهم لأني أكره هذا النوع من المشاكل.. تضيع الوقت، وتبدد الطاقة في تفاهات لا أحتاجها في الوقت الحاضر، أريد أن اركز على الأهم في حياتي.
- ظننتك شجاعا، ومقتنعا بمواقفك المبدئية، لماذا تتخاذل الآن مع أول امتحان حقيقي تواجهه، أليس هذا هو الواقع الذي ترغب في تغييره من خلال فيلمك.
- لم أقصد هذا، أتساءل فقط: ما الفائدة من مواجهة متعصبين وجهلة هم أقوى دائما في أمور كهذه.

- أقوى لأننا نتخلى لهم على المكان بسهولة، اليوم يطلبون منك هذا، وغدا ماذا سيقولون؟ كلما تنازلت عن شبر من الحرية أخذوا منك شبرا آخر.
- أنا لست قويا إلى هذا الحد.
- حسنا سأترك لك الشقة، سأتركك أحسن.

لا أخفي بأن قرارها أراحني فجأة، فلم أكن قادرا لا على مواجهتهم، ولا على سماع صوتها، وهو يذكرني بشجاعة لم أكن أمتلكها مع هؤلاء، وكيف تستطيع أن تكون شجاعا مع جدار يشكلونه عندما يتحدون ضد من يرونهم فاسقين أو منحلين؟

ذهبت أسمهان دون ن تأخذ أمتعتها من بيتي، وتركتني من جديد غارقا في نفسيتي المتعبة حينها، التعب في روحي المتعطشة والمنهكة، ولولا أنني بقيت متمسكا بحلمي السينمائي لكنت تركت لهم البلد.

كنت أقول: ربما لو نجحت في السينما سأحقق ما أريد، وقد أسكن في حيّ أرقى من هذا "المارشي أثناش" فهناك أحياء تعيش فيها طبقة صغيرة لا يهتمون بهذه الأمور، هم محظوظون بالتأكيد، يعيشون في راحة وطمأنينة بعيدا عن البقية، ونحن محكومون بكل هذا الانحطاط والتعفن.

رغم ذهاب أسمهان، ومغادرة البيت لم يمنعهم ذلك من إرسال شخص للحديث معي، لقد اقترب مني في الشارع وقدم نفسه على أنه حارس العمارة، وأخبرني بأنه فرح لأني طردت تلك "الخامجة" وأنها كانت ستفسد الحيّ بأكمله، نظرت إليه أول الأمر باستغراب لأني شعرت أنه يتكلم عن أشياء لم يكن مقتنعا بها، ثم حدقت في وجهه جيدا قبل أن أقول: لم أفعلها، ذهبت لوحدها، فخفض بصره إلى

الأرض وقال "المهم ذهبت" فسألته من جديد: وما دخلك أنت في هذه المسألة؟ أصابه حرج شديد ثم أخبرني:

لا أدري.. هم طلبوا مني أن أكلمك، وأهددك إن لزم الأمر لكن أنا جئت أتكلم معك باحترام وأنصحك ابتعد عن الحرام هذا خير لك وللجميع.

ثم تركني وانصرف.

بقيت مندهشا للحظات، حاولت أن أستوقفه، وأستفهم عن الناس الذين بعثوه، ولماذا يقلقهم حضور امرأة لم تعتد على أحد، لكن ماذا كان سيقول حارس عمارة عن أشياء كهذه. رأيته يذهب وهو يعوذل ويحوقل مني حتماً، ومن جيلي اللعين.

* * *

ماذا يفعل الفنان في مجتمع كهذا؟

على من أطرح هذا السؤال؟ ليس على نفسي بالتأكيد، فأنا لا أعرف الإجابة، يكفي أن تجد نفسك محاصرا حتى لا تعرف، ثم تشك في قدراتك العقلية، ثم ترتاب من نفسك، ترتاب من أحلامك، فتضعف وتصغر، وتحسهم أكبر منك، تتذكر كل الأشياء التي وقعت لك، وقد تحدث لاحقاً لغيرك، تتمنى أن تهرب، وتبتعد لأنه في النهاية إذا واجهتهم ستخسر من البداية تلك المعركة التي لن يمنحوك فيها أي وقت لتحضر نفسك وجسدك لها، فقلوبهم صدئة، وعقولهم صغيرة، وكلامهم ببغائي، يرددون الكلام نفسه حتى لو كان كل واحد من جهته على دراية بأن أمرا كهذا قد يقع للجميع..

* * *

تركت العاصفة تمر منحنيا كي لا تقذفني إلى حيث لا أريد، وأنا مصر على أنه من الأحسن عدم المواجهة، في النهاية لا يريدون مني إلا أن أتظاهر مثلهم بأني شبيه بهم في كل شيء، رغم أنني لم أكن أصلي، فلا شك أنهم لاحظوا عدم ترددي على الجامع، لكن حتى هذا ليس ذنبا فالكثير لا يصلون عادة، وهم يصلون في شهر رمضان أكثر، وأنا لا أصلي لا في رمضان ولا في أي شهر آخر هل يعني ذلك أنني غير مؤمن؟ لا أعرف، لم أقل هذا؟ الإيمان شيء عميق في الإنسان يتجاوز بالنسبة لي السطحيات والقشور، حُجة باطلة سيقول لك المؤمنون: الإيمان هو ما وقر في القلب، وصدقه العمل، سأقو لهم: أنا لا أؤذي الناس، ولا أفعل الشر، بل غالب الوقت أسعى للخير، أليس هذا عمل المؤمنين.

بالنسبة لهم "العمل هو الصلاة، والصوم والزكاة وتجنب الفاحشة".

هكذا تخيلت النقاش لو حدث بيني وبينهم، وأعترف بأني لن أستطيع مجادلتهم، وماذا أستطيع أن أقول لهم بعدها، وأنا أشرب الخمر، وأزني.. يا للبؤس، أعوذ بالله، سيجلدونك جلدا حتى تموت.. لكنهم لا يعرفون كم أشعر بأني مؤمن بالله الرحمن الرحيم في قلبي. هذا يكفيني، ولكن لا يكفيهم، أما الحرية فلا داعي للحديث عنها فهي تعني في عرفهم الانحلال والشذوذ. يا سبحان الله، من قال ذلك؟ كيف تؤولون كتاب الله على هواكم؟ كيف؟ وأنت لماذا تريد من الحرية أن تكون مجرد انحراف عن الدين، والأخلاق والعرف، والتقاليد؟.. من قال لكم هذا؟ أعتذر، أنتم لا تفهموني.. أنا أنطلق من حرية الإنسان في أن يختار طريقه بنفسه، وليس تحت القمع والوصاية، حتى والسير في الطريق الذي تريدونه أن يسير عليه، أرجوكم، انتبهوا ستدمرون

الإنسان في قلوبكم وتعلون مكانه جدارا من الإسمنت البارد الذي سيقتل فيه الإيمان الحقيقي، ويقمع بداخله إرادة التفكير..

من يسمعك؟ لا أحد، أما صوتهم فمسموع في كل مكان، هم الأغلبية، هم الناس الطبيعيون، وأنت لست إلا منحرفا، وفاسقا وتريد أن تقلب الأخلاق وتعلي سافلها وتنزل عاليها، لست إلا مجرما يتستر بالحرية والفن ليفسد كل ما بناه الأجداد على مر العصور والأحقاب.

***

في ذلك الصباح المشرق ذهبت لأبحث عن حلمي عندهم كي أقبض عليه، حلم سبع سنوات دراسة في بلغاريا من أجل أن أصير هذا المخرج الذي أتمناه، وحلم أن تشاركني ربيعة هذا الطريق الذي سيفتح ثقبا في سقف هذا البلد المغلق.

كان ظني بعد مواجهتي الساخنة مع مدير الشرطة الوطنية للإنتاج السينمائي وإكتشافي لما يفعله في مكتبه مع سكرتيرته سيقود الحلم من السجن إلى الافراج.

لقد ظننت ذلك بحق، ولكن كانت المفاجأة في انتظاري وجدت حارسا بلا ملامح يتربص أمام الباب كأنه ينتظرني أنا وليس غيري، ما إن رآني حتى قفز من مكانه ليعلمني أن لا أحد هنا، وأنه عليّ أن أعود الشهر القادم..

حاولت أن أستفهم ماذا يحدث ولماذا شهرا بأكمله، وليس غدا مثلا طرحت أسئلتي ببرودة أعصاب، وبنفسية هادئة كأني توجست من البداية، شاعرا بالارتياب مما ينتظرني فبقي يردد:

- لا أعلم، لا أحد هُنا، لا تضيع وقتي ووقتك.

"رُحْ اللهْ أيْسَهَلْ أَعْلِيكْ"..

ها هي المفردات التي تقتل في الجزائر، الكلمات التي تحمل شحنات أكبر من كونها مجرد كلمات، بل شحنة سلب عنيفة تضع الفرد أعزل في مواجهة طاحونة الغياب القاتلة، وجها لوجه مع تلك الجدران اليابسة والأبواب المغلقة.

إنه الجدار، سأحس أولا بهذا الجدار في الخارج فقط، في الخارج لا غير، ثم يُصبح الجدار قائما في الداخل، يغرسونه بقوة، يستوطن في مكان من الأعماق، ويُصبح الفصل عميقا بينك وبينهم، والعزل عنيفا كأنك جئت من عالم آخر وتريد أن تدخل إلى عالمهم الحقيقي.

كان الحارس التعيس مُستعدا لأي سلوك عدواني، إنه لا يريد أن يسمعني، ولا أن يتكلم معي، إنه يريدني أن أذهب عن هذا المكان، وأغرب عن وجهه، وهو في حالة استنفار قصوى لأي شيء قد يبدر مني، وعليّ أن أكون المعتدي طبعا، لأن الجدار الذي وضعه الآن، وضعه قبله المدير، والمؤسسة، والبلد، وضعته الغمامة السوداء التي تحجب عن الناس رؤية أحلامهم تتحقق..

نظرت إليه بغضب، وصرخت:

- أريد رؤية المدير.

- لا يوجد أحد "قُتْلَكْ ماكَانْ حتى وَاحَدْ أَهْنَا رُوحْ أخْطِينَا".

حاولت أن أصرخ حتى يصل كلامي لأي شخص داخل المركز "سأفضحكم يا كلاب.."، وهنا كأني اعتديت على حرمة المكان، وشرف المبنى، ما إن سمع الحارس شتمي للمؤسسة حتى تقدم مني، وقبض عليّ بقوة من كم قميصي، ودفعني على الأرض، وهو يهدد:

- إذا لم تذهب سأهتف للشرطة.

إنه يقول لي: ابتعد أيها الأجرب عن المكان، ابتعد، وإلا رميناك في الحبس.

لا أدري لماذا تذكرت نصائح والدي حينها، وهو يحثني على عدم الاقتراب من الناس، لأول مرة فهمت كيف أن الناس خطرون عندما يكونون مندمجين في آلة جهنمية كبيرة من الأكاذيب والفساد..

لم أنتظر أن يفعلها الحارس وهو يهددني بطلب الشرطة، فقد رأيته يسرع للداخل ويطلبهم بالفعل، بينما بقيت واقفا أتأمل حالة الإهانة التي تعرضت لها، وللحظة ظننت أن كل هذا ليس إلا مسرحية لتخويفي فقط لكن الشرطة جاءت بالفعل، وألقت القبض عليّ، ورمتني في الحبس على ذمة التحقيق..

قضيت ليلتين دون استجواب في زنزانة إسمنتية باردة لا تسمع فيها إلا ثرثرة شباب مسجونين، كان مقبوضا عليهم بتهم مختلفة، ولقد بلعت ذلك الكبرياء المهان في صمت ذليل. وبقيت أرقب لحظة الخروج فقط لأنسى كل ما حدث لي من إذلال وتجريح.

لتذهب أحلامي الى الجحيم.. لا أريد شيئا من هذا البلد.. لا أريد أي شيء..

جاء عمي رضوان في اليوم الثالث لمكتب الشرطة، وصرخ، وسب، وشتم، وصمتوا بدورهم، فلقد أحضر معه شخصا ذا مكانة عالية، بفضله تمكنت من الخروج..

الرجل الذي كان مع عمي رضوان قال لي:

- لماذا لم تقل لي أنك تريد إنجاز هذا الفيلم، وأنا سأطلب لك الوزير نفسه، وهو سيساعدك.

قلت له:

- عفوا لم أكن أعرف أن الأمور تسير هكذا.

قال عمي مسعود بخجل:

- والدك المرحوم كان يرفض مساعدتي، ويبدو أنك مثله تريد أن تعيش بعيدا عن الواقع.

كان الواقع هو البعيد عني، هو الذي لا يعرفني، لكن عن أي واقع كان يتحدث عمي رضوان، هل هو واقع الناس الذين شعرت دائما أنهم يعيشون أسفل الدرج، مهزومين ومهانين، أم واقع الناس الذين يريدون أن تسير الأمور وفق قواعد لعبة خاصة بهم.

لقد اعتذرت من عمي رضوان، ومن الشخص المهم الذي تدخل في الوقت المناسب، وحتى من الشرطي الذي قبض عليّ ورماني في الحبس، قلت في نفسي: لن أبقى لحظة واحدة في هذا البلد، لقد عملت طوال ذلك الشهر على تحضير أوراقي للسفر من جديد إلى بلغاريا، أو أي بلد غربي آخر، كنت أتمنى لو كانت عندي الشجاعة لأخبر ربيعة بأني حلمت أن أحبها كما لم يُحبها أي رجل آخر، وأن أحملها معي وأطير، لكن لم أجد تلك الشجاعة، وفكرت أني عندما أغادر لن آخذ معي إلا هزائم أحلامي، وآلة الساكسفون، وروح خائبة وضليلة، وشبح فنان مقتول.

الفصل السادس

كان قرار السفر لا رجعة فيه، هكذا قلت لأسمهان التي بدت مغمومة، وهي تسمع مني هذا الحديث اليائس والمتشائم:

- ظننتك أقوى، وستقاوم.
- حتى أنا كنت أظنني هكذا، لكن ماذا أفعل؟ كما ترين أغلقوا كل المنافذ أمامي..
- هذا ليس سببا للهرب، أو التراجع عن أحلامك.
- بلى، أريد أن أنقذ أحلامي، لكن هناك وراء البحر في المكان الذي يناسب ما أطمح إليه.

فجأة صمتت، وأخرجت زجاجة ويسكي من الثلاجة، واقتربت مني، وهي تطبع على شفتي قبلة طويلة كانت مخدرة، كدت أدفعها عني فلم يكن مزاجي صالحا لفعل أي شيء حتى الحب، لكن لم أفعل شيئا، تركتها تغمرني بقبلها اللاهبة تلك، وتلعب بجسدي حتى شعرت بوخز النشوة تستيقظ فيّ من جديد، فأرتمي فوقها بدوري مقبلا ومحتضناً.

عندما انتهينا قالت لي:

- رغم أني أعرف أن ما يجمعنا لم يكن قط علاقة حب، ولكن سأشتاق لك دائما.
- وأنا أيضاً.. ظننت أنه يكفي أن يكون للإنسان موهبة وحلم ليقدر على مواجهة المستحيل، لكن هنا كل شيء صعب، يريدون أناسا معوقين ليتحكموا فيهم كما يشاؤون، قررت أن أهاجر، لا أشعر بأن مكاني هنا.

- ماذا ستفعل بالبيت؟ لمن ستتركه؟
- هذه التفاصيل هي التي تؤخر سفري قليلا، سأجد لـــه حـــلا طبعا، ثم عمي رضوان حتما سيطالبني به إن غادرت..

تركتني أسمهان لحالي بعدها، ثم اكتشفت أنها، خفية عني جمعـــت كل أمتعتها التي تركتهم بالبيت، وغادرت، فلم تعد إليه أبدا، وعنـــدما لقيتها في الحانة لم تكلمني، بدت غاضبة جدا من فكرة هجرتي، لم أعد للعزف في الحانة، خيبتني التجربة التي عشتها، وأوقعتني داخل حالة من العجز، لم أعرف أن الفن يمكنه أن ينهزم بهذا الشكل، بحيث فقـــدت ذلك الوهج الذي كان يدفعني للحركة، للحلم.

لم أتصورني قوياً بحيث أقاوم حتى الآخر، كنت أتذرع بالمحيط الذي أعيش فيه، والناس الذين يشعرونك فجأة أنك لا تشبههم في شيء، وأنـــه إن قررت أن تعيش معهم وأنت مختلف عنهم فستدفع ثمن ذلك غاليا جداً، و لم أكن صراحة قادرا على تلك المواجهة المفتوحة، المستنـــزفة، خاصة أني لم أكن أؤمن بفكرة المقاومة من أصلها، فالفن هو الذي من المفـــروض أن يقاوم، وإن قطعوا على الفن الحياة فقد انتصروا، وأنا لست إلا هذا الفنـــان الذي يريد أن يحقق ذاته في الفن وليس في شيء آخر.

عندما سمع بعض الفنانين بما وقع لي نندوا به في بيانات لم تنشر في الصحف، وعبروا عن تضامنهم معي، لكن الوقت كان تأخر والعـــودة إلى ما قبل صارت مستحيلة، و لم يكن التضامن ليفعل لي شيئا حينـــها، ثم لم يكن إلا تضامنا شكليا لا غير، فالجميع يقول لك " نحـــن معـــك لكن لا تنتظر منا الكثير" وربما كان الأخطر من هذا كله، وهـــو مـــا لاحظته بعيني عند الكثير من المثقفين والفنانين هو حيادهم فجأة، وهم يتفرجون على مشهد المعركة، ولا يصفقون لأحد، ينتظرون من يفـــوز حتى يقفوا فجأة إلى جانبه.

كان ذلك هو أسوأ شيء شعرت به نحو هذه الفئة الهجينة التي تقف في صف الأقوى دائما، وتحترمك، أو تتضامن معك عندما تراك بالفعل فوق، أما وأنت تحت بلا قوة تحميك فأنت بالنسبة لهم ذلك الحصان الخاسر في السباق، فلا أحد يراهن على حصان فاشل.

أكملت تجهيز أوراق سفري، وقضيت بقية وقتي في البيت كنت أجلس طويلا في شرفة النافذة، وأتأمل هذا الحيّ الشعبي الذي كان مدار خيالي طوال هذه الفترة حينما رغبت في تصويره، وتحويلة لمادة سينمائية، وكيف أن مجرد مشروع بسيط كهذا لم أستطع تحقيقه، كما فكرت في ربيعة بالتأكيد متسائلا عن سبب اختفاءها المفاجئ أو عدم اتصالها المقلق بي.

حاولت أن أستفتسر من البعض عنها، لكن دون جدوى، لم أتجرأ على سؤال عائلتها لأنه كان مستحيلا أن أقترب وأسألهم: أين هي بنتكم؟ في عرف الجزائريين شيء كهذا يعتبر خطيرا، وهم لا يقبلونه إلا في حالة تقدمت لخطوبة أو زواج.

ثم تركت أمرها خلفي، معتبرا أني حاولت معها وهي التي تراجعت عني، أو فهمت أن حتى حلمي العاطفي لم يكن هو الآخر إلا مجرد كذبة.

كما قالت لي "أسمهان" للمرأة حاسة سادسة تعرف من خلالها ما يجري في عقل وقلب الرجل. كثيرا ما أدهشني أمر كهذا عند النساء، إنهن يفهمننا بسرعة، لا أدري كيف، أو ربما لأن الرجل في النهاية أقل تلغيزا من المرأة، وأكثر شفافية منها، على عكسها هي التي تميل لتعقيد كل شيء، طبعها على ما أظن يجعلها محتاطة، وتُطلع وتهبط، وتقضي وقتا طويلا في التفكير.

مرة قال لي شخص: أحيانا أتفاجأ عندما ألتقي بـــامرأة تعجـــبني وأعجبها وفي الوقت الذي لا أفكر فيه إل في بلحظتي لقـــاءك الأول إلا بلحظتك تلك، تجدها هي قد بنت حلمها ومستقبلها معك

لكن ربيعة لا زالت شابة في مقتبل العمر، ربمـــا لهـــا أحلامهـــا المختلفة عن أحلامي، صحيح هي من طرق بابـــي، واقتحمت حيـــاتي دون استئذان، هي من أدخلتني هذا الحب، ولهذا لم أكن متبرما أو ناقما عليها.

أحيانا أقول لنفسي أنا لا أفهم شيئا في المرأة، ماذا تريد؟ أفهم ما أريده منها، لكن هي كيف تفكر في هذا الذي أريده؟ كأننا خلقنـــا من تربتين مختلفتين، كل واحد له منطقه وبصره، وطريقـــة تفكـــير مغايرة.

شعرت بالدوار الكثيف، وأنا أجرجر نفسي خارج البيت، لكي أتنفس هواء المدينة قبل أن أغادرها نهائيا. كان رأسي متعبا حقا من كل شيء، ومن لا شيء، من عالم يتصحر فجأة، ويأخـــذه الجفـــاف إلى حديقة الكآبة، وسجن الحزن، أو هكذا كانت رؤيتي لتلـــك المدينـــة الكبيرة حينها وأنا أشعر بأنها تفقد جلالة روحها، وبراءة عوالمها الـــتي كانت تسحرني ذات يوم.

ليس سهلا على الرجل، وخاصة إذا كان فنانا أن يصارح نفســـه بحقيقته الداخلية التي يشعر بها، فهو عادة ما يجد في الفن حماية له مـــن ذلك، وكثيرا ما يتحول الفن إلى هروب من الحقيقة، رغم أن النـــاس يعتقدون العكس ويظنون أنه يبحث عن تلك الحقيقة التي عبرها يقـــول فنه الجميل.

الفن والحقيقة لا يلتقيان كثيرا، رغم أنهما يزعمان أنهما يبحثـــان عن بعض..

اصطدمت بشخص كان يقطع الطريق مسرعا فاستيقظت "آه عفوا"، نظرني بقسوة دون أن يعتذر، ومضى يجري، كنت في شارع حسيبة بن بوعلي أسير دون انتباه، الأفكار تتمزق في ذهني، وتمزقني معها، وفجأة رأيتها تمشي، وفتحت عينيّ جيدا لأتأكد مما رأيت، وقلت مستغربا، بل منذهلا: ما هذا؟ هل هي ربيعة حقا؟

كانت ترتدي لباسا غريبا، وتغطي رأسها بفولار أسود كيف ذلك؟ كانت تمشي بسرعة حتى أني لم أستطع مسايرتها من الخلف، ناديت عليها خوفا أن أفقدها، فلم تلتفت أول الأمر، ثم عاودت الكرة بأعلى صوتي فتوقفت عن المشي، والتفتت لتلاحظ وجودي، شاهدتني جيدا، لثواني معدودات، ثم دون أن تقول كلمة عادت للمشي السريع، وتركتني دون أن تنبس بكلمة واحدة.

عُدت إلى البيت في حيرة من أمري، وبذهني تساؤلات بلا عد ولا حصر، هل من شاهدتها هي ربيعة التي أعرفها؟ أم ربيعة أخرى تغيرت كليّا، وصارت شخصا آخر؟ ذلك أنه لم يمض على آخر لقاء بيننا سوى ثلاثة أشهر فقط، هل تغيرت فجأة من شكل إلى شكل؟ وهل صارت متدينة الآن بهذه السرعة العجيبة، هي التي كانت تحلم بالرقص، والفن، والسينما؟

كنت متأكدا من شيء واحد وهو أن هذه المدينة العجيبة كانت تطحن أحلام الناس وهي تتحول بداخلها تحولا جذريا، كان قناعها المتحرر ينقشع فجأة، وتعود إلى وجهها الأول المحافظ، والتقليدي.

ما هو هذا الشيء الذي تبحث عنه هذه المدينة؟ الحرية أم الانغلاق؟ يجب أن أعترف بأنها مدينة المتناقضات جميعها فهي مرة سافرة، وعارية، وعربدية، ومرات تقليدية ومنغلقة على ذاتها، لا تترك ريح الحرية تتسلل لها من أي نافذة أو باب..

من أراد لها ذلك؟ لا أدري، منظومتها الذهنية، والسويولوجية مبنية على الحجز، والمنع، ووضع الحدود، ورسم خريطة طريق محدودة المعالم، وضيقة الأفق.

لم أكن في تلك اللحظة مستعدا للنقاش في هذه المواضيع مع نفسي، وأنا على أهبة مغادرة مدينتي، لكن رؤية ربيعة على ذلك الشكل شغلتني بالفعل، جلعتني أطرح سؤالا، وراء الآخر، أنا الفضولي فوق اللازم، الذي يحب أن يعرف عندما يستهويه شيء ما، ويستثيره سؤال محير.

ماذا حدث لربيعة؟

سأجدني مرة أخرى مشغولا بالتفكير فيها دون قدرة على تحييد نفسي عن هذا الأمر، كما لو أن الأقدار تصنع لنا ما تريد هي لا ما نريده نحن.

***

ليس الحب شيئاً خطيرً فقط، ولكن يُشبه في أعمق ما فيه ذلك العبث المجنون، تستطيع عبره أن ترتكب كل الآثام العجيبة في حق نفسك، وأنت تضحك، أو تبتسم على الأقل كأن لا شيء ينزف فيك، كأنك قتلت دون أن تقتل.

وجدتني من جديد في مواجهة مع مشاعري لتلك الفتاة، أحيانا تقول هذا هو القدر لا شيء آخر، الأمر ليس بيدك الأمر، سيقودك قدر الحب إلى حيث يجب أن تذهب حتى لو لم تكن تفكر في ذلك من قبل.

أجلت موعد سفري لأسبوع آخر دون أن أقول صراحة أن السبب هو رغبتي في معرفة ما الذي حدث لربيعة، ولماذا لبست الجلباب الأسود، وهل يرجع ذلك لرغبتها، أم لأن شخصا ما فرضه

عليها؟ وهل يمكن أن تتحول فتاة بسرعة إلى هذا الطريق، هي التي كانت تريد طريقا آخر في الحياة يتناغم مع حريتها الداخلية، وفكرتها عن الحياة المليئة بالتحديات والجمال؟

أسبوع آخر افترضت أنه الأخير في مدينة كنت أراها تنتحر كل يوم، والحياة فيها تستحيل، أو تفقد طعمها الجميل، التفاصيل التي تؤكد ذلك كثيرة، كنت ألتقطها كل يوم، فبات واضحاً في ذهني أن الانفجار وشيك.

بدأت تحرياتي بطريقة بوليسية، وافترضت أنني سأقوم بدور سينمائي مثلما شاهدت ذلك في عشرات الأفلام الهوليودية، وأنه عليّ أن أعرف الحقيقة الغائبة، تلك التي تخفيها ربيعة عني، أو لا تريدني أن أعرفها، فلو رغبت في أن أعرف ما حدث لها لأخبرتني يوم رأيتها، ورأتني بدورها، ثم تركتني ومضت.

في الحيّ على الساعة السابعة صباحا، قلة من هم الذين استيقظو باكرا، لكن المقهى ممتلأ على آخره، وبعد أن يفرغ يبقى فقط شخصان في الزاوية يتكلمان فيما بينهما كأنما يتآمران على شخص ثالث غير موجود معهما، وأنا أقف بالقرب من الباب الواسع، قهوتي بين أصابع يدي، أدخن وأرتشفها من حين لآخر حتى شعرت أنها بدأت تبرد بسرعة، عيناي متسمرتان على باب العمارة، منتظرا ظهور الفتاة، حتما ستخرج باكرا لتلتحق بالجامعة، وهي فرصتي لأتبعها، وأعرف ماذا تفعل في يومها ذاك.

ساعتان انتظار، شربت أكثر من فنجان قهوة، حتى أن صاحب المقهى سألني إن كنت بخير، فأجبته بأني أحب شرب القهوة، فلم يكرر السؤال، ولكن نصحني بشرب الشاي بدل القهوة، وتلك طبيعة عند الجزائري أن يحشر أنفه في كل صغيرة وكبيرة في شأن شخصي لا

يهمه كثيرا، كأنه تسلم ختم الوصاية على روحك التي سيصلحها لك.

تعبت من الانتظار، الساعة العاشرة، و لم يظهر لها أثر، لم تخرج من باب العمارة، وقلت: ربما هي مريضة، أو مكتئبة، أو السيناريو الثالث لم تنم بالبيت، فما يدريني ماذا تفعل هذه الفتاة بيومياتها؟، أين تختفي بالضبط؟ ليس عندي جواب، وحينما يئست تمام اليأس، وقررت الانصراف رأيتها تخرج فجأة بلباسها الأسود الذي أثار كل حيرتي وتعجبي، حيث لم يكن يظهر منها إلا الوجه.

تساءلت عندما رأيتها، وشعرت بدقات قلبي المتتالية تهزني بعنف، هل حقاً أحبها بهذا الشكل؟ ما هو الحب؟ صعب تفسيره عندما نقع فيه، دون توقع هذا الوقوع، دون حتى أن نعطي له أهمية تذكر في البداية، وكفنان لم ينجز شيئا في الحقيقة ليسمي نفسه بهذا الاسم كنت أشعر أن الحب يصبح هاوية مفتوحة على العدم، على الخطر، على الموت لكن سأعترف مع ذلك بدون تردد أن قلبي كان ينزف حبا لها بطريقة غريبة، ومجنونة.

لقد أشبعت أسمهان نهمي للرغبات، وحققت معها أجمل الصهوات الجامحة، لكن في القلب نقطة واحدة إذا صلحت صلح الجسد كله، وهي أن حبي كان متوجها لربيعة، وليس لغيرها، وهذا ما يدفعني الآن لملاحقتها من جديد.

مشيت أتبعها، وأنا أنتظر مفاجآت كثيرة، وإن كنت محظوظا، والسماء رحيمة بي فسأعرف سرها اليوم دون شك.

سرت خلفها، وفرحت أنها لم تركب لا سيارة أجرة، ولا حافلة نقل، بقيت تمشي حتى ساحة البريد المركزي، فسهلت عليّ مهمة السير دون عناء لعب دور "جيمس بوند" الخرافي..

هنالك بالقرب من مكتبة الحزب توقفت تنتظر شخصا بالتأكيد، لكن لم يظهر أي شخص، كانت لوحدها تتأمل السيارات التي تعبر قرب الرصيف الذي تقف عليه قبل أن تبدأ ساعة الازدحام المروعة في هذا الشارع الرئيسي.

فجأة ظهرت فتاة لم أتبين ملامحها جيدا، وتقدمت منها، وسلمتا على بعض، ثم سارا في اتجاه شارع العربي بن مهيدي فأكملت مهمتي التجسسية، وكان بودي الاقتراب أكثر لسماع ما يدور بينهما من حديث لكن خفت أن تلحظ ذلك ربيعة فتطردني بنظرتها شر طردة.

للحظة قلت متسائلا، أو محتجا: ما هذا العبث؟ ماذا أفعل حقا؟ لماذا لا أرجع إلى الوراء، وأحمل حقائبي وأسافر؟ لا يمكن للحب أن يشل إنسانا إلى هذه الدرجة؟ لا يمكن، بلى يمكن، لقد كان رأسي يلوك حالته تلك بطريقة فيها حيرة وألم جعلاني أكمل السير، وأنا أقمع أي نوع من الاحتجاج الذي يصرخ بداخلي.

في آخر شارع العربي بن مهيدي دخلنا مكانا يشبه قاعة شاي، أو هذا ما كان يظهر عليه من الخارج، فتوقفت أمام الباب، وحاولت أن أتلصص على داخله، وأعرف ماذا يجري فيه كان مليئا بالنساء والفتيات مع قلة من الرجال تقريباً، وشاهدت ربيعة في آخر الزاوية مع صديقتها وقد نزعت عنها ذلك الجلباب الأسود، وظهرت كالمرأة التي كنت أعرفها وإن بزينة أكبر.

ظننت أني تخيلت المشهد، أو أنني في حلم لا غير سينتهي بعد دقائق، وأعود أكتشف أن كل هذا من ألاعيب آلهة الأحلام لا غير، لكن تأكدت من ذلك، وأنا أركز نظري بشدة نحوها، كم كانت جميلة حبيبتي ربيعة.

ثم تهاطلت الأسئلة على ذهني بسرعة جنونية كسرعة السيارت التي كانت تجري على الطريق منذ قليل: ماذا يعني هذا؟ ماذا تفعل هنا؟ و لم أجد أي جواب مقنع، فاضطررت أن أنتظر بعض الوقت، أكثر من نصف ساعة حتى رأيت ربيعة تخرج من القاعة، مع رجل في الخمسين من عمره بدون ذلك الجلباب الأسود، وتسير معه حتى آخر الشارع، ثم تصعد في سيارته، ويذهبان لمكان لا يعلمه إلا هما.

عُدت لقاعة الشاي من جديد، وأنا أرتجف من الحسرة والحيرة في نفس الوقت، دخلت وبحثت عن الفتاة التي كانت مع ربيعة فوجدتها جالسة وحدها فتقدمت من مائدتها، وما أن رأتني أقف حتى طلبت مني الجلوس فجلست دون أن أنبس حرفا واحداً، بينما بقيت هي تنظر إليّ، وتبتسم في وجهي، ثم قالت عندما رأت أن صمتي طال عن اللزوم:

- هل تريد أن تعرف السعر؟
- ماذا؟
- سعر ما تريده، وتخجل من ذكره؟

فهمت فجأة، فهززت رأسي موافقا، فردت مبتسمة بغنج بسؤال جديد:

- هل تريد شيئا سريعا، أم تفضل يوما بأكمله؟
- كما تشائين؟

أطلقت ضحكة مستهترة من سذاجتي:

- كما تشاء أنت، فأنت الزبون.
- أريد أن أسألك قبل ذلك.
- اسأل، ولكن قبل ذلك اطلب شيئا لنشربه حتى لا يشعر صاحب القاعة أنك تبخل عنه.

طلبت شايا لأني كنت متخما من شرب القهوة، وهي طلبت عصير ليمون، وقطعة حلوى، ثم رفعت نظرها نحوي وقالت:

- بالنسبة لي اليوم كاملا بكذا.. والساعة بكذا..
- نعم في متناولي ذلك، لكن أريد أن أعرف الفتاة التي كانت تجلس معك منذ قليل.
- تقصد حياة ما بها؟
- اسمها حياة.
- أقصد اسمها المهني. لماذا تسأل عنها؟ هل جئت من أجلها؟
- بصراحة نعم، لكن هذا لا يعني أني لن أدفع لك، لا تقلقي.
- لا بأس، لكنها ذهبت مع زبون، أظنها ستعود بعد ساعة، هي مطلوبة كثيرا لأنها جديدة في المهنة..
- نعم رأيت أنها شابة صغيرة.
- ماذا نفعل الآن؟
- لا أدري، خذي مبلغ ساعة، وسننتظر مجيئ حياة أريد أن أكلمها.

استغربت من تصرفي بعض الشيء، لكن بما أني دفعت لها مبلغا ماليا دون حتى أن أطلب منها فعل شيء من أجلي لم تمانع، وبقيت تتكلم عن نفسها دون أن أولي حكايتها أية أهمية، فلقد كان ذهني كله مشغولا بما اكتشفته عن ربيعة بصورة مباغتة لم أتوقعها قط.

بقيت أنتظر عودة ربيعة لكنها تأخرت في الرجوع، وعندما سألت الفتاة عن السبب قالت بسرعة: ربما أعجب بها، وقد تقضي المساء كله معه، فقمت غاضبا من مكاني، ودفعت مستحقات الشرب، وخرجت.

في شارع العربـــي بن مهيدي الطويل شعرت بأني وحيد رغم أن الناس ظلت تتحرك كالنمل في كل الاتجاهات، ونظـــرت إلى الســـماء فوجدتها غائمة تنذر بمطر سيسقط لا محالة، فكرت أن أعود للبيـــت، لكن أحاسيسي بقيت مرتجفة من ذلك الشـــعور الزئبقـــي الغـــامض بالوحدة والتلاشي في دائرة من الخوف الضبابـــي.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر ونصـــف، ولا أدري لمـــاذا نظرت إلى الساعة، وتأكدت من الوقت رغم أنه لم يكن عنـــدي مـــا أفعله حينها أو أنتظره لكن ربما إحساسي بالوقت جاء من ذلك الشعور بأن الزمن قاهر، وأننا لا نتحرك إلا في هذه المساحة الضيقة من الوقت، وبقدر ما تبدو الدقائق والساعات تافهة في العمر فهي خلاصـــة هـــذا الذي نعيشه في النهاية.

تذكرت "أنينا" البلغارية دون سبب، وكلماتها عن الحيـــاة الـــتي نعيشها، ونحن نفكر فيها دون جدوى، وأن الأهم أن تكون قادرا على الاستغراق في لحظات استثنائية تمنحك السعادة بعض الشـــيء، وهـــو العزاء الوحيد على ما ستفقده حتما مع مرور الوقت.

فكرت أن أذهب لمكان بعيد، وأجلس لوحدي، ثم سألت بالهـــاتف عن أسمهان، وقررت أن أخبرها بكل ما يدور في ذهني، مع أني كنت على علم أنها ستكون نائمة الآن، فهي تعمل في الليل، وتقضي نصف نهارهـــا نائمة، وتساءلت كيف يقدر إنسان أن يعيش كخفافيش الليـــل هكـــذا؟ وقلت أنها الظروف حتما التي تفرض على البعض هذه الخيارات.

فكرت في أن ربيعة تعيش ظروفا صعبة، وإلا ما كانت لتفعل مـــا تفعل، لا يغزو الظلام النور إلا إذا سمح له بذلك، فتح له منفذا للعبور، وهي حتما سمحت تحت وطأة ظروفها لا غير، تلك التي لم أكن أعرف عنها أي شيء.

ماذا أعرف عن ربيعة في النهاية إلا ما أخبرتني هي به؟ وما أخبرتني به قليل، أو ليس هو ما سيسمح لي بمعرفة خباياها التي لم تقلها، كثيرا ما نصطدم بتلك الحقيقة البسيطة أن الناس لا تقول كل الحقيقة، أو لا تقول إلا ذرات صغيرة منها، وهذا طبيعي، فالحقيقة هي نقطة موجعة نتستر عليها جميعنا.

في الغد من ذلك اليوم عدت إلى شارع العربي بن مهيدي لألقي آخر نظرة على ربيعة، لأودعها من بعيد، لأنهي القصة التي بدأت في ضباب وستنتهي في ضباب آخر، لكن لم أجدها في قاعة الشاي. كانت الساعة تشير إلى التاسعة وربع، فانتظرت قليلا ثم قررت السير دون هدف محدد فإذا بي أراها من جديد، وبدا الأمر عبثيا للغاية أن ألقاها في اللحظة التي يئست فيها من حكايتي معها.

هذه المرة هي التي نادت عليّ، وتقدمت مني مسرعة بينما بقيت مشدوها، ومتململا، وفي حالة دهشة وحيرة، بادرتني بالسؤال:

- كأنك تبحث عني.
- نعم آخر مرة رأيتك بالجلباب الأسود فاستغربت.
- نعم أعرف.
- لا يهم، فكرت أنك
- لا تسرع في الحكم عليّ، لكن سأعترف لك، أنا لم أقل لك كل شيء، أو لم أقل لك إلا ما كنت تود سماعه ربما، شعرت بأني سأكون سعيدة من خلال تلك النظرة التي حملتها لي، نظرة مثالية لفتاة تعيش في السحاب، وبين النجوم.. لم يزعجني ذلك، بل جعلني أسعد بأن تضعني في هذا المقام.
- لا أفهم ما تقولينه.

- بالتأكيد، حياتي مختلفة عما خبرتك به، وظننته أنت حقيقة، أنا لم أدخل مدرسة، حياتي كانت قاسية من البداية، وتزوجت من رجل، وأنا في الثامنة عشر من عمري، كان رجلا يكبرني بثلاثين سنة، كان مدير شركة خاصة ذهبت لأبحث عنده عن عمل فأعجب بي بسرعة وأغرقني بالهدايا الثمينة، ثم قال نتزوج فتزوجنا، عائلتي هللت للأمر، الجميع فرح بذلك، وأنا كذلك فرحت، وفي عامي الأول أنجبت بنتا سميتها "دلال" وبعد الانجاب لم أعد أراه كثيرا، كان يقول إنه يذهب في مهمات عمل للخارج وصدقته، ولماذا لا أصدق زوجي، لكن في النهاية تفطنت إلى أنه متزوج، وله أولاد في مكان آخر من هذه المدينة، شعرت بالهزيمة النكراء، وبكيت طويلا، وعندما واجهته بالحقيقة نزع القناع عن وجهه فجأة، وراح يقول لي بصوت غليظ: أحمدي الله أني تزوجتك على شريعته وسنته، و لم أتلاعب بك كما يفعل غيري، هذا لأني شخص متدين ويخاف الله، ويمارس كل شيء في الحلال"، كم كان يبدو لي منافقا وهو يقول لي هذا الكلام. لقد تحول إحساسي بالمهانة إلى صراخ، وتعاركت معه، وشتمته كما لم أشتم شخصا من قبل في حياتي، فأقفل الباب خلفه وخرج، تركني لأسابيع ثم بعث برسالة الطلاق مع مبلغ مالي كتعويض عن الخسائر التي سببها لي، فجأة وجدت نفسي، وأنا في التاسعة عشر أما لطفلة مطالبة بتربيتها، وتأمين حاجياتها، مضت حياتي هكذا بعدها صعبة وقاسية، ولحسن الحظ كان التعيس زوجي يرسل المال لتغطية حاجياتي المادية، وهو من استأجر لي شقة بهذا الحيّ، كرهته لأنه خدعني، لكن مع الوقت لم أعد

أشعر بأي شيء نحوه، بل كرهت حياتي، وعائلتي التي أنجبتني، والتي لم توفر لي أي شيء لأعيش كغيري، أو لأفكر في بناء مستقبلي بنفسي، ثم اقتنعت أنه يجب أن أستفيد منه بأي شكل، كان يُلبي طلباتي التي أطلبها منه، طبعا كان المقابل أن يستمر في معاشرتي كلما رغب في ذلك، أي عندما يمّل من زوجته العجوز التي بفضلها كان غنيّا، كنت أقبل منه ذلك، خاصة أنه لم يكن يأتي إلا مرات قليلة في الشهر، أو لم يكن هذا مُهماً، تعلمت القراءة بفضله، وسجلني في مركز تعليم اللغات، ثم في مركز تكوين الصحفيين، لكن كان ذلك مجرد وهم، شيء كنت أريد أن أقنع به نفسيّ، أن لا شيء سيقهرني، أني سأتعلم وأنجح، كانت أوهامي كثيرة أن أتغير وأصبح فتاة من طراز آخر، لكن لم يدم هذا الوهم طويلاً، فالرجل كان يخاف من زوجته، وعندما اكتشفت ما يخفيه عنها انقلب كليّاً، وانصرف عني، لم أشعر هذه المرة بأي شيء، كأني فقدت الإحساس فجأة، تركني دون أن يبرر فعلته، ولماذا يبرر؟ فالرجال لا يبررون أفعالهم لكن هذه المرة فرحت، وأنا أودع معه سخافة حياتي التي بنيت على وهم. لا أدري من المسؤول في النهاية؟ لكن هذا ما وقع لي، ومن يومها تدبرت أحوالي، صرت أعتمد على نفسي، ولا أترك غيري يقوم بتلك المهمة بدلا عني، شعرت أن الواحد عندما يسقط لا أحد يقف معه، ولهذا كان عليّ أن أفعل شيئا لنفسي، ولا أنتظر من أحد آخر أن يرمي لي طوق النجاة، تعرفت على أناس كثيرين، بعضهم لم يرى في إلا الفريسة الضعيفة التي يمكن استغلالها، والبعض أحبني بشكل ما، أو

وجهي لطريق ما، لا يهم إن كان صائبا أو سيئا، فلم يعد عندي وقت لأقيم للخير والشر تلك الاعتبارات الأولى، تفطنت إلى أن العالم مبني هكذا، وإما أن تقبله، أو ترفضه، لم أرغب أن أكون ضحية لهذا المجتمع الحقير، فكرة الضحية لم أسمح لنفسي بتقبلها مهما كانت الظروف صعبة، ثم ظهرت أنت، شاهدتك عدة مرات في الحيّ، سمعت عنك كلاما كثيرا، لاحظت أنك تتجنب الحديث مع الآخرين، أعجبني انطوائك على نفسك، كأنك إنسان يحب داخله الجميل، ولا يهتم بالخارج الذي يقتل هذا الجمال، لم أجد طريقة للتقرب منك، و لم أعرف كيف أشرح لك أهمية أن أتقرب منك، وددت في داخلي لو كنت بالفعل طالبة جامعية كما أخبرتك، فتاة أخرى غير التي كنت عليها، رغبت لو كانت صورتي الحقيقة هي تلك التي أظهرتها لك لكن لم أكن كذلك، أخبرتك بأكاذيب، وأنت صدقتها، ويوم قبلت أن أكون ممثلة في الفيلم الذي تنوي إنجازه شعرت بفرح غامر، وسعادة لا تتصورها، ظننتني وصلت إلى قمة حلمي في أن أكون فتاة ناجحة، فتاة تحلم ولا تموت، لكن في نفس الوقت كان تأنيب ضميري قويّا، كنت أعرف بأني كذبت عليك، لأني كنت بحاجة لأن أكذب كي أملك حياة أخرى حلمت بها قبل أن تعصف بي رياح الغدر، وتطرحني على أرض المهزومين، لهذا بعد تفكير مع نفسي تراجعت، ليس خوفا عليّ، فأنا فقدت ذلك الإحساس بالخوف عليها من زمن، ولكن عليك أنت، لماذا أريد أن أدخلك في مسرحية ستكتشف لاحقا أنها كذبة؟ كذبة مثل تلك التي حدثت لي مع زوجي السابق، لهذا

اسحبت، قررت أن لا آتي لبيتك يوم دعـــوتني، قـــررت أن أختفي عن نظرك، وشعرت بأن ذلك أقل ما يمكن أن أفعلـــه نحو شخص بذر في قلبـــي قليلا من السعادة حتى لو كانـــت وهمية، أعرف أن كلامي يصدمك الآن، أو يوقعك في بلبلـــة وحيرة، لا تترك قلبك يتصدع من أجلي، لا أعرف إن كنت تحبني أم لا؟ أو توهم نفسك أنك تحبني، ربما الحب هو صنيعة خيالنا لا غير، أنا أقول هذا الكلام لنفسي، لقد فقدت القدرة على ذلك، أحس بأن تلك الحياة التي ضاعت مـــني ضـــاعت للأبد، وأن ما حلمت به لن يعود من جديد ليفتح لي طريقـــا آخر أمشي فوقه مرة ثانية.

عندما أتمت كلامها لم أعرف إن كان عليّ أن أحضـــنها بـــين ذراعيّ، وأقبلها بكل حرارة، معتذرا لها على تصرفاتي الحمقاء نحوهـــا، وعن غبائي في عدم التكهن بما كانت تعيشه مـــن آلام ومشـــاكل، أم أصمت فلا أنطق بأي كلمة، وأبقى أنظر إليها فقط، وهي صامدة بكل حب دون أن تفقد تلك البراءة التي شاهدتها في عينيها عند أول لقاء.

عندما أتمت كلامها لم تخفض بصرها للأرض، لم تشعر بأنهـــا في محاكمة، وهي تبرئ نفسها، لم أشعر بأنها ضعيفة أو قوية، كانت كما عهدتها شفافة، واضحة، تدرك الحقائق التي يجب أن تقولهـــا لا غـــير، وهذا ما أربكني في الحقيقة، أنا الذي دخلت في لحظة غموض وصمت مفاجئة.

الصمت لفني بغطاءه السميك، حجبني عنها، أفقدني تلك القدرة على التكلم، وعلى الفعل، بينما بقيت هي تنتظر مني بنظراتها الشـــفافة التي راحت تثقب روحي بسهامها النارية، تنتظر مني أن أفعـــل شـــيئا لحظتها، وقد حكت لي قصتها من ألفها إلى يائها، غير أني لم أتحـــرك،

و لم أتكلم، أصابتني حالة ذهول، جبن، وتصدع كما لو أني انتظرت كل شيء إلا هذه القصة المروعة تحكى أمامي من فتاة في مقتبل العمر.

ثم قالت، وقد شعرت بأني لن أكون "فارسها المنقذ"

- حسنا، أنا أفهم موقفك الآن، سأتركك تذهب. وداعاً.

تركتني، وراحت تمشي ناحية قاعة الشاي، كأن لا شيء صار منتظرا من وراء الحقيقة، كأن الحقيقة هي أكبر سجن يمكننا أن نبتلى به، بينما بقيت على حالتي المتجمدة في صمت غريب، ودهشة مربكة.

فكرت أن ألحق بها، وأعتذر منها، لكني تراجعت، وعدت بخيبتي من حيث جئت، كان عليّ أن أقطع الطريق لوحدي، وأنا أجتر حكايتها تلك، كنت أمشي نازلا عبر شارع العربي بمن مهيدي إلى شارع عميروش، كان ينتظرني شيء ما، شيء لم أكن أنتظره أنا، شيء مروع، كان ينتظرني إنفجار فظيع وقع فجأة، دون أن أنتبه له، دون أن ينتبه له أحد، لم يعطني الوقت لأستمر في التفكير، كان شريط حياتي قد توقف لثانية، كان كل شيء قد توقف عن الحركة، توقف الناس كلهم عن المشي، عن الوجود، أحسستني مع ذلك في حلم طويل، وأنا أنزل شارع عميروش، والزحمة على أشدها، أتوجه إلى قاعة سينما، أتوقف عند المدخل الأمامي الذي يقع بالقرب من مديرية الأمن الوطني التي استهدفها الإنفجار، أشاهد بوستر فيلم جزائري إسمه "وقائع حيّ شعبي" إخراج الهادي بن منصور. تمثيل الفنانة الشابة ربيعة.. ابتسمت بفرح، وغبت في ذلك الصمت الغامض، الطويل.

علي الحراشي

الفصل الأول

يتذكر سكان حيّ "مارشي أتناش" دائما تلك القصة التي وقعت لي، وأثارت سخرية وضحك الجميع، إنها حكاية طريفة، حتى أنا أتذكرها بشكل جيد، ليس لأنني كنت بطلها فقط، بل لأن الجميع بقي يذكرني بها كلما تكلمت مع أحدهم، حسنا أيها الأوغاد، لن أنساها أبداً، لقد كنت واقعا في غرام سعاد بنت عمي الخباز، ما العيب في أن تغرم بفتاة منذ صغرك، وتشعر أنك تميل نحوها ميلا لا حدود له..

لم أتعلم في المدرسة مثل بقية الأطفال في الحيّ، والدي قرر ذات يوم أن يُرسلني إلى مكان آخر بعيدا عن الدار، حيث وهبني إلى الشيخ حمادة إمام المسجد الذي لم يكن له ذرية، فوضعني تحت رعايته، وحمايته، ومن يومها قرر ذلك الشيخ أن يجعل مني ذلك المؤمن الصالح الذي يقود الناس للخير، ويدعوهم إلى الهداية، وقد ملأ كتاب الله قلبه، وسنة رسول الله سلوكه فلا يحيد عنهما مهما كانت الأحوال والظروف.

والدي وهبني له لأنه لم يكن يملك لا العلم، ولا المال، ولا القوة التي تؤهله أن يعتنيّ بي، ولا أي أحدا من إخوتي وأخواتي العشر، كنا كثرة تضيق بنا مساحة البيت الصغيرة، وتموت فينا باكرا أحلامنا البسيطة، لقد كان يعمل إسكافيا في السوق الشعبي، وبرغم نظرة الناس إلى الإسكافي على أنه شخص رث للغاية، بلا حول ولا قوة، وهي نظرة متعالية، لا أعلم سببها، وهُم عادة ما يخلطونها يمسح

الأحذية التي طلقها الجزائريون بعد الاستقلال، لكي لا تذكرهم بسنوات فقرهم المذلة.

كان والدي يُحب عمله كثيرا، ويعتبره حرفة ذات مهارات خاصة لا تُتاح لأي شخص، جعلته يفهم في جميع أنواع الأحذية، ويعرف حسنها، من سيئها، وجلدها الرديء من جلدها الصلب، وبفضل مهنته جعلته يخالط الناس بمختلف طبقاتهم ومستوياتهم مخالطة مباشرة ليس فيها تكلف. كان يعرف قصص الناس الخاصة والعامة، فتجربته الطويلة جعلته ينصت بانتباه لزبائنه الذين يثرثرون أمامه بالكبيرة، والصغيرة، وكثيرا ما سمعته يعيد سرد بعض من تلك القصص والأسرار لأمي التي لم تكن تنتبه لكلامه، لضعف سمعها، الناجم من انفجار قنبلة بقربها أيام الثورة التحريرية، وهذه الحادثة التي تتذكرها ولا تفتأ تتحدث عنها من حين لآخر لأنها تشعر أن السماء أنقذتها بمعجزة يومها بالرغم من أنها حرمتها من حاسة السمع.

لم يكن والدي يكترث لهذا الأمر، وربما كان يُحبها على هذا الشكل لا تسمعه وهو يتكلم معها، ويفضفض أمامها بما يسمعه من حكايات الناس العجيبة.

حتى سن العاشرة ظلوا ينادونني بابن الاسكافي، وعندما تركني والدي إلى الشيخ حمادة على أمل أن يصنع مني رجلا متدينا، وتقيا، ويعمل لخدمة الدين، وهو يقول:

"يا ولدي هذا هو الطريق الصحيح لتربح دنياك وآخرتك."

شعرت أن نظرة الناس تغيرت بعض الشيء نحوي، صرت طفل الجامع الذي يحفظ بعضا من كلام الله، ويؤذن وقت الصلاة عندما يغيب المؤذن، وهذا في عرفهم كان له قيمة رمزية معتبرة جدا.

شعرت بذلك عندما لم تعد تلك القصة التي وقعت لي مثار تهكم الناس عليّ عندما يرونني ذاهبا أو عائدا من المسجد، فلقد بدأت أصبح ذلك الطفل الطيب الذي ستغفر ذنوبه لا محالة، أما سيئاته فستتحول إلى حسنات..

أما القصة الطريفة التي لاحقتني طويلة فهي قصة حفري لثقب في حمام النساء، والحق لم أكن أرغب في التلصص على نساء الحيّ خاصة في الحمام الذي كان يؤم البدينات والرقيقات، والعجائز، وكل الأشكال التي لم تكن تغري أحدا عندما يرغب في التلصص، فعلت ذلك من أجلها هي فقط، سعاد بنت عمي الخباز التي كنت عندما أراها يقشعر بدني، وترتجف كل حواسي حتى أني ظننت أن شيطانا من الجن يلمسني، وأنا لا زلت في تلك السن التي لم أدخل فيها بعد مرحلة اكتشاف الشهوات الآثمة، لكن سُعاد كانت تفعل فيّ هذا السحر، وتحدث بداخلي وخارجي تلك الرعشة، ولهذا لم أجد طريقة مثلى للتلصص عليها إلا بحفر ذلك الثقب الصغير وأبقى أنظر إليها وهي تدخل إلى حوض الحمام، وتبدأ في خلع ملابسها قطعة وراء قطعة حتى لا يبقى يغطيها شيء، ولحظتها كنت أشعر بالانتصاب، أو شيء من هذا القبيل، وحرارة تشبه الحمى الداهمة، التي تسلختي سلخا عنيفا من الداخل، وترجفني رجفا شديدا من الخارج، فكأني أدخل في بوتقة نار حارقة، دون أن أقوى على الاحتراق، لكن أبقى محترقا مع ذلك أطول وقت ممكن.

كان يمكن للثقب الذي حفرته أن يكون سريّ الخاص الذي لا يعرفه ولا يسمع به أحد، لكن لا أدري كيف اكتشفت أمري العجوز الشمطاء صاحبة الحمام، فكأنما اهتدت بجن يسكنها إلى ما أفعله خلسة عن أنظار الجميع، وبدل أن أتلصص كما تعودت مرة كل نهاية أسبوع على جسد من أحب وأرغب، فإذا بها تتربص بي ذلك اليوم،

وتقبض عليّ متلبسا بالجرم، وتدخلني إلى الحمام، وتطلب من كل النساء الحاضرات أن يصرخن في وجهي، ويشتمنني ويهنني بكلام سيء، حتى أن أصواتهن المزعجة بقيت تتردد في رأسي شهورا طويلات، ثم طردنني شر طردة وهن يحلفن بكل الأسماء المباركة والمقدسة أني إن عدت إلى هذه الفعل، ليفعلن بي ما لم تفعله النساء بأي رجل من قبل، ومن بعد، خرجت أركض متسابقا مع الريح دون أن ألتفت إلى الوراء، وأنا أحمد الله أن العقاب توقف هنا و لم يذهب إلى شيء أسوأ مما حدث لي، لكن زادت الأمور تعقيدا عندما انتشر الخبر في كل مكان من حيّ "مارشي أتناش" وإذا بالقصة على لسان كل شخص، وكل واحد صار يراني على شكل فهذا يقول عني أني رمز الشيطنة والذكاء، وآخر يقول أنني نموذج للطفل الذي لم تربيه عائلته، والبعض منهم راح يدعو عليّ بالشر والموت العاجل، وآخرون بالهداية والتوبة، وصرت مضحكة الأطفال، والشباب، والشيوخ. أينما أذهب، أو أحل أجد من يقول لي: يا خبيث، أو يا قليل الأخلاق، أو يا سيء التربية، أو ما شئتم من الأوصاف التي لصقت بي، وجلبت حتى لوالدي بعض القلاقل والمشاكل التعيسة..

لقد تحملت كل تلك الأذية طويلا حتى تحولت مع الوقت إلى مزحة يتسامرون بها في أوقات المساء بعد نهار عمل متعب، أما ما كان يصبرني على كل ذلك، ويجعلني لا أشعر بطعم الإهانة فلم يكن إلا أني كنت أقول في داخلي: أيها الأوغاد لقد شاهدت نساءكم عاريات، وأعرف شكل ونوع كل زوجاتكم، وبناتكم، وهندسة أجسادهن، وهي منة لن تحدث لأحد آخر غيري في هذا الحيّ اللعين.

سترني الله مع ذلك بأن أخذني أبي إلى الشيخ حمادة وما أدراك ما هذا الشيخ إمام مسجد "الخلفاء الراشدين" حافظ القرآن الكريم، وما

جاء في سيرة الرسول والأولين، ولقد كان ذا وجه صبوح، ولحية بيضاء لا تشوبها شائبة، ويرتدي قميصا أبيض اللون، ويلف رأسه بعمامة بيضاء هي الأخرى، وكان الناس يرونه أكثر من مجرد إمام يؤمهم في الصلاة، ويخطب فيهم يوم الجمعة، بل واحدا من الأولياء الصالحين الذين يتبركون بتقبيل يديه، والتمسح ببرونسه، ويطلبون منه الدعوات وتحقيق المعجزات، ولم يكن يبخل عليهم مقابل نقود زهيدة كأن يقرأ لأحدهم في كوب مليء بالماء آيات من الذكر الحكيم، أو أن يكتب لشخص مريض حرزا فيه قرآن كريم، أو يدعو لميت، أو يحضر جنازة، أو خطبة فرح، وكل الأشياء التي كانت تكسبه مهابة، ومكانة في الحيّ الذي يعمل فيه.

لقد كنت أتعلم منه بصمت، وصبر كما طلب مني هو عندما قال: "إن من أبجديات التعلم حسن الانصات، والصبر على الطريق" وبما أنه كان عقيما لا ينجب، فلقد قبل أن يتولاني برعايته اللازمة، ويرشدني للطريق التي أفلح من خلالها في الفوز بآخرتي ودنياي، وكنت أسمع نصائحه بإنتباه وتركيز شديد، ومع الوقت بحُب وإعجاب كبيرين، فلقد مستني بركته بالتأكيد، فالمعاشرة الطويلة كانت تكسبني بعضا من مهابته، وقوة شخصيته، وأحسست بالفارق بين ما قبل معرفتي به، وتعلمي منه، وما بعد ذلك، فالبون صار شاسعاً وواسعاً، وحتى أبي الإسكافي غير من نظرته إليّ، صار يتكلم معي باحترام كبير، وهو سعيد أن آخر عنقوده في البيت سيكون صالحا في المستقبل على عكس من يعتبرهم حميره وبغاله الذين لا يعرفون غير الأكل، والشرب، والتغوط، وجلب المشاكل في الحيّ، وفي البيت..

عندما وصلت إلى سن الخامسة عشر حفظت ربع القرآن الكريم، ولقد أدرك الشيخ حمادة أني ضعيف الذاكرة، وقليل الصبر في الحفظ،

وطمأنني بأن ذلك لن يضر سبيلي الذي اهتديت إليه، وسأعترف بأن فضائل هذا الشيخ عليّ لم تكن بالقليلة ولا بالهينة، وأنه عاملني كابن له طوال فترة التعلم تلك، ولم يبخل عليّ حتى بشراء اللباس في المناسبات والأعياد الدينية، والأكل اللذيذ كلما سنحت فرصة زيارته، فلقد كانت له شهية مفتوحة لأكل اللحم المشوي، والدجاج المحمر، وكانت زوجته الحاجة راضية ترضيه بما تشتهيه نفسه مادام عنده المال الذي يسمح بذلك.

سألته مرة سؤالا استغربه مني، وهو لماذا الله العليّ العظيم حرم الشيخ حمادة صاحب السكن الواسع والفخم، والمال الوفير من الإنجاب، وأعطى أبي الفقير صاحب الشقة الضيقة عشرة أولاد بين بنات وذكور. ما الحكمة في ذلك؟

رد باقتضاب وهو ينظر إليّ مستعجبا:

"يفعل الله بنا ما يشاء، فنحن لسنا إلا ما يريدنا أن نكون"

وأنتظر مني بعدها أسئلة من هذا النوع لكن لم أفعلها مرة ثانية فلقد جاء السؤال كحالة مقارنة لا غير، وحاولت أن أعرف إن كان ما رأيته من عدم العدل في الحياة حكمة مختفية في الباطن لا يفقه سرها إلا أهل العلم والدين مثل شيخي حمادة.

ورغم أني تعففت كثيرا، وصار وقتي كله في المسجد أحفظ القرآن، أو أدرس السنة، أو أقرأ كتب السير والأولين وأصلي عدة مرات، وليس خمس مرات كما هو منصوص عليه في الفقه، وأصوم مرتين في الأسبوع تقربا من الله، وتطهرا من الذنوب التي ارتكبتها في صغري فإني – والله مسامح كريم– بقيت عاجزا عن نسيان سعاد بنت عمي الخباز التي كانت حينها تدرس في ثانوية الإدريسي، وكنت بلا إرادة مني كلما أشاهدها تمشي، أو تعبر قريبا مني أشعر بهزات في

صدري، ودقات عنيفة بقلبـــي، أحوقل وأتعوذ من الشيطان الـــرجيم دون جدوى، وظننت أنها الامتحان الأخير الذي يبتليني الله بـــه لكـــي يعرف مدى صدق نيتي في هذا الطريق.

ولولا هذه الفتاة الرقيقة، الرشيقة، البديعة، البريئة لما فكـــرت في أي شيء آخر من هذه الدنيا الفانية، لكن وجودها كان يجعلني أضعف من نملة في مهب الريح..

كنت أعرف نقطة ضعفي تلك، وأشعر بها كســـكاكين تمـــزق أحشائي كل ليلة، يكفي أن تستحضرها ذاكرتي في الليل وأنـــا علـــى الفراش حتى يطير النعاس مني، ولا أنام إلا وأنا أسترجع رؤيـــتي لهـــا بالحمام جسدا عاريا، مغرياً، ولذيذا ويدي تمسك بـــه، وتحـــاول أن تتحسسه في كل مكان..

كنت ألعن الشيطان بلا أمل كبير، ولم يكن بمقدور اللعن أن يُنـــهيّ ذلك الصراع الشرس بداخلي، ولهذا تكون خاتمة الليلة جلد عضوي براحة يدي حتى يُفرغ ما بأحشائه فيهدأ قليلا ويتركني أنام مستريحاً..

نادرا ما نمت نومة مرتاحة، وكنت في النهار أبحث عنها على أمل أن ألتقيها، أو حتى أشاهدها، ولو بعض الثواني القليلات وهـــي تعـــبر بمشيتها الخفيفة كأنها تمشي على قدم واحدة بإيقاع يسحرني دائماً..

أعجبت دائما بقصة "الزاوش" الذي ضرب زوج أم وردة حبـــا لها، وتساءلت ما معنى أن تحب، وتدخل السجن من أجل الحب، أليس هذا إيمان حقيقي كالإيمان بالله الذي في سبيله ترخص كـــل الأشـــياء الثمينة، وتهون الحياة الغالية. هل الحب إيمان؟ بمجرد أن سألت نفســـي هذا السؤال حتى استغفرت الله بسرعة، وأنا ألوم نفسي علـــى هـــذا الكلام العجيب الغريب، فحب البشر لبعضهم لا يمكنه أن يرقـــى، أو يسمو أبدا إلى منـــزلة حب الله العلي العظيم..

تساءلت ماذا أفعل بهذا المشكل العويص الذي بقي كالعقبة في طريقي الجديد الذي أمشيه بكل جوانحي من أجل النجاح فيه.

كنت أعرف أنني لا زلت في سن المراهقة، وأنه لا يحق لي التحدث عن الزواج منها، وأنه حتى لو حدثت معجزة، وقبل الجميع بفكرة زواجي لتحصيني من الوقوع في الموبقات، فمن أدراني أنها ستقبل بي؟ بل أغلب الظن سترفضني، فأنا لست إلا ابن الاسكافي في النهاية، وهي بنت عمي الخباز الذي يملك شقتين في نفس العمارة، واحدة يعيش فيها مع زوجته، والثانية لأبنائه المتعلمين الذين يدرسون بالجامعة، وسيتخرجون دكاترة ويصبحون مسؤولين كبارا في الدولة، كما هو حال أبناء من يملكون المال، والامتيازات، والذين نراهم أحيانا يسرحون ويمرحون في سيارات فخمة، يتواجدون في تلك الأماكن التي لا يسمح لنا نحن فيها حتى بالظهور.

بعض الناس أقدارهم أحسن من أقدار غيرهم، هذه حقيقة لا مفر من مناقشتها، لا الآن، ولا غدا، الأمر حُسم من البداية، ولهذا بقيت قابعاً في تلك الحيرة شهورا، وشهورا دون أن أتقدم نحو إجابة تقنعني، أو ترضي خاطري قليلا.

لقد كان الشيء الوحيد الذي كنت متأكدا منه هو أني أحب سعاد بنت عمي الخباز، وأني من أجلها لا أدري ماذا أستطيع أن أفعل؟. وأنها في نفس الوقت تشكل عقبة في تحقيق مستقبلي، الذي بات واضحا لي بعد أن غمرتني عناية الشيخ حمادة، ودفعني لخوض غمار تجربة مختلفة عن تلك التي كان مقدرا لي أن أعيشها، لو لم أصادفه في يوم من الأيام.

الفصل الثاني

ترددت كثير قبل أن أتخذ ذلك القرار في الـذهاب إلى حـبس "الحراش" للحديث مع الزاوش عما فعله من أجل وردة، كـان الأمـر غريبا جدًا، و لم أستطع أن أفهم كيف يضحي شخص بسـنوات مـن عمره في سبيل فتاة مهما كان حبه كبيرا لها، بالرغم من أنـني كنـت أفهم معنى التضحية في سبيل الحب من ناحية شعورية على الأقل.

ذهبت بحثا عن العزاء، أو عن ذلك الشيء الذي كان ينقصـني، وأنا على تلك الحالة الغامضة التي كانت تستولي عليّ دون فهم، فلقـد وصلت إلى قمة حيرتي بين أن أمسح من ذاكرتي تلك الفتاة التي غرمت بها منذ الصغر، وأن أتقدم في طريق آخر سيجلب لي المكانة السعيدة في الدنيا والآخرة..

لم أكن أعرف الزاوش شخصياً، فلم يكن من أصدقائي المقـربين ولكن قصته تلك انتشرت طبعا في الحيّ، وبلغت حيطان وآذان الجميع، لكن ككل القصص التي يحكيها الناس تجدهم يزيـدون وينقصـون، ويحولون الحكاية الحقيقية عن حقيقتها، ولا يبقى منها إلا تلك الحكمة التي تنهي الإنسان عن الاقتراب من الأفعال السيئة.

كانت الحكاية تقول إن الشاب المسكين أدمن جسدها، دون ذكر للعشق الذي كان متأججا في صدره، فقط الجسد ورغباته الأليمة، وأنه ضرب زوج أمها الذي لم يكن يحبه أحد لغلظـة طبعـه، وخشـونة تصرفاته، لأن الكثير من سكان الحيّ تخاصموا معه حول مسائل عدة، ومن بينها أنه لم يُكن يلقي السلام على أحد عندما يمر، وأنـه كـان

معروفا ببخله، مشهورا بتخزين المال دون أن يصرفه حتى على عائلته، وكان ذميم اللسان عندما يغضب ويشتم، وأيضا لم يره أحد يوما يأتي للصلاة في المسجد.

أما الزاوش فكان يقال إنه فتى طيبا لكن عمته الرغبات لما دفعته لارتكاب تلك الحماقة التي كلفته غاليا، أيضا يعطون للحكاية بُعدا رومنسيا فيقولون إنه كان يحب وردة سنان وإن هذا الحب هو الذي دفعه لكي يعارك والدها السيء، ويكاد يقتله من أجلها ويقبل دخول السجن في سبيل حبه ذاك.

من جهتي كنت أميل إلى هذه القصة التي تؤثر الحب على أي شيء آخر، ولعلي ما أقدمت على طلب زيارته إلا لهذا السبب بالذات.

كانت قصة انتحار أخت الزاوش لغزا أيضا في الحيّ تكتمت عليه عائلته طويلا، وحتى طريقة حياتهم تغيرت بعد انتحارها فلم تعد العائلة حريصة على الظهور كثيرا، صار أفرادها لا يتكلمون إلا مع أنفسهم تقريباً، ويتجنبون الآخرين مهما كان قربهم منهم، يتسترون على كل ما يحدث داخل جدران بيتهم، لكن ذلك لم يكن مهما فما سمعته عن أخت الزاوش كثير، وكان يطغى عليه خيال الناس أكثر مما حدث بالفعل.

الشيء الذي كنت حريصا على التحدث فعنه مع الزاوش هو موضوع الحب، هذا الموضوع الذي كنت متأكدا أن الشيخ حمادة لن يفيدني فيه باي شيء، ولا أبي الاسكافي، ولا الناس الذين يأتون للصلاة خمس مرات في النهار والليل، دون أن يفتحوا الباب لمناقشة مسائل الحياة العاطفية لشباب قد تلهيهم عن تأدية ما يتقربون به من الله، هربا من ضغوطات حياتهم اليومية القاسية.

عندما أحضرت إذنا بزيارته كنت أعرف أن الزاوش نفسه سيتعجب وربما يتساءل ماذا يريد هذا الشاب.

كنت بلغت العشرين من عمري والزاوش كان قد قضى أكثر من أربع سنوات حبسًا ولم تبق له إلا سنة، أو أقل، ويخرج للحرية من جديد.

لم أتصور أنه سيسمح لي بالزيارة عندما طلبت ذلك منه لكن وجدته ينتظرني في قاعة الزيارات.

عندما وقع نظري عليه كدت لا أعرفه، تبدل كثيرا خاصة في شكله، في الهيئة العامة التي ظهر لي بها، إنه شخص آخر، مختلف عن ذلك الفتى الذي كان عليه، سلم عليّ مرحبا، وشكرني على الزيارة، وراح يسألني عن الحيّ والحياة هناك، وعائلته، وغير ذلك فأخبرته بما كنت أعرفه شاكرا له هذا الوقت الذي منحني إياه، فضحك وهو يرد: وهل لي هنا غير الوقت، أمنحه لمن يريد. فضحكت من غبائي، وقلت بتعثر هذه المرة:

- أعرف أنه قد يبدو لك مستغربا أن أزورك لأسألك في أمر لا أدري إن كان يعني لك شيئا ما الآن.
- وما هو هذا الأمر يا أخي؟
- لا أدري كيف أشرح لك ذلك. أنا كما تعلم أعمل مؤذنا بالمسجد، قطعت علاقتي بالأشياء التي تهم الشباب في مثل سني، صحيح هذا يسعدني كثيرا، التقرب من الله واكتشاف هذه الروح الجميلة التي تسكن بين ضلوعنا، أعترف بأن طريق الهداية جعلني أرتاح كثيرا.
- هذا من نعم الله عليك يا أخي، حتى أنا تبت في السجن، وأجد نفسي سعيدة في القرب من الله.

لا أدري لماذا شعرت بالاستغراب، وهو يقول لي ذلك الكـــلام الذي لم أتوقعه، حتى أني ظننت أن كلامي لن ينفع في شيء وهو على هذا الحال الجديد، أو لن يقدر على فهمي ما دام طلق قديمه، واعتنـــق جديده.

صمت بعض الوقت أطرق التفكير، وأنا أبحث عن منفذ للخروج من هذه الوضعية الحرجة، وشعر هو أني شردت عنه فقال:

- إذا كنت تريد مني شيئا فاسأل، يسعدني مساعدتك.
- نعم، شكرا لك، هذا من عظيم روحك، فقط.
- لا تخشى من شيء، أنا سعيد أن أراك على هذا الطريـــق يـــا أخي. هذه من نعم الله التي تحمد.
- حسنا، لا أعلم كيف أتحدث لك في موضوع يخصك أنت.
- لا بأس، بعد توبتي أشعر بأني الآن في ســـلام مـــع نفســـي، ومطمئن.
- أقصد علاقتك بوردة سنان وماحدث لك بسببها؟

هذه المرة هو الذي غشيه صمت قصير، ثم قال بعد تنهيدة طويلة:

- لا أخفي عليك أني أحببتها، حب المراهقين حينها، ولولا ذلك ما أقدمت على ما فعلت، ولكن عندما أفكر في ذلـــك الآن أقول بأنني فعلت هذا ضد الظلم، ضد رجل قاسي القلب كان يضربها دون شفقة أو رحمة. لهذا أنا لست نادماً علـــى مـــا أقدمت عليه. لكن العواطف هي أمور لم تعـــد تهمـــني ولا آخذها في الحسبان.
- والحب؟
- ماذا تعني بالحب؟
- أقصد شعورك نحوها كيف هو الآن؟

استغرب من سؤالي، وبدا له كأني أجره لشيء محدد فغير طريقة كلامه، وراح ينصحني قائلا:

- أنصحك ألا تخطئ مثلي، وتدفع حياتك في سبيل امرأة مهما كانت مكانة هذه المرأة في قلبك فهي لا تستحق ذلك.

قالها بصوت مرتفع حتى أنه لفت انتباه كل الحاضرين في قاعة الزيارات، ثم صمت، وعاد ينصحني من جديد:

- لا تفرط في الدين، هذا أحسن من أي شيء آخر في هذه الدنيا الفانية.

فهمت لحظتها أنني أمام "زاوش" آخر غير الذي كنت أنتظر لقاءه، شخص طلق القديم، وعانق الجديد، و لم يعد يربطه بالذي طلقه إلا خيط واه من الذكريات المحترقة.

عرفت حينها أنني لن أحصل على شيء معه، وأنه يجب عليّ أن أخرج من هذا المكان بسرعة.

استأذنته في الانصراف معتذرا على اقتحامي خلوته، وأني سأدعو له الله أن يحميه من كل شرور السجن فحدجني بنظرة فيها الكثير من الرصانة والحكمة، وقال:

- لا تبذر وقتك في أشياء عابرة.

صافحته بحرارة، وخرجت من تلك القاعة أكثر تشوشا من ذي قبل. فلقد خيبت الزيارة تمنياتي القلبية في أن أجد شخصا يفهم لواعج قلبي وحبي الناري لتلك الفتاة البعيدة.

الفصل الثالث

رغم أن زيارتي للزاوش بالسجن لم تنفعني كثيرا، بل زادت من تشويش ذهني أكثر من الأول، إلا أني سعدت على إقدامي على تلك الخطوة، فلقد كان هذا الشخص الذي يكبرني بعامين، وكان محط إعجابي منذ زمن بعيد، وهكذا بعد رؤيته، والتحدث معه فهمت أن لا شيء في الحياة ثابت، رغم أني كنت متأكدا أن الإنسان قادر على إخفاء مشاعره التي تؤلمه حتما، مثلما كنت أفعل في حياتي أنا كذلك، ولقد هالني ذلك كثيرا، وأحسست أن سلطان الحب النسوي ليس بمقدورنا التحكم فيه.

كنت من جانب آخر أعرف أن حبي لسعاد بنت عمي الخباز يكاد يتحول إلى قصة سرابية، ويوميات حلم جميل تخترقه كوابيس مظلمة، كحكاية خرافية أبني فوقها قصورا من رمال، وخيالات ليس لها أثر على الأرض، كنت أقول بداخلي أنني بحاجة إلى ذلك كي أبقى على علاقة بالحياة، ولا أفقد سحرها بداخلي.

لم يرغب الزاوش في الحديث عن الحب، شعرت أنني التقيت بشاب مُحبط، مُنهك وقليل الحيلة، ويتكلم بخشونة الرجال العُدوانيين، رغم الطهارة التي كان يظهرها وهي لا تعكس في رأيي إلا محاولة التهرب من حقيقة فشله الحقيقي، وجدته شخصا دخل عالم الدين الواسع، وداخل الزنزانة الموحشة لا بد أن يجد الإنسان منفذا إلى الما وراء ينقذه منها، لم يعد عاشقاً كما تصورته، لم يعد يتكلم برقة الرومانسيين المؤثرة، لعل المكان الذي كان يقبع فيه لا يسمح بذلك، صارت له حياة أخرى، وهو

حتما يتذكر ماضيه كخيال طفولي ويقول إن الخطأ لم يكن خطأه في النهاية، وإن الحياة هي التي توقعنا في فخاخها الآثمة، وتبتسم بطريقة ماكرة عندما تشعر أننا لم نعثر على الطريق.

كنت أعرف صديق الزاوش ناصر الذي كان يعمل في سوق الخضار، والذي أخبرني أنه حتى هو لم يفهم كيف أقدم الزاوش على فعلته التي أدخلته السجن.

قال ناصر بعد صمت قصير:

- عندما أفكر في تلك الحادثة أفرح لشيء واحد فقط، أن ما وقع له غير حياتي أنا أيضا، وجعلني أبتعد عن المشاكل قدر ما أستطيع..

ثم تدفق لسانه بالحديث:

"كنا أصحابا بمعنى الكلمة، نلعب معًا، نحارب أعداءنا في الأحياء الأخرى، ونلهو ونركض دون أن ننتبه لشيء.. لكن أذكر جيدا الفترة التي تغير فيها الزاوش، لم يحدث ذلك صدفة بل عندما توفيت أخته رشيدة، شعرنا جميعنا أنه تغير، صار شخصًا آخر، كما لو أنه هو الذي دفعها للانتحار، و لم تنتحر بمحض إرادتها. لم نعرف أبدا لماذا تحمل هو هذه المسؤولية، أنبه ضميره أكثر من غيره، طبعا هو كان مختلفا من البداية عني وباقي الشلة من أصدقائنا كان يدرس في الثانوية، ويحلم بالتعلم، وأن يصبح شخصية مهة في المستقبل، أي كان يسير في طريق آخر.. كما ترى أنا أعمل في السوق، أبيع الخضار والفواكه، تركت الدراسة باكرا، أما هو فكان يظهر لي أكثر ذكاء، وشغفاً، لم نعد نلتقي كثيرا بعدها، المرة الوحيدة التي شاهدته فيها كان يجلس مع وردة سنان، وشعرت أن بينهما شيئا ما، وأخبرت كل أصدقائنا بأنهما يعشقان بعضهما البعض.. لقد فرحت له حقا، وحسدته كذلك.. قلت

إن الحياة أخيرا تبتسم له، وتعطيه ما يريد لكن المسكين ذهب ضحية ذلك.. المسكين خمس سنوات في الحبس تغير الرجل حتماً.. لقد ضيع حياته ومستقبله.. من يومها توقفت عن كل الحماقات التي كنت أقوم بها، انتقلت أنا أيضا للعمل بعد أن كنت مرشحًا لأكون لص سيارات، أو أسواق.. فضلت العمل في السوق، كما تراني الآن أبيع الخضار هذا أحسن من الحبس على كل حال".

وضعت نقطة على السطر، وتركت موضوع الزاوش على حدة متأكدا أنه لن ينفعني في فهم حالتي وشرح قصتي بالتأكيد، وعدت لروتيني القديم، وحياتي المعتادة.

ظل الشيخ حمادة يتعقبني بأسئلته المعتادة:

"كم حفظت اليوم من الذكر الحكيم؟ هل بدأت تقرأ كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي؟ كم ركعة شكر وعبادة قمت بها خارج الصلوات الخمس؟

كنت أجيبه بنعم طويلة لأني كنت أفعل ذلك وأكثر، فلم أكن أتردد في التزود من نهر الدين حتى أشبع نهمي الروحي، ولم أكن أعتبر ذلك مجرد فريضة أقوم بها من أجل هذا الشيخ الحريص على مراقبتي إن تهت، ومعاقبتي إن أخطأت، أو من أجل عائلتي التي وضعت كل أملها فيّ كي أصبح رجلا صالحاً، بل لأنني كنت بحاجة إلى ذلك التوازن الداخلي، الإحساس بأنه مهما كان الحال فلا بد أن يكون عندي ما أتكأ عليه إن هزمت من الداخل.

بقيت منتظرا أن يفعل الله شيئا لصالحي فينقذني من البلبلة العاطفية التي كنت فيها، بين حبي لتلك الفتاة، ورغبتي في أن أكون ذلك الرجل الفاضل، والمتفقه في الدين، والذي يستطيع أن يُساعد الناس على الوصول إلى طريق الله المستقيم..

اعتقدت أنني أستطيع الموازنة حتما بين هذا وذاك، وأنه مهما كان الأمر جللا فإنه تكفيني الثقة في الله، والنفس لكي أحصل على ما أريد..

كتبت رسالة قصيرة للفتاة التي أحب لم أوقعها باسمي بل بهذا اللقب الذي ظننت أنه سيفي بالغاية المرجوة منه "عاشقك العنيد" وأخبرتها بكل ما يعتلج في قلبي منذ كنت طفلا صغيرا يراها تلعب مع صبايا من سنها، وكيف أن هذا الحب بقي صامدا بقلبي ويشتعل بقوة في صدري، ويريدني أن أصل إليها بأي شكل تريد، وأني رهن اشاراتها تأمر فأطيع، وأن كل ما تطلبه مني سأنفذه بسرور وحبور. فقط أن تعرف كم يهواك قلبي، وأن حياتي تهون في سبيلها.

ولا أدري لماذا ظننت أن الرسالة ستصل إلى قلبها، وتخاطب وجدانها، وتشعرها بأهمية أن يحدث لها شيء من هذا القبيل فمن يقدر على كتابة كلمات حب في ذلك الحيّ الشعبي التعيس، لكن الأمور لم تسر كما توهمت وحلمت. لقد بعثت الرسالة على عنوانها عبر البريد، وانتظرت أسبوعا، وأسبوعين لعل شيئا ما يظهر على سطح الواجهة فألاحظ تغيرا في سلوكها، أو اهتماما برسالتي لها، خاصة أني بقيت أتعقب خطواتها مُقتفيا أثرها وهي ذاهبة للثانوية، أو خارجة منها، وهي تجلس بالقرب منها، أو بعيدا عنها مع زميلاتها فأقترب تارة، وأبتعد تارة أخرى، وأنا ألعب دور غير العالم بما يدور حولي بينما كنت كلي انتباه لما قد يبدر منها..

عندما عرفت أن الرسالة الأولى لم تفعل مفعولها أرسلت ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة وبقيت أنتظر أن تلعب تلك الرسائل دورا ما في التأثير على قلبها فمهما كان الحال فهي فتاة في سن الخيال والعشق، وهي لا بد ستجد في كلمات العشق التي أكتبها بعناية،

وتأنق شيئا من السعادة والغواية، أو هكذا ظننت، لكن لم تصلني أي إشارة منها حتى كرهت رسائلي، وكرهت ما أقدمت عليه، ورحت أسب نفسي، وأسبها، وأشتم اليوم الذي دخلتني لوثة الحب فأهلكتني إلى هذا الحد، وبقيت محتجا على ظلم الحياة للعشق بهذا الشكل المؤلم..

ذات صباح، وأنا نائم في مقصورة المسجد، لم أستيقظ بعد حتى سمعت شخصا ينادي عليّ باسمي، فنهضت مفزوعا، ذلك أني قضيت ليلتي تلك شبه محموم من التفكير في قصة حبي المعوجة، متوجها ناحية الباب لأعرف من الذي ينادي فإذا به حارس العمارة الذي يسكن في الطابق الأول حيث تسكن سعاد، وعائلتها فتقدمت منه مستفهماً:

- ماذا هناك؟ ولماذا تنادي عليّ و لم تطلع الشمس بعد؟"

لم يقل شيئا، قذفني بمجموعة من الأوراق، والتي لم تكن غير رسائلي إلى تلك الفتاة التي أهيم بها، وصاح في وجهي قائلا:

"احمد ربك أنها وقعت في يدي، و لم تقع في يد والدها، لكان نفاك من هذا الحيّ بأكمله".

بقيت مذهولا، وغير مصدق ما يحدث لي، عجز لساني عن الكلام، والدهشة سمرت قدميّ عن الحركة فيما استمر هو يتكلم:

"لم أفعل هذا من أجلك، بل من أجل الشيخ حمادة فقط، فهو رجل صالح وطاهر، وأنا لا أريد أن يلحق باسمه أي سوء، حتى لو جاء هذا السوء منك".

بقي لساني عاجزا عن الحديث، وهو يُوجه لي اللوم بعد اللوم، كأني ارتكبت برسائل عشقي تلك أفظع المنكرات، وأني سأتحمل عاقبة ذلك السوء طوال حياتي..

وخفت من تداعيات هذه القصة، لو انتشرت في الحيّ، ووصلت إلى أسماع الجميع ماذا سيقال عني حينها، بأي وجه سأقابل سكان الحيّ، وماذا سأقول للشيخ حمادة، سيعيدونني لسيرتي القديمة، وسخريتهم اللاذعة، ولن ينقذني بعد ذلك أي أحد من هذا المصير الأليم، لكن حارس العمارة طمأنني "لن أخبر أحدا بهذه القصة، ولكن لو ضبطت رسالة أخرى، أو شاهدتك تحوم حول تلك الفتاة فلن أضمن شيئا بعدها"..

كان تهديده واضحاً، وصريحاً حينها، وهو يلقيه في وجهي كما تلقي العدالة على لسان القاضي حكمها النهائي، ولا يبقى على المحكوم عليه بالعقاب إلا الصمت الذليل، وتنفيذ ما يعاقب به.

ثم تركني وخرج، وتركت نفسي حينها تتمزق بعدة طعنات قاتلة، تطعنني المرة تلو الأخرى دون أن أصرخ أو أبكي، طعنات غادرة تغوص داخل شرايين الروح، تترك كل ما فيها ينزف دما أحمر اللون، ورفعت رأسي إلى السماء، وطلبت المساعدة منها، وأن تقف إلى جانبي في هذه المحنة العسيرة.

الفصل الرابع

عندما جاء الشيخ حمادة سألني عما جرى لي، وهو يراني على تلك الحال كأني شاهدت وجه القيامة، فلم أخبره بشيء، نظر إلى عينيّ مدققا حتى يتأكد من أني لا أكذب عليه، وأعترف بأنه كان يملك تلك النظرة الثاقبة التي لا تخطئ أبدا ثم فقال "بلى.. لكن إذا لم ترغب في أن تكاشفني فلا بأس" فرحت أصارحه دون أن أقول الحقيقة التي كانت تقتلني في داخلي: إنها أحزان طبيعية لشاب يبحث عن الطريق الصحيح..

نصحني أن أقرأ القرآن كثيرا، وهذا ما فعلت فلم يكن عندي حل آخر إلا اللجوء إلى الله كي يحميني ويهديني ويغير من أمري فيبعد عني غواية الشياطين، وشرور البشر..

لشهور عديدة لم أخرج من بيت الله، وبقيت كما الراهب الذي يقوم بطقوس يومه داخل معبده المقدس، وهو يدعو خالقه أن يفتح له طريقه، ويذلل عقبات روحه، وظننت أن هذا الحل هو الأمثل لي حتى أنسى الجميع، ولا أتذكر أحدا.

لكن المسجد فضاء مفتوح على الناس، تراهم رغم أنفك، تشعر بحضورهم الطاغي كل يوم، يأتون للوضوء، والصلاة، أو لأشياء أخرى، من العبث أن تعتقد أن الناس الذين يأتون للمسجد هم طيبون وخلوقون، لا، تجد فيهم كل شيء، الطيب والسيء، حتى المنكرات التي تظنها لا تحدث، وعندما أتحدث مع الشيخ حمادة عن ذلك يقول لي: دعك منهم، لا تلتفت إلا لمساوئك أنت، وحاول أن تطهرها.

اعتقدت أن الشيخ حمادة نوعية خالصة من البشر، طاهرة طهارة لا توصف، فلقد كان يجمع بين التقوى والحكمة وكان يقدر النـــاس بحسب أخلاقهم وسلوكهم، لكنه لم يكن يتـــهرب مـــن الشـــر، ولا يواجهه كذلك. كان ينفر من سلوكات المصلين الحمقاء، وهم يـــراهم ينظرون لتلك الحركات الروتينية على أنها عبادة، مرات كان يخطـــب ويشرح لهم بأن الصلاة هي شعور داخلي قبل كل شيء، الحركات لا تهم كثيرا، صلوا بقلوبكم قبل عضلاتكم. كان كلامه يطرب روحي، يوسع داخلي لأبعد مدى، يظهر لي الله جلّ وعلى في أجمـــل صـــورة، وأعظمها على الإطلاق، تلك الصورة التي تجعلك تحبه لا تخاف منـــه، وكم كنت بحاجة لذلك الحب الإلهي في تلك اللحظة التي فشل فيهـــا حبـــي الدنيوي.

يوم الجمعة كان يوم الحشر، معظم سكان الحيّ يأتون للصلاة، وحتى حارس العمارة الذي هددني بالفضيحة كـــان الأول الـــذي يحضر، ويجلس في زاوية ويبقى يتأملني كأني مجرم يجـــب أن يـــدفع جريمة عشقه ذاك، كما والد سعاد، صاحب مخبزة "السعادة" يحضر كذلك متأخرا قليلا بلباس أنيق، وقد تعطر برائحة المسك التي تزيد من وقاره، ويجلس في الصف الأولى كما عادته، في مكان يتركونـــه له، وكانت رؤية هاذين الإثنين تخلق بداخلي الفوضى والاضطراب، وتحرك أشجان الماضي القريب، وحبـــي المصلوب لتلك الفتاة لكن لم يكن بيدي حيلة فالمسجد للجميع وهو فضاء مشروع لكل مـــن يدخل إليه.

صرت مؤذن المسجد بعد أن تمكنت من حفظ نصف القـــرآن، وشاركت في مسابقة أشرفت عليها وزارة الشؤون الدينية، وصـــار لي راتب محترم أتقضاه كل شهر. كنت أعطي نصفه لوالدي كي يعين به

العائلة، والنصف الآخر أدخره في صندوق صغير بالمقصورة التي صارت سكني الليلي والنهاري على السواء.

لم تغب عني مع ذلك صورة سعاد، ولكن صرت أستطيع تحمل عدم رؤيتها طويلاً، وكانت عين الحارس تترقبني في كل مرة يشاهدني قريبا من العمارة التي تسكن فيها، دون أن يكلمني، لكن كانت تكفيني نظراته لأفهم منه الإشارة.

سنتان مرتا على هذا الحال، قليل الحركة في الخارج، كثيرها داخل المسجد الذي من خلاله يمكنك أن تلتقي كل سكان الحيّ بعضهم خمس مرات في اليوم، وأكثرهم يوم الجمعة الذي لا يفرطون فيه مهما كان الحال، ومن خلال ذلك اللقاء الجماعي تصل الأخبار كلها، من تزوج، ومن تطلق، ومن خان، ومن هاجر، ومن يعيش في الحرام، ومن يعيش في الحلال، فالمسجد لا يغير من هذه الأمور قيد أنملة، والناس تعودوا على الرغي الطويل، والحديث في ظهور بعضهم فتلك سنن لا يقضي عليها التظاهر المفرط بالإيمان، بل يمنحها أحيانا بعض الشرعية الأخلاقية المزيفة تراهم جالسين بساحة المسجد، وهم يظنون أنهم يعبرون فقط عن استنكارهم للأفعال السيئة بإدانتها، لكن كل ما يفعلونه في الحقيقة لا يعدو أن يكون إساءة للآخرين الذين لا يحبونهم، أو يكرهون خياراتهم الفردية التي لا تناسب خيارات الجماعة التي يتوحدون فيها دائما ضد كل من يشذ عن قواعدها الصارمة تلك.

كنت أنتظر أن ينزل عليّ خبر زواج سعاد في أي يوم من الأيام كلما استمعت لقصص زواج غيرها خاصة في الربيع والصيف، فنادرا ما يتزوجون في الخريف، والشتاء، لكن لم يصلني ذلك، ولم أجرؤ أبدا على هذا السؤال حتى لبعض الشباب الذي كان متحمسا لزعامتي، وهم يرونني الوجه الجديد للدين في هذا الحيّ العتيق..

لم أطلب تلك الزعامة، و لم أرغب قط في أن أنسى فضائل الشيخ حمادة عليّ فلقد أعطاني ما لم أتوقعه من أي بشر آخر، حتى من والدي البيولوجي، ولهذا كنت أحفظ فضله عليّ، وكنت أعتبره كرما منه عندما يغيب أن يترك لي الصلاة بالناس، أو أداء حتى خطبة الجمعة التي كانت تأتينا مرقونة من إدارة وزارة الشؤون الدينية فأقرأها كما كتبت لنا دون تصرف، موقنا أنهم يحسنون حتما توصيل رسالة السماء للناس أحسن مني، وأن دوري يقتصر على حسن الإبلاغ فقط، ولقد تطورت وضعيتي بالمسجد أكثر، وأصبحت أحيانا أستخلف الشيخ حمادة في الفتوى كذلك، بعد أن تأكد من تمكني من كتب الفقه المشهورة، ومعرفتي بأشياء تخص طريقة إدارة شؤون الناس في حياتهم اليومية، وكنت أفعل ذلك لكل من يلجأ نحوي من مختلف الأحياء المحيطة ب"مارشي أتناش"، ولا أخفي أن طلبات الناس كانت تسعدني، وتشعرني بأهميتي، وقيمتي في حياتهم تلك، وكانوا يدعونني لبيوتهم مرات كي أعقد قران زواج، أو أقرأ القرآن في جنازة ميت، أو الدعاء لشخص مريض، وكنت أفعل ذلك بحب كبير، والناس تكرمني بكل ما تلمك من ثمين ونفيس، مرات بالنقود، ومرات بالهدايا والعطايا البسيطة فكنت أشعر بأن الله رزقني من حيث لم أكن أحتسب، وأنه عليّ أن أحمده، وأشكره على نعمه تلك..

توفي الشيخ حمادة في السابع عشر من شهر جويلية من عام 1989 وكنت قد صرت رجلا في السابعة والعشرين، وقد بلغ به العمر سن الثمانين، وترك لي في وصيته بعض المال، وكثيرا من كتبه القيّمة، ونجح في إقناع وزارة الشؤون الدينية بأن أخلفه في الإمامة، رغم الصراعات الكبيرة التي تحدث على الإمامة بين الأئمة في الحصول على هذا المنصب لكنه مكنني منه أنا لما كانت له من مكانة في تلك الوزارة، وهو ما

أسعد سكان الحيّ الذين لم يكونون يرغبون أن يؤمهم غريب عن الديار، فلقد تعودوا عليّ، وصاروا يرونني في منزلة المرحوم وأكثر..

لكن حياتي تغيرت قبل ذلك بكثير، لقد أفادتني عزلة السنتين تلك على تجاوز مشكلتي العاطفية، أو هذا ما ظننته حينها، وابتعادي عن طريق القلب الموجع، والتفرغ للدين فقط، وإعطاؤه كل سمعي وبصري وجهدي، أما غير ذلك فهو لا ينفع في شيء، ولا يضيف لحياتي إلا ما يعكر صفوها الأصيل، وطبعها النقي..

صحيح أن خبر سفر سُعاد للدراسة في باريس هو ما جعلني أفقد أي أمل في أن أكون بجانبها ذات يوم والحق أن ذلك الخبر أسعدني كذلك، فغيابها سيمكنني بالتأكيد من تجاوز تلك العقبة في حياتي وإني لشاكر السماء التي تركتها تذهب لكي أخلص في طريقي الفريد والوحيد والذي كان يتطلب مني صرامة أخلاقية كبيرة وصفاء قلب عميق.

أخذت دوري كإمام بكل جديّة، ونشاط، وإخلاص. كنت أريد أن أكون خير خلف لذلك الشيخ العظيم حمادة، فلا أبتعد عن نهجه قيد أنملة، وأسير على خطاه حتى النهاية، كان ذلك هو مبدئي الأول والأخير.

غير أن الأمور لم تسر على ذلك الخط الذي رغبت أن تسير عليه فبمجرد ما جاءت الديمقراطية للبلاد حتى صار المسجد فتنة بمعنى الكلمة، وصراعاً يومياً بين فئات الشباب المتدينين، فهذا إخواني، وذاك سلفي، وكل جماعة تدعو لتيارها بطريقتها الخاصة، وعلى قدر ما حاولت الارتفاع عن صراعهم ذاك، فأكون الوسط الذي يتقاسمون على مائدته الحوار إن تحاوروا، لكنهم كانوا يتنبازون بالألقاب ويتعاركون بالكلمات والاتهامات، وشعرت أن الأمر يتجاوزني بحق،

كانت موجة الحركات التدينية قد وصلت إلى قمتها، و لم يعد لهـــا أي طموح إلا أن تكتسح السلطة بعدما اكتسحت الشارع والجميع.

***

عندما سمعت خبر الإفراج على الزاوش فرحت له، وتمنيت أن يجد طريقه بعد هذه المحنة العسيرة، لقد كان شابا يافعا ويحلم مثلي بالحيـــاة الهانئة والكريمة ولكن عندما لقيته شعرت أنه تغير جذريا، وصار ينظـــر له على أنه بطل جديد في هذا التيار الديني و لم أفهم السبب إلا عنـــدما بلغني أنه اليد التي يضربون بها كل من يرونه خطرا علـــيهم أو عـــدوا لتيارهم الذي يريدون أن يحكم.

لقيته في المسجد وتحدثت معه وحاولت نصحه لكنه كـــان قـــد استقر على حالته الجديدة وسخر مني وهو يقول لي:

- هذا الدين يجب أن يحكم بـــأي طريقـــة وإن ظننـــت أنهـــم سيتركون لنا الحكم هكذا فأنت واهم.

شعرت أنه اختار طريقه، وأن لا سبيل لرده عـــن ذلـــك الخيـــار، فكففت عن محادثته، لكنه عاد مرة، ووجه لي التهديد الذي وجهه لغيري:

- الجماعة تقول لك يجب أن تترك لنا المنبر لنخطب فيـــه يـــوم الجمعة.
- لكن القانون لا يسمح لي بذلك.
- نحن لا نؤمن بقانونهم.
- أقصد أني أتقاضى أجرا على هذا العمل.
- لن نأخذ أجرك لكن المنبر لنا.

توقفت من يومها عن تقديم خطبة الجمعة، كنت أكتفي بالصلاة فقط، لقد أحضروا شيوخهم السلفيين من كل مكان، شرقا وغربـــا،

ليصرخوا ويهددوا، ويقولون ما يريدون قوله، والناس تتبعهم مكـــبرة دائماً"الله أكبر.. الله أكبر" ومهللة لخطاباتهم التي كانت ترعبني بحق.

لم أكن أقاسمهم تلك النظرة للدين كنت أشعر أنهم سيفجرون كل شيء، علاقة الإنسان بالله ســـتدخل معتقـــل الأهـــواء والتصـــرفات الخسيسة، ستنكسر الروحانية لصالح الوهم، لكن لم يكن بيدي حيلـــة لأقول كلامي ذاك.

الزاوش هددني مرة واحدة، وكانت كافية لتشل عروق دمـــي، وعندما سمعت ما كان يقوم به عرفت أنه لم يكن يتكلم من فراغ، كان يستطيع أن يفعل ما يريد، ويقتل من يشاء ثم بلغت الأمـــور ذروتهـــا عندما وصلني خبر قتل وردة سنان.

الحادثة التي كتبت عن بشاعتها كل الجرائد الوطنية. أحسســـت حينها أن صوتي لن يكون له نفع، قدمت استقالتي من ذلك المنصـــب وتركت لهم المسجد بما فيه، ونفذت بجلدي.

استأجرت شقة صغيرة بحيّ عميروش بالمال الذي ورثته من الشيخ حمادة، وخلوت لنفسي لأكمل مشواري في الدين، فلقد فهمت عميقا أن ذلك يتطلب مني جهدا فردياً، وعبادة خالصة من طرفي، ولعلي دون أن أدرك ذلك، كنت أسلك سبيل المتصوفة، والزاهدين، وكنت أشعر أن حياتي لن تكون لها فائدة إلا في التقرب من الله، ولا شيء غير ذلك.

فرحت بروحي التي كانت تتسلق حبالاً شاهقة، طرقاتها محفـــورة ومتعبة، وكنت أجد لذتي في التسلق والصعود. لا شيء غير ذلك لكن كنت أعرف أن البلد سينفجر في أي لحظة، والعنف يصل إلى الجميع.

الفصل الخامس

يوم سمعت طرقا على الباب ظننت أنه الموت جاء يطرق روحي أخيرا، فقمت غير مستاء لاستقباله، فإن كان الموت، فمرحبا به، لقد قُتل الكثيرون تلك السنة، فلماذا أنجو أنا، استسلمت بتلك الطمأنينة لأي لحظة غدر قد تؤدي بي إلى العالم الآخر، لقد طهرت روحي من شوائبها لكي تتقبل فكرة الذهاب دون جدل عقيم، أو المعراج بحسب اللغة التي كنت أستعملها، فنحن نصعد عندما نموت، وأرواحنا ستخلع من على هذه الأرض اللعينة التي لن نترك لها إلا أجسادنا تعبث بها كما تشاء.

فتحت الباب، فإذا المفاجأة على أكملها، كان يمكنني تصور كل شيء إلا أن أجد قبالتي سعاد بنت عمي الخباز واقفة من الجهة الأخرى للباب، أغمضت عينيّ، وفتحتهما من جديد لأتأكد، هل أنا في حلم، أم يقظة؟ أم هو الموت جاءني على هذه الصورة التي كنت أعشقها؟ ولماذا اختار صورة سعاد؟ لا لست في حلم، كانت واقفة بجسمها، ولحمها، كانت تنظر إليّ، والأجمل من كل هذا كانت مبتسمة.

بدا المشهد غرائبيا وسحريّا لا يقع حتى في أجمل الأحلام السينمائية، أو الخيالات الروائية، وحتى هذه لا أظنها تبالغ إلى هذا الحد، لكن الحقيقة أن سعاد كانت واقفة بقربي، وأنا متجمد الحركة، متعثر اللسان، عاجز عن نطق حرف واحد فقط، تاركا لها المبادرة، فهي من جاءت بعد طول سنين، وهي من عليها أن تقول شيئا

فأنا لم أستطع منذ صغري قول أي كلمة، وكان نتيجة كل ذلك ألمي الذي لم يكن له حدود، ألمي الذي دفنته مثل حبي في قبر النسيان، وأغلقت عليه بالحديد والنار، بعد أن شعرت أن ذلك هو حظي ونصيبي من هذا الحب الأعمى.

قالت أخيرا، وهي تراني على تلك الحالة من الارتباك والاندهاش:

- هل تسمح لي بالدخول؟
- عفوا تفضلي.
- أعرف أنك منذهل من حضوري.
- منذهل فقط.
- في هذه الفترة بالذات شعرت بضرورة أن أكلمك في أمر هام.
- كلي سمع وطاعة، تكلمي بما تريدين.

وجهتها للصالون التي لم يكن به إلا سرير خشبي عليه فراش مصنوع من الصوف، ووسادتين بيضاوين اللون، تقابله خزانة كتبي الدينية، فجلست فوق فراش السرير بينما أسرعت أنا للمطبخ أحضر كرسيا مطاطيا، وأجلس عليه، كانت عقارب قلبي تسرع دقاتها بشكل مخيف دون أن أقوى على تنظيمها، أما حركاتي فصارت عشوائية، تتحرك بلا ضابط او رقيب.

- عذرا على الاقتحام، سمعت أنك غادرت الحيّ، وتعيش لوحدك هنا.
- الحياة لم تعد تطاق في الحيّ، تركته بعد أن عدت لا أشعر بالأمان، ولا بالصدق.
- هذا صحيح، أنا ذهبت لفرنسا وبعد وفاة والدي عدت من جديد، لكن ليس هذا هو موضوعي الآن.
- كما تشائين، تحدثي فيما تريدين، أنا رهن لسانك.

- الموضوع محرج، لكن أعرف أنك ستتلقاه برحابة صدر، أحس أنه حان الوقت لأفرغ جعبتي أمامك.
- تحدثي سعاد، ياه، لو تعلمين كم كنت أنتظر هذه اللحظة.
- أنا أيضاً، كان بودي أن أكلمك من زمن بعيد، لكن لا أدري، لم أجرأ مثلك ربما.
- هل تتكلمين بصدق؟
- نعم بصدق، الحقيقة، إن ما شجعني على المجيء الآن هو أني لم أعد تحت سلطة أحد، توفي والدي، وذهب كل أخوتي وأخواتي لحياتهم الخاصة، أشعر بالحرية أكثر الآن، رغم كل تعاسة ما يحدث في بلدنا.

بقيت صامتا ومغتبطا في نفس الوقت، كان قلبي يقول لي أشياء لا أستطيع تصديقها، أو لم يكن لي الحق في تصديقها، وكان عليّ فقط الانصات لكلامها حتى آخره.

- أوف، لا أعرف من أين أبدأ.. ولكن من الأفضل لي أن أبدأ من الخاتمة، عندما كنت في باريس وصلتني مجموعة من الرسائل التي كتبتها لي، تعجبت أنها لم تصلني عندما كنت هنا، لا تعرف كم أفرحتني في غربتي تلك، كنت أقرأها كل ليلة، كنت أشعر بحبك الكبير لي، جعلتني أستاء من علاقتي بك، أعتقد أني أنا أيضا أحببتك في تلك الفترة، أو لا أدري، لم يكن حبا ربما، ولكن كنت أشعر بأنك تحبني، أو أكثر من الحب كنت تعبدني، كنت تأتي يوميا للثانوية، وتنتظر لحظة خروجي، تتأملني من بعيد، تحسسني أنك حاضر في حياتي، أنك قريب مني، وأنا كنت أراك، كان الجميع يراك، كان الجميع يقول لي "ها هو عاشقك ينتظرك"، وكنت أنتظر أن

تتقدم يوما ما، وتكلمني، لم تفعلها، بقيت لغزا محيرا لي، لماذا لا يأتي؟ ما الذي يعيق خطواته نحوي؟ لماذا يكتم عشقه بهذا الشكل؟ لم تتأخر عن موعدك، ولا مرة واحدة، كنت تأتي في أوقات الدخول والخروج، وفي كل الفصول، صرت ذلك المشهد الجميل والرومنسي في حياتي.

سألت عنك، أخبروني من تكون، لم يضايقني الأمر، أن تكون ابن اسكافي، ومن عائلة فقيرة لم يكن مشكلة، كنت بالنسبة لي فارس الحب الجميل، قلة من تملك روحا عاشقة كتلك التي أشعرتني أنك تملكها حتى دون أن تفصح عن تلك المشاعر التي كانت تعيش بداخلك، وطوال غربتي الباريسية نظرت لنفسي من خلال عينيك، وأحببت الحياة من خلال ما كنت تشعرني به من حب، ولو من بعيد.

قصة حبنا كانت جميلة، ولكن لا أعلم السبب الذي أحبطها بهذا الشكل، ومنعها من التحقق، ولو ليوم واحد، كنت أريد أن أعيش هناك في الغربة بعيدًا عن كل هذا العنف الذي نعيشه هنا، لكن جاء موت والدي، وأعادني للبلد، ولكن قبله كانت رسائلك هي السبب الأول، أقسمت أن أراك عندما أعود، وأتحدث معك، لأقول لك كل هذا الكلام حتى، وإن لم يعد ينفع ربما الآن، بعد تأخره كل هذا الوقت.

توقفت عن الكلام، بعد أن قالت ما يجعل الفؤاد يقشعر، ويطير بجناحين من نور.

نظرت نحوها بحنو وحب، قلبي يخفق، جسدي أحسه كالفراشات التي خرجت من شرنقتها الطويلة، قلت:

- يا إلهي لا أصدق ما أسمعه الآن، أحمد الله على هذه الساعة، على أن رسائلي التي ظننتها سُرقت مني وصلتك، شكرا لمن

أرسلها لكِ، لمن منحها تلك القوة كي تصلك، وتبدد بـــرد غربتك، شكرا أنك حضرت إلى هنا، بعد أن أغلقت نوافذي على العالم وبقيت أنتظرت ساعة موتي.

حتى تلك اللحظة كنت أظنني في حلم، حلم شخص ســيموت، ويرى في ما يشبه المنامة السحرية أنه حقق شيئا عاش من أجله طويلا، فأغلق عينيّ عدة مرات وأعيد فتحهما لأبصرها أمامي، مجسدة بجمالهـــا وفتنتها تلك، تبتسم وتختلط ابتسامتها بدموعها هي كذلك.

نظر كل واحد إلى الآخر بلهفة وشوق، تقدمت أصابعنا نحـــو بعضها البعض، اقتربت حتى كادت تلامس بعضـــها، سمعنـــا دويّ انفجار عنيف، اهتزت الأرض، تداخلت الأحلام مـــع الكـــوابيس، تفجر زمن الحلم الأبيض، صار الجوّ رماديا، بلـــون بخـــار رمـــادي كثيف، غاب الضوء، السقف سقط نصفه على القاعـــة، والقاعـــة ارتفعت إلى السماء، الدم سال، نقاط حمراء تحولت إلى بحيرة دمـــاء متناثرة، الوجه الجميل صار أسود، أحمر، أزرق، العينيـــان تنظـــران للأفق، لا شيء في الأفق غير دخان انفجار مرعب هز كل شـــارع عميروش حينها.

في الدخان الكثيف، وأصوات القتلى الذين يذهبون، يصعدون، يرحلون إلى مكان آخر من هذا العالم، وضعت يدي علـــى يـــدها، سحبتها من كل ذلك الخراب الأسود، سرنا متحدين مـــع بعـــض، سرنا، والطريق مفتوح أمامنا، الطريق مفتوح نحو لا ندري.

الكاتب

الفصل الرابع

يسألني المختار:

- ما هو السهل، وما هو الصعب في الحياة؟

لا أعرف بم أجيبه، كثيرة هي الأسئلة التي بقيت معلقة حينها في تلك السنوات السوداء حيث تعفن الوضع، وتداخل الحلم بالكوابيس، ضاع الأمل في حبل المشنقة.

عرفت المختار صغيرا وكبرنا معا في نفس الحيّ تعلمنا في نفس المدرسة الابتدائية ثم المتوسطة ثم الثانوية، وهو يذكرني بممثل أمريكي مشهور مات في عز شبابه ومجده لكن المختار لم يعرف أي مجد في الحياة فكانت معيشته صعبة من البداية، كان يقول:

إن تحدي الجنون كل يوم هو أمر غير محتمل..

لكنه كان فطنا وذكيا، ويعرف كيف يحتال على الحياة والناس، ووظف كل ذلك لمصلحته الشخصية، وحكمته تقول:

- مضطرا أخوك لا بطل..

كالناس جميعا ربما ظل المختار يتحايل قدر ما يستطيع على الوضع الذي يعيش فيه وكثيرا ما شعرت بأنه صار مقتنعا بذلك الدور الذي يقوم به في هذا المجتمع الذي يفرض عليك بكل الطرق إما الاستسلام لأن يطحنك الفقر والموت، أو مواجهته بما تستطيعه من ذكاء وشطارة وخبث أحيانا فكان من حين لآخر يغامر في تمثيل دور الشخص الذي يستطيع حل كل المشاكل التي من شأنها أن تعترض الآخرين في الحياة مقابل مبالغ مالية تتفاوت بحسب المهمات التي يطلب منه إنجازها،

وكان ينجح تارة وتارة يجد نفسه في مواضع لا يحسد عليها وكثيرا ما شاهدته في مواقف يتبارز فيها باللسان والصراخ مع شخص يقول له:

لقد احتلت عليّ وسأدفعك الثمن غالياً.

في الصغر لم يكن يعرف ماذا يحدث من حواليه، ولم يسأل لماذا وُلد في عائلة فقيرة تتكون من عشرة أفراد، ثلاث منهم مجانين، وأب يعمل في النظافة، ولا يقرأ ولا يكتب ويشتمهم كل يوم، وأم مسكينة لا يدري من أي مكان جاء بها، وتزوجها، وأنجب معها كل هذا العدد من الأطفال، ثم تركهم يسيحون في الشارع، فالله هو الرزاق كما يقولون متذرعين بشيء من هذا القبيل، وهو لم يفعل بإنجابهم شيئا حراما، بل ما أمرنا به الرسول: حتى أفاخر بكم الأمم..

كانت حكاياته عن عائلته مجال حديثنا اليومي وقصصهم الغريبة التي لا تحدث إلا لمن قرر القدر تعذيبهم في الحياة قبل الآخرة يلوكها معه كأنها نياشين على صدر ضابط عسكري.

كل هذا أكسب المختار بشكل غريزي القدرة على التحايل والتخابث لكسب معيشته، ويوم قرر ترك الدراسة في المرحلة الثانوية كان مفهوما جدا أنه بحاجة إلى العمل، وليس للتعلم وأنه بلا مال سيفشل في الاستمرار داخل هذا المعترك اليومي الصعب..

لم يكن صديقي القريب وكنت أعتبرني قليل الأصدقاء بالمقارنة مع غيري من أبناء الحيّ ولكن كان الأقرب إليّ من غيره فهو حلو المعشر ويطرق باب بيتنا كلما وجد فرصة، خاصة بعدما بدأ يعمل في مقهى "السي حميد" وصار له بعض النقود التي لا يصرفها إلا على أكله وشربه وملبسه.

يطلب مني أن نخرج معاً ونسير في الشوارع نهيم فيها بحثا عن لا شيء، أو هي تصرفات مراهقين يريدون تمضية الوقت، ورغم أني كنت

مرتبطاً دائما بالدراسة والقراءة التي كانت تأسرني تلك الفترة كنت أستجيب مرات له دون أن أعرف حقا ماذا يريد هذا الشاب من صحبتي، دون أن أعطي للأمر أهمية أكبر من حجمها الحقيقي..

ثم كانت له طريقة مقنعة جدا عندما ينادي عليّ:

- ماذا هل تريد أن تتعفن في البيت هيا نشم بعض الهواء.. الحياة لا تحتاج منك إلا أن تتنفسها كي تعرف قيمتها.

ظل يبهرني كلامه لأنه يقوله غالب الوقت بصدق.

لم يكن عنده أصدقاء هو أيضاً، وعندما تُولد في عائلة كبيرة تمتلأ عليك الحياة، وتزدحم بالأخوة والأخوات فهم يأخذون منك كل شيء، ولا يتركون لك أي فرصة لتتعرف على آخرين، ولا أدري لماذا أنا بالذات كان يرى فيّ بوصلته.. شيء ينقص عليه آلامه، أو يخفف من ثقلها عليه..

سألته مرة فرد عليّ دون تفكير:

- أنت تعرف أشياء لا يعرفها الآخرون عني لقد حكيت لك كل شيء، ونحن صغار تذكر يوم كنت أصارحك بأسرار عائلتي وحتى ذلك الشيء الذي لم أنسه أبدا والذي أثر فيّ بشكل سيء حين شاهدت أخي يتحرش ليلا بأختي، ويحتك بها في الفراش، أظننا جميعا سمعنا في ظلمة ذلك الليل شيئا يحدث لكن صمتنا جميعنا، كنا منحشرين في غرفة واحدة بناتًا وذكورًا، أمور كهذه كان عليها أن تحدث يوما أو كل يوم..

نعم تذكرت قصصه المأساوية تلك وحتى طريقة والده في تعذيبهم عندما يخطأون بل مرة أتذكر أني بكيت معه عندما قص عليّ كيف أن والده علقه من رجله بعد أن عراه من ثيابه وراح يجلده بسلك من حديد حتى سال الدم أحمرا على الأرض.

قال لي المختار:

- الصعب هو أن تتعود على كل ذلك، وتظن أن لوالدك الحق في تأديبك، وتربيتك بهذا الشكل.

ثم كبرنا مع الوقت، هو في زاويته، وأنا في زاويتي، وكثيرا ما حاولت تجنب لقائه فلقد كانت قصصه تثير رعبي دائما، أو شعوري بأني أعيش في مجتمع حقير وغريب ومتوحش وغير قابل للتطور، هو لم يكن يشاطرني رأيي ذاك رغم معاناته دائما، وكان يتحفظ على الحكم قائلا:

- لا أملك الحق في ذلك، الحياة هكذا شر وخير، وعلينا تقبلها كما تأتينا.

ربما ذلك ما أنقذه في النهاية من الانتحار، وترك هذا العالم، والذهاب إلى عالم ما ورائي..

عرفت أنه يحمل صورتين مختلفتين في ذاته فهو معي ذلك الطيب الحكيم وحتى الحنون ومع الآخرين ذلك المحتال حتى أن البعض كان يسألني عندما يرونني معه في مقهى جالسين نتحدث: ماذا تفعل مع ذلك النصاب؟

لم أسأله أبدا عن هذه الأمور، في أعماقي لا أدري لماذا نجد أعذارا لبعض الناس، نفهمهم جيدا بحيث نتقبل منهم سيئاتهم تلك. كنت أكتفي معه بالأمور الجميلة، والقصص التي يتخيلها ربما تحدث له من قبيل أن يلتقي بأمريكية مثلا، ويعاكسها في الشارع ويقنعها بأن تنام معه، ثم تأخذه لنيويورك:

- تصور يا صديقي لو حدث هذا يوما فأجدني في نيويورك، مانهاتن، بروكلين شيكاغو، مع ناطحات السحاب التي لا تصلها العين، تصور ماذا سيحدث لي حتما سأعيش سعيدا وبإحساس لا نهائي بالحرية..

لكن عندما دخلت الجامعة لم أعد أتبين أخباره كثيرا فلم يعد المجال يسمح باللقاء كما في سابق الأيام حيث كان كل شيء متداخلا في نفس الرقعة الصغيرة من الحيّ، والثانوية، كما لم أعد بدوري أبقى في البيت أطالع وأنتظر فرصة الكتابة التي أتوقعها تنفجر مني كبركان..

ثم سمعت أنه دخل الشرطة، كان ذلك أجمل خبر، ستتوقف ألسنة السوء عن ذكره بالشر وترسيخ صورته كمحتال، وبعد سنتين تدريب تخرج برتبة مفتش، وأرسل للعمل في مدينة وهران حيث قضى ما يقرب السنة قبل أن يعود للجزائر العاصمة من جديد كان ذلك في عام 1991 ويوم شاهدته قرب البريد المركزي فرحت لُلقياه كثيرا، وفرح هو أيضاً بتلك الصدفة الجميلة حيث كان يبدو سعيدا نوعا ما، واعتذر على أنه لن يتحدث معي طويلاً لأن خطيبته تنتظره في مطعم قريب من فندق السفير فتفهمت أمره، وباركت له الخطوبة كذلك، واتفقنا على اللقاء مرة أخرى قريبا..

جاءني للبيت، ولحسن حظي كنت موجودا فتتحت له الباب، ودخل مسلما ومهنئا لي على أني أصدرت كتابي الأول الذي سمع عنه من خلال إحدى الحصص الإذاعية بالقناة الوطنية الأولى، تكلمت معه كثيرا، وهو شح في الكلام، كأن مهنة الشرطي جعلته كتوما وحذرا في كل كلمة تصدر عنه.

تأسف لأن والدي اختفى، و لم نجد له أثرا، وقال لي بأننا مقبلون على أمور أخطر فهؤلاء الإسلاميون سيفعلون كل شيء لقلب النظام..

لم نتفق على بعض الأمور السياسية حينها، ورغم أنه لم يكن مقتنعا بما رددته عليه من أن "العسكر" هم سبب المشاكل كلها لأنهم لا يريدون ترك الحكم ظل ينصت إليّ بانتباه كما لو أنه يملك معطيات كثيرة لا أملكها..

اعتذر بعدها، وقال إنه سينصرف، وإنها ربما ستكون المرة الأخيرة، التي يعود فيها للحيّ الذي تغير لونه وشكله، وطريقة حياة الناس فيه فصار الجميع متدينين، أو يدعون ذلك، وهم يتظاهرون بأمور لم تكن موجودة من قبل في حياتهم السابقة.

ترك المختار البيت دامع العينين دون أن يتقول بكلام يشرح لي سبب ذلك، وخرج إلى حيث لا يدري في مهمة ستجعلني لا أراه لفترة طويلة.

***

زهرة الفاطمي هي من سيجعلني أحلم أكثر في تلك الفترة الساخنة من الوقت الذي كنت أعيش فيه تقلبات وجودية كثيرة.

بعد اختفاء والدي منيت بشر هزيمة نفسية يمكن أن يمر بها شاب في مقتبل العمر بقيت مع أمي أنتظر بزوغه يوما ما دون أن يحدث ذلك، ثم استسلمنا للواقع الذي نعيش فيه بكل ثقله ومأساويته، وأيامه السود التي كانت تنتظر الجميع خلالها.

لم أتخلص بسهولة من علاقتي بزهية، رغم أنها ظلت علاقة سرية دامت ثلاث سنوات كاملات أشبعت فيها كل رغباتي الحيوانية، وأعطتني ثقة الرجال في أنفسهم، وتعلمت منها ما تعلمت من قيم وتجارب حياة، لكن في يوم ما أخبرتني زهية أنها لا تستطيع أن تسمر في علاقتها معي، وأنها بحاجة لرجل حقيقي يعيش معها، ويتكفل بها أمام الجميع فغضبت منها وصرخت محتجا" ألا ترينني رجلا" فلم تقل لي شيئا، وظننت أنها تخدعني أول الأمر، وهي تسحب من تحت قدمي البساط، فرحت أراقبها بعض الوقت دون أن أجد ما يثير أي شبهة في سلوكها، وجاءت حادثة اختفاء والدي لتغمرني بالأحزان التي ألهتني

عنها حتى سمعت أنها تزوجت من شخص يقربها في السن، وكان عرسها عرسا جليلا في الحيّ حضره الجميع إلا أنا..

من الصعب الحديث عن تلك الفترة التي اختفى فيها والدي عن أنظارنا بعد ذلك الاعتقال المشين الذي أظنه قضى على آخر أحلامه المستقبلية فلقد تبلبلت فيها الأوضاع، وتداخلت، واختلط الأبيض بالأسود، كأن موجة مغناطيسية مست جسد المجتمع فأدت إلى حدوث زلزال عنيف انبثقت من تحت أرضه أرواح جديدة سكنت أجساد هؤلاء الناس فساروا في طريق جديد كالمغنطين، أو كالسائرين نياما يتكلمون لغة واحدة، ويهتفون بشعارات مشتركة، ويقدمون أنفسهم فدية للسماء، ومن أجلها يهُون كل شيء، تهُون حياتهم، ويهون أولادهم، وعملهم ورزقهم، إنهم يطمحون لشيء أعلى وأسمى، وهُم في خدرهم مطمئنون ومرتاحون..

هناك في تلك الفترة صار العالم يبدو لي سيئا وجحيميا، وأقدار الناس ذاهبة لنفق مظلم وتراجيديات عنيفة لن ينجو منها أحد مهما كان..

عندما تعرفت على زهرة الفاطمي كانت تعمل في الصحافة التقيت بها في مهرجان المسرح المحترف بمدينة عنابة في صيف عام 1991 جاءت لتغطي تلك الفعالية، بينما كنت متواجدا هنالك بالصدفة وعندما سمعت بمهرجان في عز ذلك الوضع السياسي الساخن في البلاد، ذهبت لأروي عطشي للفن، كنت بحاجة لتلك اللحظات التي تخرجك من نفقك الأسود الذي تتصارع معه كل حين كي لا يلتهمك وكي تبقى لك بعض اللحظات المبهجة في الحياة.

لا أذكر إن كان أنا الذي تقدمت منها لأتحدث معها، أم بدأ كل شيء عندما بادرتني بسؤال بسيط: ما رأيك في هذا المهرجان؟ فعبرت

لها عن قناعتي بأن الثقافة هي السند المنيع ضد كل أشكال البربرية والتخلف، أظن إجابتي هي التي أفرحتها، أو أقنعتها بالتعرف عليّ، حيث أني لاحظت أنها بقيت تهز رأسها مؤيدة لكل ما كنت أقوله لها، شعرت من جهتي بأني أمام فتاة تمتلك قدرا من النضج والوعيّ فدعوتها لنشرب شيئا ما على شاطئ البحر، وافقت على الفور، كانت العروض المسرحية تُقدم في المساء، وكان عندنا كل الصباح لنتجول في مدينة عنابة المميزة، كنا في الصيف، والحرارة تحرق الأجسام وتثقلها، ولكن لم نشعر بهذا على ما يبدو، إذ جلسنا في مقهى بساحة المدينة، ثم توجهنا لمطعم غير بعيد عن الشاطئ، كان يطل على البحر، و لم نتوقف خلالها عن الحديث كما لو أن كل واحد وجد في الآخر ضالته، أو نقطة حُلمه البعيد.

في المساء عدنا إلى ساحة المدينة، ودخلنا قاعة المسرح معا، وجلسنا قريبين من بعض، ثم بعد انتهاء العروض ذهبنا إلى فندق" المشرق" مع بقية الإعلاميين والمسرحيين حيث طلبت مني أن نسهر معا بمطعم "المشرق" حيث كانت له شرفة جميلة تطل على الساحة، قالت لي مبتسمة:

- أنا أعزمك، ماذا تشرب؟

طلبت بيرة هولندية، وطلبت هي نفس الشيء، شربنا ليلتها نخب هذا اللقاء الصدفوي الجميل، وبقينا نتحدث في الأمور السياسية التي تشغل البلاد، كان لها موقف راديكالي من حكم المتدينين، ومن حكم العسكر قالت متأسفة "نحن بين نارين"، وسألتني عن رأيي، فأخبرتها بأني كاتب يُحب الحرية، ولو وضعوا الحرية في كف، وأي شيء آخر في الكف الأخرى، لما ترددت في الوقوف إلى جانب الحرية.

ابتسمت من جديد، وهي تسرح شعرها إلى الخلف، تأملتها جيدًا لأول مرة، وهي تدفع خصلات شعرها عن وجهها، بدت لي في عز شبابها وعطاءها، كما بدت بعض الشيء سعيدة بما حققته.

- هل تعرف، كل الناس يرونني متحررة فوق اللازم؟
- لماذا؟
- لا أدري ربما لأني أدخن، أشرب، أتحدث مع الرجال دون عقدة، ودون أن يشعروني بأني مرتعبة من فكرة أنهم سيقتحمون حجرتي في أي لحظة لأن لهم أطماع في جسدي.
- أفهم هذا الشعور، لكن واقعنا متخلف، الرجل هكذا يفكر في المرأة التي يظنها متحررة، تمارس الجنس في كل لحظة، مع أي شخص غريب، صعب أن تقنعهم بأن الأمر مرتبط بإعجاب أو جاذبية أو لست أدري.
- نعم أعرف، للأسف صعب مكافحة المتدينين لأن لهم مواقف ثابتة من المرأة، لكن الأصعب مكافحة من تظن أنهم يدافعون عن الحداثة، وحرية الإنسان، وهُم يفكرون بهذا الشكل، حتى مدير جريدتي التي أعمل بها "المعاصرة". تصور مرة دعاني لعشاء فقبلت وعندما عرض عليّ شرب النبيذ قبلت وتحدث في أمور كثيرة كانت جيدة على العموم ثم عندما فرغنا من كل ذلك وجد أنه من الطبيعي أن ننام مع بعض، قلت له حينها: أنت متزوج؟ وأنا أعرف زوجتك، انها امرأة جميلة وسيدة محترمة، فبدأ يبرر أن الأمر لا علاقة له بالزواج وو.. لكن تمسكت بموقفي حتى صرف نظره لكن بقي يتعقبني لفترة طويلة..

- توجد إزدواجية في هذه البيئة والجميع ينظر لكل شيء من خلالها.
- لا أدري، ولكن بالنسبة لي أرفض أن أسجن نفسي في ما ينتظره مني الرجل، هذا لا يعني أنني لا أرغب أنا أيضا مثلما يرغب الرجل، لكن كل شيء في مكانه.

ظننت أنها تستدرجني للحديث في موضوع ما لتعرف موقفي، وماذا أريد من خلال لقائنا، المرأة تخشى أن يظن الرجل أنه يفهمها من أول يوم حتى لو بدت شفافة أمامه، وفكرت أن أجاريها في الكلام دون أن تفهم أني أستوعبت ما يختفي بين السطور، لكن بعد ساعتين من الشرب، والدخان، والثرثرة فهمت أني كنت على خطأ في تفكيري، وأنها فقط كانت تتحدث بعفوية، وتطرح أفكارها دون لف أو دوران..

وصلت الساعة الثانية عشر ليلا، والمطعم بدأ يفرغ من زبائنه قليلا، لم يبق إلا أنا وهي، وبعض المسرحيين الذين سبب لهم الشراب يقظة ذهنية فكنا نسمعهم يغنون، ويرقصون من حين لآخر.

سألتني فجأة:

- ما الذي جاء بك إلى عنابة؟

فقلت بدون تفكير:

- الهرب من العاصمة، من حي "مارشي أتناش"، من كل شيء تقريبا، رغم أن الحال هنا لا يختلف كثيرا، الوجوه هي نفسها، تحمل إمارات التعب واليأس، والمشهد مفتوح على القادم المُرعب.

قالت لي مبتهجة:

- أعرف حي "مارشي أتناش" أنا ولدت بـ "الحامة" غير بعيد عنه، وأجمل شيء في العمارة التي ولدت فيها أنها مُحاذية لحديقة

التجارب العلمية، ونافذتي كانت تطل على أشجار الكاليبتوس الباسقة، والعصافير التي تزقزق، لقد شعرت بأني أعيش بين ضفتين مختلفتين ومتباعدتين، من جهة هذه الحديقة الجميلة، ومن الجهة الأخرى الشارع المليء بالقذارة، والحياة الصعبة.

تحدث كل واحد عن ذكرياته، وغبنا في شجن الماضي العذب، وموسيقاه الرنانة، الماضي الذي يذهب لكي لا يعود. إن اللحظات التي تمضي لا تموت، لكن لا نستعيدها إلا بألم، كما لو أنها جثة ميتة نريد أن نعيد لها الحياة، كما لو أنها ماتت بالفعل لكن وهجها يبقى خالدا مع ذلك.

وحينها قالت لي حكمة جميلة:

- لا أحد يُريد أن يفكر في الحياة كما هي على حقيقتها مجرد ضحكة ساخرة، ضحكة عبثية، ضحكة راقصة، ضحكة لا معنى لها، ضحكة ضد النذالة والحقارة، أو ضحكة بلا معاني كبيرة ولا معاني صغيرة، ضحكة في وجه العدم واليأس والشر، والناس الذين يضيعون حياتهم في الندم عليها، ضحكة من أعماق، أو سطح القلب، لا يهم أيضاً، ضحكة لا غير... ولو ضحكت أنت، وضحكت أنا، وضحك الجميع سنكتشف كم هي بسيطة هذه الحياة وجميلة، ولا تحتاج إلى كل هذا العنف، والهياج الدموي الذي يجعلها صراعًا مستمر على تملك ما لا نملك فيه أي شيء..

ثم صمتت وشردت بعض الثواني فقط، وعادت من جديد لتخبرني:

- لا تأبه لما أقوله، فهو مجرد أحلام مثالية ليس لها علاقة بالواقع الذي نعيشه.. فواقعنا شيء آخر، الابتسامة فيه تقطع قبل حتى

أن تظهر على الشفاه أما الضحك فلا.. هيا بصراحة منذ متى لم تضحك؟

- صحيح من فترة طويلة.
- وأنا أيضاً أحيانا أشرب لأضحك فقط، لأنسى كل ثقل الأفكار الموسوسة في ذهني، لأطمئن على صحتي النفسية، أصبحت قلقة من فترة، قلقة على كل شيء، ليس على نفسي فحسب، ولكن على الجميع هذا المجهول الذي ينتظرنا.

ثم توقفت عن الكلام، وسحبت نفسا من سيجارتها، حيث انطلق الدخان في السماء على شكل دويرات صغيرة راحت تتبعها بنظرها، وهي تشعر وتقول بداخلها: كم أن الحياة ربما تشبه فقاقيع الدخان الوهمية، وعادت تتكلم موجهة نحوي الحديث:

- أنا أحب والدي، رغم أنه كان يعمل في الشرطة، كان دائما متفتحا ومتفهما، لقد رباني على الحرية والمسؤولية، وهذا شيء لن أنساه له، لكن في الفترة الأخيرة شعرت بأنه تغير، مثل الجميع تقريباً، حتى أنك تظن أن غازا ساما لوث الجميع، دخل إلى قلوبهم فلوثها، أمات فيها نبض الحياة والرغبة في العيش، وحولهم فجأة من أشخاص طبيعين إلى ناس غير طبيعين، ينتظرون تحقق حلم غريب أن يعودوا إلى الوراء، وأن ينقذهم الله من عذاب الآخرة..

حاولت أن أفهم منها المزيد، إذ بقي كلامها غامضًا، بدون أن أتدخل أكملت ودموعها تتأرجح في عينيها:

- لقد تقاعد منذ خمس سنوات، وذهب للعمرة ثم تبعها بالحج، أظنه هنالك التقى بأناس من فصيلة أخرى ومختلفة، وعاد بأفكار جديدة، طلب من أمي أن ترتدي الحجاب، وهي لم

تعترض لأنها في الستين من عمرها، ثم بدأ يطلب منها أن تدفعني لارتداءه أنا أيضا، وعندما قررت مواجهته صفعني على خدي، وكانت تلك هي أول مرة يفعلها في حياته، ورغم ذلك لم تزعجني صفعته، ولكن أزعجني أني أحسست أنه تغير، وصار يعتقد أن الطريق الوحيد الصحيح هو الذي يتبعه.

من جهتي تحدثت لها عن والدي المختفي منذ اعتقالهم له، أفرطت في شرح علاقتي الوجدانية به، وقلت كلاما كثيرا كله شاعرية وحب، فبقيت ترقب كلامي مسرورة، ومندهشة ثم قالت:

- أب شاعر هذا أجمل ما يمكن أن يحدث لطفل.
- لكن حملني وِزر أشياء كثيرة معه، إحساسه الرهيف بالحياة، كل نقطة سوداء تضايقني وتشحنني بالغضب، وتدفعني للمواجهة، ولو على حسابي، غالب الوقت أخسر المعارك التي أتدخل فيها لأني لا أحسب العواقب.
- قد تكسبها في جهة موازية.
- نعم كما أخبرني والدي، يظل الأدب هو الطريق المثالي للنصر على هزائمنا.
- أنا تركت البيت بعدها، وذهبت للعيش عند صديقة، كانت قد قطعت علاقتها بكل ما تنتمي إليه من قبل، حياتها قاسية، على فكرة هي من حي "مارشي اثناش" إسمها وردة سنان.
- نعم أتذكرها، لكن لم أتحدث معها أبدا.. وأقرأ لها في الصحافة بعض المقالات هي تكتب عن الحرية المهددة، وتتهجم على المتدينين.
- نعم، وبفضلها أظن تحررت من بعض المساوئ التي كانت تعشعش في رأسي، نحن النساء نعيش تحت ضغط حكم

الرجال علينا، ومواقفهم منا، هم معيار حياتنا، وعلى ضـــوء رؤيتهم تلك نتمشى معهم في كل صغيرة وكبيرة، نحمل وزر ذنوب لم نرتكبها، نحن الخطيئة بامتياز قبل حتى أن نخطـــئ، كان حواري مع وردة سنان شيقا وجعلني أفهم أشياء ظلـــت غامضة عني، ومن بينها أن الحرية لها ثمن، وأن الشـــجاعة لا تعني التهور..

توقفنا عن الحديث عندما شعرنا أن الجميع نهض من على طاولته وذهب لينام وأن البارمان الذي كان يسقي الشاربين بدأ يضع الكراسي فوق الطاولات فقمنا من مكاننا وكنت سأنصرف لولا أنها أمســـكتني من يدي وقالت: إلى أين ذاهب؟ الوقت تأخر.. وما هي إلا لحظـــات حتى كنا بنفس الغرفة ممدين على نفس السرير، وشفاهنا تلعق بعضـــها البعض بجنون ووحشية.

***

بعد تلك الليلة الغريبة أصبحت أحبها، وعندما عدت إلى الجزائر العاصمة، وتركتها في عنابة شعرت بأني تركت قلبـــي معها، وعـــدت بدونه، أو أنها كانت حاضرة أكثر مما ينبغي في ذلك المكان المتكهـــرب من الوجدان، والذي إن أصابته الصاعقة استسلم لها استسلام الجســـم للموت..

عدت مقشعر الروح، ومتزلزل البدن، في حالة عشق مجنونة، حتى أن والدتي عندما رأتني على ذلك الحال سألتني محتارة، وهي تراني أقفل على نفسي غرفتي فلا أبرحها إلا للحاجات الطبيعية ظنت أني مـــريض في البداية، ثم في حالة كتابة، فأنا عادة ما كنت أخفي نفسي عن نظـــر الآخرين عندما أكتب ثم شعرت بأن تلك الوضعية المضطربة سببها أمر

آخر "ماذا حدث لك؟" "لاشيء، فقط أشعر بأني غـــارق في لحظـــة حلم".

كانت أمي تسألني دائما عن حياتي العاطفية، وتتعجب أني لا أتحدث لها عن علاقاتي النسوية، وأنفر من ذلك، ربما بينـــها وبـــين نفسها كانت ترى أني ما زلت بعيدا عن مشاعر الحب، فهي عندما أحبت والدي تركت كل شيء من أجله، وتزوجته، كانت تحلم أن يحدث لي شيء من هذا القبيل، فلا أجمل من منظورها كما تقول من حالة العاطفة التي تسرق منا حتى أقدارنا "الإنسان يتملكه العشـــق فيتيه"، لم أخبرها على تعرفي بتلك الفتاة التي تسمى زهرة الفاطمي، صمت عن عشقي، والحق كنت خائفا من كوني أعـــيش في حلـــم فقط، وأنه ربما في الغد، أو بعده سأفاجأ بأني تخيلت هذا فقط، ولم أعشه، مجرد قصة حلمتها، ولم تحدث في الواقع، كنت أسترجع تلك الليلة المجنونة بكل تفاصيلها وخيوطها، وبكل قلقهـــا وأشـــواقها، وكيف أني مارست الحب لأول مرة بعاطفة ســـاحقة ومـــدمرة، لم أعرف هذا الإحساس مع زهية طوال السنوات الثلاث التي عاشرتها فيها، وثملت معها بحق، وهي ترفعني برغباتي تلك إلى سماء عاليـــة، لكن مع زهرة الفاطمي توقف الزمن فجأة، وأخـــذ شـــكل أوراق حلم، وبساتين ورد، ترانيم عشقية، وتسابيح نورانية هكذا كتبـــت واصفا الحالة التي اعترتني بعدها..

دخلت الجزائر بعد صراعات سياسية مسدودة إلى ذلـــك النفـــق المظلم، والنار انطلقت فجأة في الهشيم..

هل نحب في زمن كهذا؟

أما أنا فأحببت زهرة الفاطمي، وبمجرد أن عادت من مهرجـــان المسرح بعنابة حتى هتفت تسأل عني، وتطلب أن نلتقي مـــن جديـــد،

والتقينا وتحدثنا كما لو أنها المرة الأولى، كانت المخاوف موجودة والأحلام موجودة.

تسألني بخشية:

- ماذا سيحدث الآن لهذه البلاد؟

السؤال علامة استفهام بشعة، ونبقى ننتظر الإجابة من عَلاَمِ الغُيوب.

أقول بصوت متعثر:

- أظن كلا الطرفين مستعدان للحرب، هذا ماكانوا يبحثون عنه من البداية، سيتقاتلون حتى الرمق الأخير، لن يرحم أحدٌ أحدًا آخر، أنا مرتعب، ولكن أريد مع كل ذلك أن أكون معكِ فقط، قلادة نوري الوحيدة في هذا الظلام الأسود.

أحس بيدها تضغط على يدي، وبقلبها يسكن قلبي، أحس بأننا ننتمي لنفس اللحظة، ونفس الروح، أقبلها قبلة طويلة على شفتيها، أمصهما بعنف، وأدخل لساني في جوف فمها، أحس برعشاتنا ترتعش، وبأجسادنا تتمازج، وبأرواحنا تتلهف لبعض، ندخل في لعبة جسدينا الممتعة، نستسلم لتلك الممازجة الشهية، نتداخل في صمت ذاهل، كأنها برهة خارج الزمن العاهر الذي ينتظرنا في الخارج.

كانت هي المرة الثانية التي نفعل فيها الحب بيقين أن لا شيء أحسن من ذلك للبقاء أحياء، لقتل الخوف، لنسيان الجريمة التي تحدث غير بعيد عنا، هناك على أطراف الحيّ، في عتمات المدينة الملعونة التي قتلوها حتى قبل أن تبدأ الحياة.

خرجنا من شقتها التي تستأجرها مع وردة سنان بالأبيار، ونحن ننزل السلالم إذا برجل ملتح ينظر إلينا شزرا ويوقفنا ويسألها: ماذا تفعلين مع هذا الغريب؟ ترد عليه هي بعنف: وما دخلك أنت؟

يقول بصوت مرتفع هو أيضاً: هذه العمارة شريفة وطاهرة، ولـــن نقبل أن تلوثها أنت وصديقتك العاهرة؟ هنا تدخلت: أرجوك احفظ لسانك؟

يتركنا ننـــزل سلالم العمارة، وهو يتوعد: سترون الدم سيســـيل حت الركبتين، يا أولاد الكلاب..

نتركه يرغي خلفنا، وننـــزل بغضب، نسرع الخطى حتى نصـــل إلى الشارع حيث حركة الناس الصاخبة نجد أمام الباب شباب يقـــف بلا أي عمل ينظرون ناحيتنا وفي عيونهم نفس التهمة والوعيد، أعتـــذر من زهرة الفاطمي، وأنا أقول:

- نسينا أن نأخذ احتياطاتنا، سيضايقونك كثيرا بعدما رأونا مع بعض..

ترد متألمة ومشتكية: كانوا يعاكسونني كل يوم أنـــا ووردة، ولم نكن نهتم، فقط لأننا بنات نستأجر شقة لوحدنا يعتبرون ذلك إهانة لهم، تهديد لشرف عائلاتهم، ولكن لن نتنازل على هذا الحق البسيط.

أحذرها من جهتي:

- زهرة لا داعي لأن تستفزي عديمي الضمير والـــوعيّ، هـــم محبطون ويرمون إحباطهم على الآخرين، أعرف هذا النـــوع، يوجد الكثير منهم في حيّ مارشي أثناش، لا يجب أن تأخذي الأمر بسهولة..

تطمئنني، نأخذ سيارة أجرة إلى غاية محمد الخامس حيـــث مقـــر الجريدة التي تعمل بها، تسلم عليّ:

- نبقى على اتصال.

تغادرني بينما أعود إلى الحيّ، ألتقي بشخص من الحيّ، ويخبرني:

- أريد أن أحذرك فقط، جماعة الزاوش تحضر قائمة سوداء لتنفيذ عمليات الإعدام، أظنك ضمن القائمة، اهرب من الحيّ عاجلاً..
- كيف عرفت؟
- أنا بالجامع يا أخي، وهم يديرون أمورهم بالمسجد، بعض الكلام يصل أذني، احذر أرجوك.

لم أكن أعرف معنى الحذر من قبل، ولا حتى ذلك الشعور بالخوف، لكن فجأة بعدما سمعت الخبر منه استيقظ فيّ هذا الخوف الماكر، هذا الإحساس بالضعف، هذا القلق على نفسي، على والدتي، على زهرة الفاطمي، وعلى سكان الحيّ.

كان الزاوش معروفا في الحيّ، ما أن خرج من السجن حتى بدأنا نسمع به، وبطريقته في التعامل مع من يعتبرهم مفسدين، أو كفارا، لم يكلمني أبدا، مرة فقط كنت ماشيا بالقرب من المسجد، فوقع بصري عليه، ابتسم في وجهي، لكن تلك الابتسامة الصفراء التي لا تفهم دلالتها جيداً، أو تفهم أنها تحمل طابع الاحتقار أكثر من الصفاء.

لم أهتم حينها، لكن بعض الناس قالوا عن الزاوش إنه صار مُرعباً، وإنه يرسل أكفانا لبعض البيوت ويُهدد أصحابها، بكلمات قليلة "هذا مصير كل من يتعامل مع الطاغوت" الحمد لله لم يصلني شيء، لقد كنا في العمارة حتى ذلك الوقت محترمين من الجميع، رغم أن عدم لبس أمي للحجاب يثير استياء البعض، قلت لهم إنها في الخمسين، وإنها سيدة محترمة ومهذبة، و لم تؤذ في حياتها شخصًا قط. قالوا لي: لا يهُم، الحجاب يسترها، ويُبعد عنها أولاد الحرام. رفضت، هي لم تقل شيئاً، لم نتحدث عن الموضوع، لكن عندما بدأت تصل بعض الأكفان للبيوت لبست بدورها الحجاب، وقالت لي:

- لا أريد بسببهم مغادرة هذا البيت الذي يحمل كل ذكرياتي الجميلة.

بدأت أخاف، بدأ الجميع يخاف، لم نعد نعرف هذا مع من وذاك مع من، صارت الريبة مشتركة، وأحاديث الناس التي تزيد من فعل الغموض، فالكل يدلي بدلوه حتى في عز القتل والموت، الناس حائرة، ولكن تتحدث وتتهم بعضها البعض، ثم جاء الصمت المدهش فجأة، فلقد صار الجميع يخاف من الجميع، وينتظر أن تأتيه الطلقة النارية القادمة من أي شخص محتمل.

الأمن السرّي، وغير السرّي صار يُداهم البيوت، ويعتقل من يشك فيهم، أو من وُشي بهم من طرف مخبرين لا نعرفهم، يأتون في الليل، ويأخذون عائلات بأكملها، ويستنطقونهم، لا أحد كان يعرف ماذا كان يحدث هنالك بالضبط، البعض لم يكن يعود من بعدها إلى البيت، والبعض كان يفر قبل أن يمسكوه فنسمع أنه التحق بالجماعة في الجبل، ومن يعود للبيت يعود منهزما نفسيا، ومنهار بدنياً، وغير قادر على الحديث، وعندما لا تداهم الشرطة البيوت، وتهجم على بعض الأماكن المشتبه فيها يمر من صار اسمهم خفافيش الليل، يقتلون، أو يذبحون من هم على قائمتهم السوداء، صار كل شيء متاحا، كل شيء قابل للتحقق على أرض الواقع ليأتي الصمت بعدها فيكمل على ما تبقى من حياة قليلة في ذلك الحيّ اللعين والبائس.

***

بدأت علامات الساعة تظهر في الحيّ في تلك الليلة التي تزوج فيها المختار، لم يكن العرس كبيرا فلم يحضره إلا قلة من الناس، لم أتردد عندما دعاني، كان يريد هو أيضا حفلة بسيطة، يتزوج فيها،

ويأخذ معه زوجته وينصرفان عن هذا المكان الذي يعرفه الناس فيه، لقد قدر درجات الخطر، لم يحسب لها ذلك الحساب الكبير، وبينما كنا نتحدث في غرفة الصالون سمعنا الرصاص يلعلع في الخارج، أخرج المختار مسدسه على الفور ونادى على مجموعه من زملائه الذين حضروا بطريقة متخفية تمكنوا من قتل تلك العناصر التي رغبت أن تقضي عليه.

يومها أذكر أني لم أستطع النوم في الليل، لا أنا نمت، ولا أمي نامت، كانت الحيرة في عيوننا مشتعلة، والسؤال الدائم الغموض يقض مضاجعنا: من أوصلنا إلى هذا؟ تذكرت كلمات أبي عن ذاكرة العنف، تذكرت العالم الذي نشأنا فيه، وولدنا بداخله، عالم الدم والقتل، عالم الأحلام المشوشة، والآمال التي صنعتها خيبات الماضي العنيف.

أمي صامتة، منطوية على نفسها في ركن من غرفة نومها. وضعت كل صور والدي على السرير، وبقيت تنظر إليها، وهي تبكي، أنا منحشر في غرفة الصالون أنظر من نافذة العمارة على حيّ هادئ وصامت، ولا يتكلم، ينتظر موته القادم بهدوء مؤلم وذل مخز للغاية..

صارت ليلة محاولة مقتل المختار هي كل لياليّ بعدها، صرت لا أنام وأنتظر شيئا يأتي من ظلام دامس يسكن في زاوية مختفية، وأمي حالتها النفسية متدهورة، تستعيد ذكرياتها مع والدي، حياتهما المشتركة، دون أن تدلي بأي كلمة، أترجاها أن تقول شيئا فلا تقول، بداخلها تغلي الذكريات كبركان، تحترق بها لوحدها، أتركها في غرفتها تتكلم بصوت منخفض مع نفسها، تصلني بعض العبارات المتقطعة، ثم صمت طويل لا آخر له.

الشيء الوحيد الذي كان صامدا فيّ هو حبي لزهرة الفاطمي، كنا نتكلم فقط بواسطة الهاتف، نتحدث عما يحدث هنا بمارشي أتناش، أو بحي الأبيار حيث تسكن. تقول إنها صارت خائفة كلما نهضت صباحا، وغادرت البيت متوجه للعمل، ترتعب من الداخل، تحاول أن لا تظهر كل ذلك الخوف وتعتبره طبيعيا لكن تماسكها ينهار بمجرد أن ترى شاباً ينظر إليها، تقول:

- هذا الحيّ الذي تسكنه لم يعد آمنا، وردة سنان لا تأتي كثيرا إنها تغير مكان نومها وتتركني لوحدي هي نصحتني بأن أفعل نفس الشيء، لكن أين؟ والدي أقسم أن لا أعود للبيت حتى يموت، اللعين، كيف جردوه من كل حنو أو شفقة؟ هل هذا ممكن؟ كيف يتخلى عن إبنته في هذا الوقت بالذات؟

لا أعرف بما أجيبها، تفقد الكلمات قيمتها فجأة، تصبح مثل شيء لا يستطيع أن يشبه الحقيقة، تصبح الكلمات عدوة، وأخطر من هذا جبانة، مستسلمة للتعاسة المنتشرة في المناخ العام للمدينة..

أطلب منها أن تأتي لبيتنا، تبقى معنا هنا حتى نطمئن على بعض، وأخبرها أن أمي لن تعترض بل ستفرح، أقنعتها بالمجيء بعد تردد، جاءت أخيرا وسكنت معي، أصبحنا ثلاثة أشخاص مرعوبين كل ليلة في البيت.

لم يكن كل ذلك إلا مقدمة لرعب أكبر، لم نكن مجهزين نفسيا لاستقباله، كانت حياتنا قبل هذا هشة، قابلة للانكسار بسرعة، ظروف الحياة اليومية لأغلب الناس قاسية، وزادهم الرعب والقتل قسوة أخرى.

كان حبي لزهرة الفاطمي هو الأمان الوحيد، بجانبي أصبحت قويّا نوعا ما، أو أتوهم أني يجب أن أكون بتلك القوة وأحرص على التظاهر بذلك، كل شيء يقف على كتفيّ الآن، تحمل

ثقل الخوف لوحدي، لعب دور الرجل الذي عليه مسؤولية الحماية، لكن زهرة كانت تعرف وهي تقول:

- لا معنى للشجاعة مع هؤلاء القتلة المجرمين، إنهم يطعنون في الظهر، يأتون جماعات بأسلحة مدججة، ويجهزون على صحفي أو كاتب كأنهم ينفذون عملية ضد كتيبة عسكرية..

كنت أعرف ذلك، ولكن كان من واجبي التظاهر أمامهم بالشجاعة. أمي بقيت فريسة لحنين غريب نحو والدي، كانت تسألني عنه كل يوم وتقول إنه حتما في مكان ما ويجب أن نبحث عنه.

لم أكن نسيت قصة اختفاء والدي، بل كانت تشغلني كل لحظة، وإعتمدت على مساعدة صديقي المختار الذي وعدني بالبحث عنه، وأنه سيعثر عليه مهما كلفه ذلك من وقت وجهد.

كان يعمل مفتشا في مقر أمن العاصمة المركزي بشارع عميروش، وكان من حين لآخر يطلعني على تحرياته، رغم الظروف القاسية التي كانت تمر بها البلاد حينها، وخيوط المؤامرة التي لا يعلم أي أحد من يمسك بها، ومن يتلاعب ويقوم بتوجيهها في الطريق الذي يشاء.

أمي لم تستطع الصمود طويلا قبل أن تترك روحها تحلق، وتغادر جسدها النحيل نهائياً، أذكر كيف أنني عندما عدت للبيت، وجدتها ممدة على السرير، وبقربها مجموعة من الصور القديمة مرمية على الأرض، وعيناها تحدقان في السقف، ماتت، وهي تستعيد ذكرياتها القديمة، تلك التي صمدت من خلالها لوقت طويل.

***

رغم مرور شهور عديدة على رحيل والدتي إلا أنني بقيت أسير تلك الحالة الحزينة المدمرة فلم أستطع نسيانها أبدا، أما زهرة الفاطمي

فبقيت حريصة على أن تقف معي في تلك المحنة الشديدة، لا أدري كيف تدبرت الأمر، واستأجرت شقة صغيرة بأعالي حيدرة، وأخذتني إلى هنالك، لنبتعد عن جو الآلام، والذكريات الحزينة، جاءت ليال ونهارات كلها صمت متجبر، ظننت أن الفرح لن يعود إلى قلبي أبدا، وهذا الجرح الكبير سيبقى مفتوحا إلى ما لا نهاية، وسأعيش بهذا الألم كل ما تبقى لي من حياة..

حاولت زهرة الفاطمي أن تعيدني للحياة ببطء، كانت تقبل غضبي عليها، وتحميلي إياها مسؤولية ترك أمي لوحدها بالبيت، مع أنها لم تكن تعلم حالة أمي النفسية المتدهورة، تقبلت مني أسوأ الكلمات، وأفظعها لكنها بقيت ثابتة معي، تنتظر أن أنتصر على نفسيتي المهزومة تلك، أن أخرج من دائرة العنف على الذات، وأن أطل من جديد مُشرق الوجه فأرى أن في الحياة ما يمكن أن نحلم به، ونقبل ما يحدث على أنه قسوة من الحياة التي فرضت علينا لا غير.

كانت زهرة الحاضرة بحنانها وحبها قادرة على شفائي من ذلك المصاب النفسي اللعين..

ما أن استعدت عافيتي قليلا حتى بدأت أفكر، وأحاول أن أفهم، ثم وصلت إلى نتيجة واحدة وهي أن أهرب من هذا البلد، ولا أبقى فيه، وصارحت زهرة الفاطمي بذلك، جلسنا قُبالة بعضنا، وبدأت أخبرها بما قررت:

- ليس عندي ما يجعلني أتمسك بهذا البلد، أنتِ موطني الوحيد، وحيث ستكونين معي لن أشعر بأي غربة، يجب أن نفر، الحياة هنا لم تعد ممكنة.. لا نستطيع العيش.. إن لم نقتل اليوم فحتما غدا، وإن لم يصبنا رصاص هؤلاء، سيصيبنا رصاص

الآخرين، نحن في وضعية المُحاصر الذي أينما يلتفت ستأتيه الرصاصة القاتلة..

شعرت بأنها لم تكن متحمسة لذلك الهرب، بقيت صامتة، وهي تسمك بيديّ، وتترجاني أن أهدأ، وألا أفكر بمأساوية حتى لو كنا نعيش في سياق مأساوي، كانت تردد:

"إن هربنا نحن، من سيقول لا لهؤلاء، وأولئك؟"

عرفت من خلال ردها السريع أنها لا تفكر في الذهاب، وأنها تفضل البقاء في أرض اللعنة هذه، حاولت أن أحاججها في قناعتها تلك، لكن وجدت أمامي امرأة مقتنعة بدورها، ولا تريد أن تغيره قيد أنملة.

احتضنتها بقوة، ورحت أقبلها بحنان، ثم أخبرتها بقراري الأخير:

- أما أنا فلا أستطيع البقاء لقد دفعت ما يكفي من ثمن لكي لا أستمر في العيش مع هؤلاء الوحوش.

سالت دموعها فجأة، وانحدرت على خديها الموردتين، وهي تضع رأسها على صدري، ثم راحت تلف خصري بذراعيها الرقيقتين، وبقيت على تلك الحال لفترة قصيرة، ثم رفعت نظرها نحوي، ومسحت دموعها وقالت:

- لقد أحببتك من أول يوم رأيتك فيه، قلت بداخلي هذا هو الرجل الذي يستحقني، وأستحقه، لكن أتفهم ما تقوله لي، لقد فقدت والدك من قبل، ومنذ شهور والدتك، إنني أضع نفسي في مكانك، لكن مهنتي كصحفية لا أدري لماذا أكسبتني ثقة كبيرة في نفسي، وعززت هذه الصلابة بداخلي، لا أريدهم أن يشعروا بأنهم سينتصرون علينا، وكما كانت فجيعتك هي فجيعتي أشعر أن كل من يقتل اليوم بالسيارات

المفخخة، أو بالإعدامات الجماعية، أو الـــذبح هـــو أيضـــا فاجعتي..

انفصلنا عن بعض في ذلك اليوم، لقد تركتها، وعدت لبـــيتي في "مارشي أثناش" وكلي عزم على مغادرة الجزائر بأي وسيلة كانت..

لم تعد هنالك حياة حقيقية في ذلك الحيّ، بدا كل شيء باهتـــا وغامضًا، والناس تتحرك دون أن تعرف إلى أين ومـــاذا ينتظرهـــا في المكان الذي تقف عليه، أو الذي ستذهب نحوه لكنني عـــدت للبيـــت لأستجمع فيه طاقتي على الهرب، لتسكنني تلك الذاكرة الجريحـــة مـــن جديد، لأحمل معي أكبر حقد ممكن عندما أفر، عندما أترك خلفي كل هذه الأشياء الثمينة من ذلك الزمن التراجيدي المؤلم.

في النهاية ساعدتني زهية على الفرار، كانت تعرف ماحدث لي، وجدتها مكتئبة وحزينة ولكن صامدة كعادتها، وتتحدث بصفاء ذهن، كعادتها، روت لي ما حدث أثناء فترة غيابـــي من تقتيل، وقالـــت إن الجرائم تزداد بشاعة، سيحطمون أنفسهم ويحطموننا، لكن ربما لأنهـــا كانت تنتمي لتلك الفترة السوداء القديمة، وعاشت فيها كل قســـاوات العنف، لم تشعر بالخوف، هي مرتعبة على زوجها المسكين الذي يعمل في "الجمارك" وتقول أنهم يشتبهون في كل من يحمل بزة رسمية حتى لو كانت للمطفئيين، أو الأطباء، أو الجمارك..

قالت لي: سأتصل بشخص في الحكومة كان معي في الثورة لـــن يرفض لي طلب، سيساعدك حتما في الذهاب بأي صفة كانت، يجـــب أن تذهب صحيح، أنت كاتب، والناس بحاجة إلى أن تقرأ ما حدث لها ذات يوم حتى لا تنسى.

شكرتها كثيرا فاحتضنتني بحنو الأمهات، وراحت عيناها تدمعان، وهي تودعني، وتتمنى لي النجاة..

أما زهرة الفاطمي فرفضت أن نقضي آخر يوم قبل رحيلي مع بعض، وأخبرتني في الهاتف أنها لا تحب لحظات الوداع الأخيرة. أخبرتها أني أحبها، وسأبقى أحبها، وأنه فراق مرحلي لا غير، وأنها يجب أن تلحق بي عندما تقتنع بذلك، ابتسمت في الهاتف، أو هكذا خيل لي أنها فعلت، وهي تقول أنها ذاهبة في مهمة صحفية لمنطقة في شرق الجزائر وقعت في إحدى قُراها النائية مجزرة شنيعة ثم أقفلت السماعة في وجهي.

كنت جاهزا نفسيا لمغادرة بلدي والذهاب إلى فرنسا حيث تقررت وجهتي إلى هنالك، هاربا مثل الآلاف التي وجدت نفسها مضطرة لذلك، كان قلبي معلقا بزهرة الفاطمي ولكن حلمت أن قرارها سيتغير يوم ما، وأنها حتما ستلحق بي بعد شهور قليلة فقط.

ما لم أضع له أي حساب أن تصلني في يوم سفري مكالمة من صديقي المختار:

- أحتاجك على الفور.
- أين تريدنا أن نلتقي؟
- تعرف لا يسمح لنا بالحركة كثيرا فنحن معرضون للخطر، لهذا تعال إلى مكتبي بمبنى الأمن المركزي في شارع عميروش أنتظرك على الساعة التاسعة صباحاً.
- حسنا سأحضر على الفور.

لم أطلعه على أنني حجزت تذكرة سفري اليوم وأني سأغادر في المساء هذه المدينة اللعينة، ذهبت لأعرف منه الجديد في تحرياته عن وفاة والدي.

وصلت إلى مقر الأمن، وجدت تصريحا باسمي على الباب يسمح لي بالدخول، كان مكتبه في الطابق الثاني، وكانت تلك هي أول مرة أدخل فيها مركزا للشرطة، وبخاصة مركزا بهذه الهيبة المعروفة.

وجدته ينتظرني بالقرب من الباب، سارع نـــاحيتي واحتضـــنني وقال: تفضل هيا إلى الداخل.

كان مكتبه صغيرا وليس به أثاث كثير، جلست قبالته واعتـــذر على أن الظروف الأمنية لا تسمح له بأن يدعوني لشرب قهوة في مكان عمومي، طمأنته أني منذ فترة لم أعد أتردد على هذه الأمـــاكن الـــتي صارت خطرة قال:

- كل شيء صار خطرا الآن.
- نعم صحيح.

ثم انتظرت أن يقول لي ما جئت من أجله لكنه بقي مترددا كمـــا لو أنه بقي في حيرة إن كان الأحسن أن يخبرني أم لا.

قلت له محفزا:

- أنت صديقي وأنا أثق فيك وأعرف أن والدي توفي حتما فلا يمكنه أن يختفي هكذا ولا نعثر عليه طوال هذه السنين أريد أن أعرف الحقيقة فقط.
- نعم، أعرف، هذا من حقك، لقد بحث طويلا في الملفات لكن لم أجد شيئاً، ولكن زميلا يعمل معي أخبرني بأشياء ســـريّة، تعرف كيف وصلت للمعلومة. لحظة أخبرهم أني أشـــك في كونك تعمل لصالح جماعة إرهابية.
- ماذا حدث لوالدي؟
- الحق شيء مؤلم، هو لم يغادر المكان الذي اعتقل فيه أبـــدا، للأسف توفيّ في اليوم الأول الذي قضاه في السجن.
- ماذا؟
- نعم هذه هي الحقيقة؟
- وأين هي جثته؟

- دفنوها في مكان ما لا علم لي به، لو سألت أكثر سيشكون في، متأسف لوالدك كنت أعرفه إنه رجل طيب، ومخلص لوطنه.

سالت دموعي لوحدها في تلك اللحظة، وبقيت صامتا أشهق بالبكاء بينما توقف هو عن الحديث، وقام يفتح شباك النافذة عندما انفجر ذلك الشيء المهول في وجوهنا وأجسامنا..

لا أتذكر تلك اللحظة الآن، لا أدري ماذا حدث بالضبط كنت في حالة أخرى عندما حدث الانفجار الذي هز الأرض من تحت أقدامنا، وأحرق أجسامنا، وجعلها قريبة من الفحم، لا شيء فيها، ولكن أحسستني مع ذلك واعيّا بما يحدث أمامي، وأنا أتشبث بشيء ما يُشبه الضوء الذي ظهر لي، وكأنه قادم من ثقب في السماء، ورحت أتقدم منه، وأنا أبكي، أو أبتسم، وأنا أتذكر لحظة غيابي تلك، وانتقالي المفاجئ إلى عالم آخر.

من الصحافة

كان التفجير المروع لقنبلة شارع العقيد عميروش في العاصمة يوم 30 يناير 1995 والتي أسفرت عن 42 قتيلا وحوالي 300 جريح.

Alors que l'Algérie n'avait connu «que» 128 attentats à la bombe entre 1992 et 1994, cette méthode d'action s'est brusquement développée de manière dramatique. Le 30 janvier 1995, le spectaculaire attentat (42 morts) du boulevard Amirouche, à Alger, où les deux «kamikaze» du GIA ont précipité leur Range Rover contre le commissariat central met en évidence cette nouvelle forme de l'action terroriste

للتواصل مع المؤلف:
bachirmefti@gmail.com